كلية : التربية الأساسية / حديثة

القسم: التاريخ

المرحلة: الثانية .. الكورس الثاني

أستاذ المادة : أ.د مظهر عبد علي الجغيفي

اسم المادة بالغة العربية : التاريخ الاسلامي في العصر العباسي ٣٣٤-٦٥٦هـ/ ٩٤٥-١٢٥٨م

اسم المادة باللغة الإنكليزية : AH / 945-1258 AD 334-656

البويهيون والسيطرة على العراق

- بلاد الديلم وعلاقاتها بالدولة الاسلامية :

تقع بلاد الديلم أو بلاد الجيل أو جيلان جنوب غرب بحر قزوين ، وقد أطلق الجغرافيون العرب التسمية لتشمل جيلان والديلم وجرجان وأحياناً الري وطبرستان ، وقد أدى توسع انتشار الديلم في القرن الرابع الهجرة/ العاشر للميلاد الى أن يتوسع الجغرافيون العرب في اطلاق هذه التسمية لتشمل منطقة أوسع كثيراً من حدود اقليم الديلم ، وينحدر سكان بلاد الديلم من منطقتين سكان الجبال ويدعون بـ ((الاستانية)) وسكان الصحاري والسهول ويدعون بـ ((اللانجية)) وطبيعة هذا الاقليم جبلية وشعبه محارب صعب المراس ، وقد أشاد صاحب كتاب حدود العالم بشجاعتهم وقابليتهم الحربية ويبين أنهم يستعملون الدروع والسيوف القصيرة في القتال ، ويطلق على سكانها الديالمة ، ويستند الديلم الى النظام الاجتماعي القبلي والى سلطة رؤساء لقبائل ، وينتشر في بلادهم الدين الزرادشتي والمسيحية فضلاً عن بقاء قسم من مكان الديلم على الديانة الوثنية ، ويرجعون في علاقاتهم الاجتماعية الى الزواج الداخلي وهو التزوج من أبناء القبيلة نفسها، وللنساء مكانة متميزة عندهم تقارب منزلة الرجال فقال مسكويه: ((وكانت منزلة النساء عندهم حسنة ، وكن يجرين مجرى الرجال في قوة الحزم وأصالة الرأي والمشاركة في التدبير)) .

وقد قاوم الديلم الدولة العربية الاسلامية وتصدوا لحركة الفتوحات الاسلامية ، واكتفوا بدفع الجزية للمسلمين (سعيد بن العاص)، وبعد تراجع حركة الفتوحات في أوآخر العصر الراشدي ، تضعضعت الأوضاع في خراسان ، وأصبح طريق خراسان – قومس غير آمن) .

وبعد قيام الدولة الأموية سنة ٤١هـ/٦٦١م، توجهت الجهود الاسلامية لفتح اقليم الديلم ، وقد تصدى الديلم للجيوش الاسلامية وأفشلوا، اثنتي عشرة حملة عسكرية ، بسبب قوتهم العسكرية ومناعة حصونهم واستنجادهم بسكان طبرستان. وظل الوضع على حاله حتى تولى ولاية خراسان القائد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، الذي استطاع أن يغير الكفة لصالح المسلمين ، وأن يعيد تنظيم المنطقة ، وينظم امورها الادارية والعسكرية ، فهدأ الموقف في هذه المنطقة نوعاً ، لكن الديلم الذين لم يتعودوا على الادارة المركزية والضبط ، لم يلبثوا أن تحركوا في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٢٥-١٠٥هـ/ ٧٢٣ ٧٤٢م) ، فوجه اليهم والي الجزيرة مروان بن محمد ، الذي أعاد بلاد الديلم الى حضيرة الدولة الاسلامية ، إذ اتبع معهم اسلوب اللين والمداراة وصالح معظم أمرائها سنة ١٢١هـ/ ٧٣٨م) .

وأثناء قيام الثورة العباسية ونجاحها وسقوط الدولة الأموية استعادت بلاد الديلم استقلالها، وظل الوضع على هذا الشكل ، حتى مجيء الخليفة أبي جعفر المنصور الى الحكم (١٥٨-١٣٦هـ/٧٥٣-٧٧٤م) ، إذ تمرد

أصبهبذ طبرستان واحتمى ببلاد الديلم ، إلا أن الخليفة أبا جعفر المنصور استطاع ببعد نظره أن يعيد الأمور إلى نصابها في هذا الاقليم .

وفي عصر الخليفة هارون الرشيد (١٩٣-١٧٠هـ/٧٨٦-٨٠٨م) زاد خطر منطقة الديلم وما جاورها حيث هرب الى بلاد الديلم يحي بن عبد الله بن الحسن (أخو محمد ذو النفس الزكية) بعد معركة فخ سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م ، فبايعه الناس ، فرأى الرشيد ان يتبع أسلوب الحكمة في حل هذه المشكلة ، واعادة هذه البلاد الى طاعة الدولة العباسية ، والتي قدم لها المسلمون آلاف الشهداء من أجل فتحها ورأى الرشيد أن هذه المنطقة ستخرج من يد الدولة العباسية ، فآثر أن ينزل يحي بن عبد الله بن الحسن بأمان ، وهذا ما تم فعلاً .

وفي سنة ١٨٩هـ/٨٠٥م عندما سافر الرشيد الى خراسان للاطمئنان على اوضاعها الادارية والسياسية ، وفد عليه مرزبان بن جستان صاحب بلاد الديلم فأكرمه الخليفة هارون الرشيد وأعاده معززاً مكرماً إلى بلاده بعد أن أقره عليها مجدداً ، بعد أن أكد ولاءه للدولة العباسية ، وفي عهد الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) تم اسناد ولاية خراسان الى طاهر بن الحسين، إذ قامت الامارة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ/ ٨٢٠-٨٧٢م) وأصبحت خراسان ضمن حكم الامارة الطاهرية ، ونتيجة لهذا التعيين فقد رفض أصبهبذ طبرستان وبلاد الديلم أن يكون تابعاً للطاهريين ، موالي خزاعة وأن يدفع لهم الجزية السنوية وهنا يبرز دور الخليفة عبد الله المأمون في حل هذه المشكلة الادارية والمالية، فكان يستلم الجزية من أمير طبرستان والديلم بما تحتويه ، ثم يعيدها كاملة باحمالها وخواتيمها إلى والي خراسان ، حلاً لإشكال اداري فأمير طبرستان يعتقد أن نسبه ومكانته لا تتيح له أن يكون تابعاً للطاهريين ، فحل الخليفة عبد الله المأمون هذا الاشكال الاداري وكتب الى أمير طبرستان بأن يرسل اليه الجزية والخراج مباشرة لتصب في خزينة الدولة سواءً في بغداد ام خراسان .

وفي عهد الخليفة المعتصم بالله (٢٢٧-٢١٨هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢ م) تمرد أصبهبذ طبرستان وسانده الديلم في حربه ضد الخلافة العباسية ، بتحريض من الأفشين ، الا أن جهود الامارة الطاهرية أفشلت الخطة، والقي القبض على أصبهبذ طبرستان والافشين ، وتم اعدامهما في مدينة سامراء في العراق ، بعد أن ثبت تعاونهما وتواطؤهما ضد الخلافة العباسية ، إذ كاتب الأفشين أصبهبذ طبرستان ، محرضاً اياه على الثورة ضد الخلافة العباسية ، حتى تسند له مهمة القضاء على الحركة ، فترتفع مكانته لدى الخليفة العباسي المعتصم بالله .

انتشار الاسلام في بلاد الديلم :

بدأ الاسلام ينتشر في بلاد الديلم بعد سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤ م عندما دخل الحسن بن زيد العلوي بلاد طبرستان وتملكها، وأخذ يدعو الناس إلى الاسلام ، فدخل الناس في الاسلام على المذهب الزيدي ، وبعد وفاة الحسن بن زيد سنة ٢٧٠هـ/٨٨٤م ، تولى الأمر من بعده أخوه محمد بن زيد ، وانتشر الاسلام في أكثر بلاد الديلم ، وعندما دخل اقليم الديلم الحسن بن علي الملقب بالاطروش في حدود سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م توسعت قاعدة الاسلام في الاقليم وبقي الحسن بن علي في بلاد الديلم يوسع من قاعدته ويكون له جيشاً كبيراً لمدة ثلاث عشرة سنة ، وعندما كثر أتباعه خرج وسيطر على كل اقليم طبرستان سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م ، فسيطر على المنطقة وطرد السامانيين منها ، وقد توفي الحسن الأطروش سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م ، لكن الامارة استمرت الى سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م ، إذ قتل حاكمها الحسن بن القاسم – وبعد سقوط الامارة العلوية في طبرستان تنازع قادة الجيش فيما بينهم وأشهرهم :

١– سرخاب بن وهسوذان الذي اشتبك في حروب طاحنة مع السامانيين .

٢ – ماكان بن كالي أو (كاكي) الذي أراد أن يحتل مكان عمه سرخاب .

٣– ليلى بن النعمان .

٤– أسفار بن شيرويه ، وكان ذا طبيعة خشنة ولم يعرف عنه ميل الى الاسلام أو تدين بل أنه رمى أحد المؤذنين من منارة جامع قزوين أثناء الآذان وكان سيء الادارة ظلم الرعية ، الذي انحاز للسامانيين وقتل سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م .

٥– مرداويج بن زيار الذي تعاون مع أسفار بن شيرويه وأحرز نصراً ضد ماكان ، وبعد مقتل أسفار بن شيرويه برز على الساحة السياسية مرداويج بن زيار ووشمكير بن زيار، واللذان كانا سبباً مباشراً في ظهور الاسرة البويهية في خراسان .

ظهور البويهون :

تنتسب الامارة البويهية الى رجل فارسي يعرف بـ ((بويه بن فناخسرو)) الملقب بأبي شجاع ، وقد التحق أولاده الثلاثة علي ، حسن، احمد بجيش الديلم والتحق علي واخوته مع القائد ((ماكان بن كالي)) ، وقد أثبت علي كفاءة في القتال وساحات المعارك فاحتل موقعاً متميزاً في جيش ماكان بن كالي ، وقد تعاون ماكان بن كالي ومرداويج بن زيار على اسقاط أسفار بن شيرويه أو قتله لكنهما اختلفا بعد مقتله فانقض مرداويج بن زيار

على ماكان بن كالي فهزمه ، على اثرها سيطر مرداويج بن زيار على الري (تقع شمال مدينة طهران الحالية عاصمة ايران) وعلى أصفهان كذلك وعلى كل اقليم طبرستان ، وأسس سنة ٣١٤هـ/ ٩٢٧م امارة وراثية عرفت باسم الامارة الزيارية ، ثم استولي مرداويج على الأحواز، وأخذ يفكر بالهجوم على بغداد ، وقال قولته المشهورة : (أنا أرد دولة العجم وأبطل دولة العرب) ، وفكر باتخاذ طيسفون ((وهي مدينة المدائن عاصمة الساسانيين ، أو سلمان باك نسبة الى الصحابي الجليل سلمان الفارسي (رضي الله عنه))) عاصمة له .

انحاز بنو بويه بعد هزيمة سيدهم ماكان بن كالي الى مرداويج بن زيار ، بعد أن استأذنوا سيدهم ماكان ، معللين الأمر بخفض النفقات (الرواتب) ، فاذن لهم ولغيرهم ، فاستقبل مرداويج بن زيار الوافدين اليه ولاسيما الاسرة البويهية الحسن استقبال ؛ لأن في لجوء هؤلاء اليه هو اعطاؤه دعماً كبيراً ضد ماكان بن كالي ، فقام (بتعيين علي بن بويه) على ولاية الكرج (الكرج : مدينة بين أصفهان وهمدان في منتصف الطريق وهي جورجيا الحالية) الواقعة بين همذان وأصفهان سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م ، فأخذت هذه الأسرة تظهر على مسرح الأحداث ، مستغلة اضطراب الأمور، وركزت نفسها في منطقة خراسان ثم بدأ نفوذ بني بويه يظهر في المنطقة الممتدة من بحر قزوين شمالاً إلى منطقة الخليج العربي جنوباً وشغل البويهيون الفراغ الذي تركته الامارة الطاهرية وأتباعها من بعدها الصفاريون والسامانيون (الامارة الطاهرية عاصمتها مدينة نيسابور، سقطت سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م ، الامارة الصفارية وعاصمتها مدينة زرنج في سجستان وقد ظهرت سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م ، وأسقطها السامانيون في موقعة بلخ سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١م والإمارة السامانية نشأت سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م وسقطت سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م وسقطت الامارة الصفارية سنة ٢٨٩هـ /٩٠١م في عهد الخليفة المعتضد بالله) .

كانت الخلافة العباسية تمر في فترة ضعف منذ تسلط القادة الاتراك والجيش التركي على مقاليد الأمور، فتنفذ الديلم في المنطقة المحصورة بين حدود الامارة السامانية وبين حدود الخلافة العباسية وقد حاولت الخلافة العباسية ايقاف الهجرة الديلمية ، بأن فوضت أمر ادارة خراسان الى الامارة السامانية (حيث قضت الاخيرة على الامارة العلوية في طبرستان سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠م) ، حتى لجأ الحسن الأطروش في سنة ٣٠١هـ/٩١٣م الى بلاد الديلم ، لكن تيار الهجرة الديلمية بدأ في اوائل الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد ، فقد ظهرت الامارة الزيارية واحتلت مكان الامارة العلوية في طبرستان وأوجدت لها مكاناً في اقليم الجبال فاتفقت الخلافة مع قائد الامارة مرداويج بن زيار وأقرته على حكم اقليم الجبال على أمل أن تبقى العلاقات سلمية ، لكن الديلم سارعوا الى مرداويج والتحقوا معه وانخرطوا في جيشه ، فما أن استقر مرداويج بن زيار في اقليم الجبال ، ونال اعتراف الخلافة به ، حتى وزع أتباعه حكاماً على مختلف الجهات فعين علياً بن بويه على ولاية الكرج .

٣- تأسيس الدولة البويهية :

بعد أن عين مرداويج بن زيار علياً بن بويه على ولاية الكرج ، ندم على هذا التعيين ، فأرسل الى وزيره أبي عبد الله الحسن بن محمد الملقب بـ ((ابن العميد)) والى أخيه وشمكير ابن زيار – اللذان كانا في الري ليمنعا علي بن بويه من الوصول الى مقر عمله الجديد والياً على بلادالكرج ولكن الوزير لم ينفذ أمر مرداويج وتأخر في تنفيذ أمره ، بل على العكس سهل لعلي مهمة الوصول الى ولاية الكرج ؛ وذلك لمودة سابقة بين الاثنين ، فوصل علي بن بويه الى ولاية الكرج واستقر بها أدرك علي بن بويه حراجة موقفه في ولاية الكرج ، إذ أرسل لمرداويج بن زيار قسماً من الجند ليتقاضوا رواتبهم من ولايته على أمل احراجه لعدم تمكنه من دفع رواتبهم والغاية من هذا العمل هو اضعاف موقفه أمام هؤلاء الجند ، ولربما يقومون بالشغب عليه أو الثورة ضده لكن علياً بن بويه أدرك مغزى ارسالهم اليه ، فرحب بهم وأغدق عليهم الأموال وصرف لهم رواتبهم ، كما تقرب الى سكان ولاية الكرج وأحسن السيرة فيهم فأحبه الجند وعامة الناس ؛ لأن قلوب الناس تميل الى من يحسن اليها ، كما فكر علي بن بويه في مغادرة ولاية الكرج حتى يتخلص من نفوذ مرداويج بن زيار وقرر السير الى مدينة أصفهان وليكون بعيداً عن نفوذ مرداويج ، وحتى يدخل في طاعة الخليفة العباسي اتصل علي بن بويه بوالي أصفهان المظفر محمد بن ياقوت ، وطلب منه التعاون ضد مرداويج والدخول في طاعة الخليفة العباسي ، لكن والي أصفهان رفض هذا العرض ، فوقعت الحرب بين الاثنين سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م ، وانتصر علي بن بويه على والي أصفهان ، ومما رجح كفة علي في هذه المعركة هو لجوء ٦٠٠ جندي من معسكر ابن ياقوت اليه ، وربما قد التحق هؤلاء بجيش علي بن بويه لكونهم من الديلم أو لأن علياً بن بويه قد استمالهم إلى جانبه أدرك مرداويج خطورة الموقف في مدينة اصفهان فحاول استمالة علي والتودد اليه ، ووعده بتقديم الدعم العسكري له ، وأرسل من جهة أخرى قواتاً عسكرية الى أخيه وشمكير ابن زيار ، لمباغتة علي بن بويه ، فغادر علي بن بويه مدينة أصفهان تحسباً لأي تحرك ضده ، وتوجه الى مدينة أرجان (تقع في منتصف الطريق بين شيراز واصفهان) ، وكان والي أرجان أبو بكر بن ياقوت ، وعندما علم أبو بكر بن ياقوت بقدوم علي بن بويه الى المدينة غادرها ، فدخلها علي بن بويه بدون قتال ، وسيطر عليها ، وأدرك علي بن بويه حراجة موقفه في مدينة أرجان ، ولاسيما بعد تحالف مرداويج بن زيار مع حاكمها أبي بكر بن ياقوت ، فغادر علي بن بويه مدينة أرجان ، متوجهاً الى مدينة النوبندجان (تقع في منتصف الطريق بين أرجان وشيراز) فدخلها سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م فدخلها بدون قتال ، وسيطر عليها ، لكنها لم تكن هدفه الأساس .

ثم تطلع علي بن بويه للسيطرة على مدينة شيراز بعد أن ضبط امور النوبندجان ، وهي عاصمة اقليم فارس، فتوجه بكل قواته العسكرية الى مدينة شيراز وحاول عزل المدينة حتى لاتأتيها أية نجدة عسكرية من منطقة اخرى ، فأرسل أخاه الحسن بن بويه مع قسم من الجيش إلى الجهة الغربية من شيراز، كما عزل المدينة

من الجهة الشرقية وانقض بقواته عليها ، إذ جرت معركة القنطرة سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م، وسيطر عليها واتخذها مقراً له ، وعندها شعر بالأمان ، وذلك لبعده عن نفوذ مرداويج بن زياد وأخذ علي بن بويه بتعزيز مركزه في اقليم فارس وعاصمته شيراز، وأخذ ينظم أمورها المالية ، وبخاصة بعد سيطرته على أموال آل ياقوت حكامها السابقين ، ثم سلك علي بن بويه سياسة ملتوية لتقوية مركزه واستطاع تأمين وجوده رسمياً بهذا الاقليم وبدأ بمراسلة الخليفة العباسي الراضي بالله ٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤٠م ، ووزيره علي ابن مقلة ، وطلب منه تقليداً بولاية فارس مقابل الف الف درهم ، ولما كانت الخلافة بأمس الحاجة الى الأموال ، وافق الخليفة على ذلك ، وأرسل له التقليد سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م والآن نتساءل ما أهداف علي بن بويه من هذا التقليد :

١- اكتساب الشرعية في حكم ولاية فارس .

٢- أصبح الآن حاله حال مرداويج بن زيار؛ لأن كلاً منهما قد حصل على تقليد من الخليفة العباسي ولا يحق لمرداويج الاعتراض عليه .

٣ - أمن جانب بني ياقوت الذين كانوا يتطلعون للعودة الى اقليم فارس .

بدأ علي بن بويه في تقوية سيطرته على الاقليم ، وأخذ يستعد لملاقاة مرداويج الذي عده خارجاً عليه ؛ لأن مرداويج هو أول من عينه على ولاية الكرج ، وأخذ يستعد لصد أي هجوم عليه ، كما أخذ من جانب آخر يماطل في ارسال الأموال الى الخلافة العباسية ، والتي امن جانبها بارسال المنشور بولاية بلاد فارس ، كما امن بهذا المنشور أيضاً جانب مرداويج الأخير بمهاجمة علي بن بويه ، أرسل الخليفة العباسي كتاباً إلى مرداويج يأمره فيه بالالتزام بحدود ولايته وأن لايتجاوز ما خوله به الخليفة ، فرجع مرداويج وامتثل لأمر الخليفة العباسي ، كما تحرك علي بن بويه تحركاً دبلوماسياً آخر وهو محاولة مصالحة مرداويج بن زيار فبعث أخاه الحسن بن بويه رهينة عند مرداويج ، دليل على حسن النية وعدم الاعتداء ، ولو أنه يضمر له الشر لما أرسل اليه أخاه ، وبهذا أمن علي على نفسه من الخليفة ومن مرداويج وقوي مركز علي ، وقصده الديلم من كل مكان .

وفي سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م ، وخدمت الظروف علياً بن بويه فقد قتل مرداويج بن زيار من قبل بعض جنوده الاتراك ، وتولى أمر الامارة أخيه وشمكير بن زيار، والذي كان أقل كفاءة من أخيه ، فواجه بعض المصاعب ، وقد مكن مقتل مرداويج بن زيار((الحسن بن بويه)) بالهرب والتحق بأخيه وبهذا تحرر علي بن بويه من ضغط الامارة الزيارية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد توجه آل ياقوت بقوة عسكرية الى اقليم فارس ، من أجل استعادة هذا الاقليم من يد البويهيين وبدعم من الخلافة العباسية وحيث نكث البويهيون ما وعدوا به الخلافة من انقاذها من ازمتها المالية ، الا أن البويهيين تمكنوا من دحر هذه القوة في معركة حاسمة عرفت بموقعة أرجان سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م .

٤- الاحتلال البويهي للعراق :

كانت أمور الخلافة العباسية مضطربة في بغداد والامارة السامانية منشغلة بخراسان وما وراء النهر وأصبح علي بن بويه متنفذاً في منطقته معترفاً به من قبل الجميع ، آمناً من أي هجوم ، فكان لزاماً عليه أن يوسع امارته أينما يشاء ، مادامت الفرصه سانحة أمامه ، وقد توجه علي بن بويه الى اقليم كرمان شرقاً ، إذ أرسل جيش بقيادة أخيه أحمد ، وقد استطاع أحمد بن بويه من دخول هذا الاقليم بعد أن هرب واليه ، وقدم سكان الاقليم الطاعة والولاء لأحمد بن بويه وبخاصة زعماء القفص والبلوش (البلوص) ، إلا أن أحمد بن بويه عاملهم معاملة سيئة وقاسية ، فتعاونوا ضده وأسروه وقطعوا يده اليسرى وبعض أصابع يده اليمنى ، إلا أن زعيم القفص والبلوص عالجه من جراحه ، واعتذر من أخيه علي ، على ما قام به سكان المنطقة ، وهنا استعمل علي بن بويه الحكمة في معالجة هذا الموقف المتأزم ، فعزل أخاه عن ولاية كرمان ، وعين شخصاً آخر بدلاً عنه أكثر مرونة من أخيه ، وبهذا أمن علي بن بويه ظهره من ناحية الشرق بالاستيلاء على اقليم كرمان ، ثم توجه علي بن بويه بأنظاره باتجاه اقليم الأحواز ، الذي يعد ممراً لدخول الى العراق وبلاد الديلم ، ففي سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م هرب أبو عبد الله البريدي المتمرد على الخلافة العباسية الى علي بن بويه ، وزين له لسيطرة على العراق ، ففكر علي بالتوجه أولاً الى اقليم الأحواز ، ثم بعد ذلك يعد العدة لإحتلال العراق ثانياً .

ففي سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م تحركت القوات البويهية نحو الأحواز، وانتصرت على قوات بجكم ، وسيطرت على الأحواز، التي تم اتخاذها قاعدة لغزو العراق بعد ذلك ، كما حاول علي بن بويه أن يهادن السامانيين ، فعقد معهم اتفاقاً يدفع بموجبه أموالاً سنوية يدفعها لهم ، فأقروا بالسيطرة على جرجان وطبرستان والري ومركز الزياريين الجبال .

استحداث منصب أمير الامراء :

خلال المدة من ٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٣-٩٤٠م استحدث الخليفة العباسي الراضي بالله منصب أمير الأمراء ، وقلده لوالي واسط محمد بن رائق ، كاجراء لحل مشكلة الخلافة المالية المستعصية ، وهي عدم تمكن الدولة من دفع رواتب الجند ، ومحاولة من الخليفة للتخلص من الجند الاتراك وقادتهم ، وسيطرتهم وجشعهم ، لكن استحداث هذا المنصب لم يحل المشكلة بل زاد في تعقيدها ، وأخذ القواد يتنازعون فيما بينهم ، فاستغل البويهيين الحالة الغير مستقرة في العراق ، وأخذوا يمهدون لغزو العراق والسيطرة على بغداد مقر الخلافة العباسية ، ففي سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م توجه أحمد بن بويه الى مدينة واسط فقاد الخليفة العباسي جيشاً بنفسه وتصدى له وأجبره على العودة الى الأحواز وتكررت هذه المحاولة في سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٩م فجرت محاولة اخرى لإحتلال واسط

أشرف عليها الحسن بن بويه ، بعد أن حاول البريديون الاستيلاء عليها ، فأراد البويهيون السيطرة عليها لحماية الأحواز ، لكن توجه قوة عسكرية من بغداد اجبرته على الانسحاب الى أصفهان واسترجاع هذه المدينة من قوات وشمكير ، الذي سيطر على اصفهان مستغلاً انشغال البويهيين بالهجوم على العراق ، أما في سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م فقد سار احمد بن بويه لإحتلال البصرة وقتال البريديين ، الا أن قسما من الجيش البويهي انحاز للبريديين ففشلت المحاولة ، وعادت القوات البويهية تجر أذيال الخيبة الى شيراز وتكررت محاولات البويهيين للسيطرة على واسط ، ففي سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م توجه أحمد بن بويه الى مدينة واسط ، بعد أن تم عقد تحالف بين البويهيين والبريديين إلا أن قوات الخليفة تصدت له واشتبكت معه في معركة حاسمة في موضع بالقرب من ((قباب حميد)) فانسحب أحمد بن بويه الى منطقة السوس (تعرف حالياً بالشوش وتقع في ايران) بعد أن وقع عدد من قادة الجيش البويهي في الأسر، وقام البويهيون بقطع البريد عن العراق حين هموا بمهاجمته ، بغية اخفاء ما يكون من أخبارهم وتحركاتهم حين قصدوا بغداد في سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م .

وفي سنة ٣٣٣-٣٣٤هـ/ ٩٤٥-٩٤٦م احتل أحمد بن بويه البصرة وواسط ، فتوجه اليه توزون أمير الأمراء وأجبره على الانسحاب الى الأحواز ، لكن وفاة توزون أمير الأمراء وتولي كاتبه جعفر بن شيرزاد امرة الأمراء ، فسح المجال أمام البويهيين لمعاودة الكرة لإحتلال بغداد ، وكان في بغداد قائد تركي يعرف بينال كوشة ، كان يراسل أحمد بن بويه ويدعوه للقدوم الى بغداد لإحتلالها ويسهل له المهمة ويبين له ضعف الخلافة وقواتها عن مواجهته ، وهذا ما تم فعلاً حيث توجهت القوات البويهية بقيادة أحمد بن بويه الى بغداد واحتلتها في جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م ، وبدأ الاحتلال البويهي للعراق ، الذي استمر الى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م ونزل معز الدولة البويهي بدار مؤنس الخادم أما أصحابه فنزلوا في دور الناس وأمر الخليفة بنقش أسمائهم على الدنانير والدراهم ، وبعد أن استتب الأمر لمعز الدولة ، استأثر بالأمر دون الخليفة .

٦ – دور البويهيون في طمس الشخصية الاسلامية :

أ– محاولة افساد العقيدة الاسلامية .

ب – محاولة هدم الشخصية الإسلامية .

أ– محاولة افساد العقيدة الاسلامية :

لقد تأخر اسلام الديلم لمدة من الزمن قاربت القرنين من الزمان، على الرغم من وجود الاسلام بين ظهرانيهم ووضوح قيمه السمحة ، ويرجح البعض سبب هذا التأخر أما بعمق تعلقهم بديانتهم الفارسية (المجوسية) أو تعلقهم بمعتقداتهم الوثنية ، ومن الأساليب التي اتبعها البويهيون لافساد العقيدة الاسلامية نقتطف عدداً من النماذج :

١– أظهر البويهيون تعاطفاً مع افكار وعقائد مناهضة للعقيدة الاسلامية ، ففي سنة٣٤٠هـ/٩٥١م تساهل البويهيون مع رجل إدعى الربوبية .

٢– غض البويهيون الطرف عن دعاة أفكار الحلول والتناسخ الهدامة ذات الجذور الفارسية الهندية القديمة ، وهي أن روح الانسان بعد موته أما تنتقل الى طبقة اجتماعية اسمى أو أدنى بحسب عمله في الدنيا ، فإذا كان عمله صالحاً حلت روحه في انسان من طبقة اجتماعية أعلى ؛ لأن نظامهم الاجتماعي قائم على التقسيم الطبقي ، واذا كان عمله طالحاً حلت روحة في طبقة اجتماعية أدنى ، واذا كان هو من الطبقة الدنيا حلت روحه في حيوان قذر، وهكذا فقد ادعى رجل بأن روح الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قد حلت به ، وادعت امرأة بأن فاطمة الزهراء رضي الله عنها قد حلت بها ، وهذا ما تقره المعتقدات الفارسية القديمة .

٣– أدخل البويهيون الى مراسيم الاحترام في الدولة الاسلامية ، عادة تقبيل الارض ، عند رؤية الخليفة أو الوزير او اثناء مقابلته ، في حين ان الاسلام لم يجز الركوع أو السجود الا لله سبحانه وتعالى فقط ، وقد جاء في رسوم دار الخلافة ما ينفي هذه العادة عن الاسلام ، وكانت عادة الملوك قبل الاسلام ان تقبل الارض بين ايديهم ، اما ما اجازه الاسلام فهي اذا رأى المسلم الخليفة او امير المؤمنين قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين، دون اية انحنائة او ايمائة بالانحناء او الركوع او السجود او تقبيل الأرض بين يدي الخليفة .

٤– حرم الدين الاسلامي الزنا وجعله من الكبائر لما في ذلك من خلط في الانساب وفساد اجتماعي وتدهور اخلاقي ، ولما يلحقه من امراض أثبت الواقع قبل الطب حقيقتها ، فالمجتمعات الاسلامية الملتزمة خالية من الأمراض الجنسية القاتلة ، في حين دعت الديانات الفارسية القديمة الى تحليل العلاقات بين الجنسين وخاصة

الديانة المزدكية ، التي اشاعت الزنا وحبذته بين العائلة الواحدة ونفت وجود المحرمات (الام الاخت ، البنت، زوجة الاب وزوجة الاخ ، العمة والخالة وغيرها)، وجريا على هذه العادة ، فقد جعل عضد الدولة البويهي الزنا مهنة ، وفرض عليها الضرائب .

٥- رفع البويهيون الشعار العلوي وتستروا به ، اذ لا يمكن افساد العقيدة الاسلامية الا بالدخول بها وتبني الشعار المعارض للعباسيين ، وهو المذهب الزيدي او أي شعار آخر معارض للعباسيين ، وهو الشعار المقبول عند المسلمين ، لاحبا بالعلويين وآل البيت الكرام (رضي الله عنهم) ، بل ليتخذ ستارا يتسترون به . ولكي نؤكد هذا فقد قام عضد الدولة البويهي بسجن مقدم العلويين (محمد بن عمر بن يحيى) الذي اعتقله عضد الدولة بسبب خوفه من تعاظم نفوذه، وظل معتقلا حتى تولى شرف الدولة بن عضد الدولة السلطنة البويهية ، فاطلق سراحه لكن بهاء الدولة ابن عضد الدولة أمر بسجنه مرة أخرى وأمر بمصادرة امواله ، وظل في السجن حتى مات (رضي الله عنه) وتكرر هذا العمل في سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م ، إذ قبض عضد الدولة البويهي على النقيب ابي احمد الحسين الموسوي ، والد الشريف الرضي، وعلى اخيه عبد الله وعلى قاضي القضاة أبي محمد وسيرهم الى فارس .

ولكي نؤكد ما سبق فقد احجم البويهيون عن اقامة خليفة علوي بدلا من الخليفة العباسي، لان البويهيين لا يعترفون بالخليفة العباسي ولا بشرعية خلافته كونهم شيعة زيدية ، وقد فكر عضكم الدولة في نقل الخلافة للفاطميين في مصر، أو تنصيب خليفة علوي بدلا عن الخليفة العباسي وعندما استشار خاصته ومقربيه في هذا الامر قالوا له أنك الآن مع خليفة لا نعتقد نحن ولا انت بشرعية خلافته ، فمتى اردت خلعه خلعناه، ولكن ان جئت بخليفة علوي نعتقد نحن وانت بشرعية خلافته فلو أمرنا بقتلك لقتلناك فأحجم عضد الدولة البويهي عن هذا العمل نهائياً ، ولم يفكر فيه ثانية ، لابل وقف في بعض المواقف أمام قرارات الخليفة العباسي ونفذها وهذا يعني من ناحية ضمنية طاعة الخليفة العباسي وامتثال أوامره على الاقل أمام عامة الناس .

٦- استعان البويهيون في ادارة العراق بوزراء فرس عرفوا باستهانتها واستخفافهم بأصول الشريعة الاسلامية ، وميلهم إلى ظاهرة التنجيم والقول بالطبيعة أمثال أبي الحسن علي بن محمد بن جعفر الأصبهاني ، وعيسى بن مروان النصراني وغيرهم وكان الجدل لدى الخاصة يثير الكثير من المشاكل فكيف بعامة الناس من الذين تكون ثقافاتهم محدودة ولا يعرفون معنى النص الظاهر فكيف بتفسير .

٧- انتهاك حرمة القضاء: أكدت الشريعة الاسلامية على أهمية منصب القاضي ، ودوره في اقامة الحق بين الناس ، وتطبيق الحدود الشرعية والفصل بين الخصومات ، مع الحفاظ على أموال القاصرين والايتام والاوقاف

، وتقسيم المواريث بين الناس وكان على الدولة العباسية دفع رواتب هؤلاء القضاة ، وهذا ماجرى عليه الحال منذ عهد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) اما الآن وفي ظل الحكم البويهي فقد اصبح منصب القضاء يعطى لمن يدفع أكثر من غيره، وأصبح يعطى بالالتزام ، فقد ضمن معز الدولة البويهي منصب القضاء بـ ٢٠٠،٠٠٠ ألف درهم سنوياً ، واعطي المنصب لأبي العباس عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب ، وهذا يعني ان القاضي عليه ان يجمع ما ضمن عليه منصب القضاء أولاً ثم جمع ما يقدر عليه ثانياً ، وهنا يبرز سؤال من اين يجمع القاضي هذا المبلغ الضخم ؟ ، عليه أن يبتز الناس ويضيع حقوقهم ، ويغتصب أموال اليتامى واموال الاوقاف ويقبض الرشى ، حتى يستطيع أن يوفر للبويهيين ولنفسه الكثير وهذا ما جرى فعلاً حيث ضاعت أموال اليتامى وأموال الأوقاف على المساجد ومؤسسات العلم وغيرها .

وقد أنكر الخليفة العباسي المطيع لله ٣٣٤-٣٦٣هـ/٩٤٥-٩٧٣م هذا العمل ولم يكن بيده من الأمر سوى الامتناع عن اقرار تعيين القاضي ، ولم يخلع عليه ولم يسمح له بالدخول عليه ولا بحضور موكب الخليفة ولم يكترث معز الدولة البويهي بأوامر الخليفة ولا باجراءاته ، بل اطلق يده بالابتزاز والرشاوي حتى قال الشاعر : مذل الدولة ابن بويه يقضي ... له ابن أبي الشوارب بالضمان كما ضمنوا الحسبة أيضاً وعينوا عليها أشخاصاً عرفوا بالخلاعة والمجون والحسبة ، كما يعلم الجميع هي من أولى مهام القضاء ، إذ في بدايتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واقامة الحدود على شاربي الخمر مباشرة ، ومنع التطفيف في الكيل ومراقبة الموازين والمكاييل، ومراقبة المباني من السقوط او التسلط على الناس من دور الاغنياء العالية والمشرفة على الدور المجاورة الواطئة ومراقبة حتى المؤذنين أثناء الاذان من التسط على الدور ، لما لها من حرمة ، والنظر لي الى عورات النساء بشكل خاص اثناء الصعود الى المآذن لرفع الاذان ؛ لأن النساء في منازلهن وتأخذ المرأة عادة راحتها في داخل بيتها من ناحية اللباس ، والمؤذن يشرف على ما لا يشرف غيره في هذه الناحية .

ب- محاولة هدم الشخصية الاسلامية :

١- التجاوز البويهي على الخلفاء : لقد آذى بنو بويه الخلفاء العباسيين واذلوهم وسلبوهم سلطانهم ولم يتورعوا عن التعدي على أشخاصهم أحياناً ، وان الخلافة فقدت هيبتها وضعف شأنها في عهدهم ، وأن الخليفة أضحى العوبة في أيديهم بل ظل يمثل ومزاً دينياً ، ليس له من السلطه الا الاسم ، أما السلطة الفعلية فكانت بيد الأمير البويهي .

ان دخول أي احتلال الى أي منطقة في العالم هو اذلال لشعبها ولارادتها مهما قدمت الاعذار لذلك الاحتلال، ومهما كانت السبل والوسائل ، فبعد دخول البويهيين الى بغداد دخل معز الدولة احمد بن بويه على

الخليفة العباسي ليقدم له فروض الطاعة والولاء، وتظاهر باحترام الخليفة المستكفي بالله ٣٣٣-٣٣٤هـ/ ٩٤٤-٩٤٥م وقبل الأرض بين يديه ، معلناً طاعته وخضوعه للخليفة العباسي ، لكنه من ناحية ثانية أعد مجموعة من الجند دخلوا مجلس الخليفة واخذوا يهتفون باصوات فارسية غير مفهومة بالنسبة لاغلب الحاضرين ، ثم تقدموا الى الخليفة متظاهرين بتقبيل يده ، فمد لهم الخليفة المستكفي بالله يده فسحبوه من يده وجروه الى خارج دار الخلافة، واخذوه الى دار معز الدولة ماشيا وسملت عيناه وسجن تحت التعذيب الى أن فارق الحياة .

بعد خلع الخليفة المستكفي بالله من قبل البويهيين وفق الطريقة المشينة التي رأيناها، تولى الخلافة المطيع الله ٣٣٤-٣٦٣هـ/ ٩٤٥ – ٩٧٣م ، ولما كان الخليفة الجديد قد جاء به البويهيون، فقد أصبح العوبة بأيديهم ، ولم يبق للخليفة الا الاسم فأصبح ابن بويه هو الحاكم المطلق وعين له وزيراً ، وهذه حالة لم يسبق لها مثيل في التاريخ العباسي، في حين اصبح للخليفة كاتباً يتولى الاشراف على اموره ومصاريفه ، ويتولى الاشراف على اقطاعات الخليفة ، ولم يكتف البويهيون بذلك بل قطعوا راتب الخليفة العباسي الذي كان يسد به نفقاته وأعطوه اقطاعاً في البصرة ليسد به نفقاته ، وكان هذا الاقطاع لا يسلم أيضاً من تجاوزات البويهيين ، والاقطاع كما نعلم هو بيد البويهيين أخذوه متى شاءوا واعادوه متى أرادوا ، فضلاً عن أن مورد الاقطاع غير ثابت ، وهو ليس كالراتب الثابت ، فربما يزيد أو ينقص تبعا لجودة المحصول أو رداءته .

كما تدخل معز الدولة البويهي في أمور لا تخصه فقد طلب من الخليفة النظر في داره والتجول بها فسمح له الخليفة بذلك لكنه ادرك خطأ وخطورة ما طلبه من الخليفة ،لأنه تجول بمفرده من دون اية حماية فخرج على جناح السرعة بعد أن نبهه أحد مرافقيه ، كما حجر معز الدولة البويهي على الخليفة المطيع الله أثناء الحرب مع الحمدانيين، وبعد انتصاره على الحمدانيين رفع الحجر عن الخليفة خوفاً من تحالف الخليفة مع الحمدانيين على الرغم من أن الاثنين ينتميان إلى نفس المذهب ، وقد عبر الخليفة المطيع الله عن حالته المتردية مع البويهيين فقال : ((أما الآن فليس لي منها – أي الخلافة – إلا القوت القاصر عن كفائي وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الاطراف، فما يلزمني غزو ولا حج ، ولا شيء مما تنظر الائمة فيه ، فان احببتم اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضا وتركتكم والامر كله)) ، وبلغ من اذلال البويهيين، لهذا الخليفة ان الحاكم البويهي بختيار عز الدولة بن احمد بن بويه ، اجبر الخليفة على بيع ثيابه و انقاض داره وقبض ثمنها .

ونتيجة لهذا التعامل المشين مع الخليفة المطيع الله ، اضطر الخليفة الى خلع نفسه من الخلافة وعهد بالخلافة الى ابنه الطائع لله ، فأثار هذا العمل حفيظة السلطان البويهي ، واتبع اجراءاً جديداً وهو محاولة جس نبض الناس وموقفهم من الخليفة الجديد ، فمنع الخطبة في بغداد لمدة خمسين يوماً ، ثم اضطر الى اعادتها بعد أن رأى نفورا من الناس وعدم موافقتهم وخوفاً من قيام أمر لا تحمد عقباه بالنسبة للبويهيين ، ولما تأكد

البويهيون من مكانة الخليفة الطائع لله لدى المسلمين دبروا له مقتلة ومثلوا به حياً وسملوا عينيه وقتلوه بعد ذلك سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م .

كما شارك البويهيون الخليفة في شارات الخلافة والتي كانت حكراً على الخلفاء ، ومنها ذكر اسم السلطان البويهي في خطبة الجمعة والدعاء له بعد الخليفة مباشرة بالقابه الضخمة الطويلة العريضة (عز الدولة ، ركن الدولة ، صمصام الدولة ، عماد الدولة ملك الملوك) .

كما شاركوا الخليفة في ضرب أسمائهم وألقابهم على السكة وأسماء أولياء عهدهم ، والسكة كما نعلم هي من اختصاص الخليفة وحده ، كما شاركوا الخليفة في عملية قرع الطبول على باب دار الخليفة ، وبعد أخذ وشد سمح لهم الخليفة بقرع الطبل ثلاث مرات يوميا ، على أن تكون في داخل دار السلطان البويهي ، وانتزع البويهيون صلاحيات الخليفة بتعيين ولي العهد وحكام الاقاليم والولايات ، وقاموا هم بتعيين أو تحديد أي ولي عهد يريدون أو أي شخص يولونه الولايات وهكذا كما حاولوا الهيمنة على الخلافة عن طريق الزواج وذلك بتزويج بناتهم من الخلفاء العباسيين على أمل أن تنجب بناتهم مولوداً ذكر يستطيعون بقوتهم العسكرية من تنصيبه ولياً للعهد ويتصرفون بالأمر كاملاً تحت اسم هذا الخليفة المرتقب ، ففي سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م زوج عز الدولة بختيار بن معز الدولة ابنته (شاه باز) من الخليفة الطائع الله ، وجرى الشيء نفسه في سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م عندما زوج عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة ابنته الكبرى من الخليفة الطائع لله ((وفيها زفت ابنة عضد البدولة الى الخليفة الطائع الله ومعها من الجواهر شيء لا يحصى)) ، وفي عام ٣٨٣هـ/٩٩٣م عقد بهاء الدولة بن عضد الدولة لإبنته سكينة على الخليفة القادر بالله، لكنها توفيت قبل الدخول بها ، وبهذا فقد فشل البويهيون في تحقيق هذه الرغبة والوصول الى رئاسة الدولة العباسية ، عن طريق ولاية العهد على الرغم من محاولاتهم المتكررة .

٢- محاولات اذلال الشعب وتفتيت وحدته :

أ- اتبع البويهيون سياسة فرق تسد : وهي سياسة قديمة اتبعتها مختلف الدول المحتلة منذ قديم الزمان، لكي تسيطر على البلاد التي تحتلها ، ولقهر روح المقاومة والاستقلال لديها، وغالباً ما تلتزم هذه الدول فئة من ذلك المجتمع وتسعى الى دعمه وتقديم العون له ، لا حباً به ، بل من أجل احكام سيطرتها على ذلك البلد ، وقد فعل الشيء نفسه البويهيون ، فالتزموا فئة دون أخرى وأوهموها بأنهم معهم وتستروا على أفعالهم وشجعوهم على بعض الأفعال مما سبب نقمة الناس عليهم ، فتعرضوا للمضايقة ، وهذا الشيء يجب الانتباه له دوماً .

ب- سيطر البويهيون على منازل الناس ، واستقروا بها ، وأجبروهم على مغادرتها ، واستغلوها لأنفسهم دون تعويض أو رضا من قبل ساكنيها ((ونزل الديلم والاتراك دور الناس ولم يكن يعرف ببغداد قبل هذ التنزل ، فصار من اليوم رسما)) و ((ولحق الناس في هذا الصقع شد شديدة من التنزل عليهم)) ، كما تأذى الناس بدخول البويهينين في مزارعهم وبساتينهم وحقولهم الزراعية ، أثناء عملياتهم العسكرية فجيش الدولة العباسية عندما يتحرك يتأذى بتحركه الناس فكيف بجيش محتل لايمت بصلة الى الناس أو البلد ، وعنما يخسر الانسان بيته ومزرعته وباب رزقه ، ماذا تكون النتيجة ؟ .

ج- غذى البويهيون محاولات تشويه العقيدة الاسلامية ، من قبل الأدباء والشعراء الماجنين وأصحاب الرأي المغرض ، وعنما يعزز البويهيون مثل هذه الحركات ويتستروا عليها ، تكون النتيجة ذات تأثير سلبي في عموم المجتمع ولاسيما لدى الطبقات غير المثقفة ، التي ترى أن من يدعمه البويهيون هو المنهج الصحيح، ولاسيما اذا غلف الهدف بغلاف جميل يقبله العوام ولا يعترضوا عليه .

د- هدم التماسك الروحي بين عموم الناس ، اذ يشكل الدين الاسلامي الرابط الأقوى بين عموم المسلمين في العراق ، ولهذ فان اثارة أي خلاف بين ابناء المجتمع يؤدي بالنتيجة الى اضعاف ذلك المجتمع ، وبخاصة اذا كان هذا الخلاف خلافاً دينياً ولدينا من الأمثلة الكثيرة في أوربا على سبيل المثال لا الحصر، إن الالتفات الى صغائر الأمور يؤدي بالنتيجة إلى ضياع أشياء أساسية داخل ذلك المجتمع ، والمستفيد الوحيد هم البويهيين فقط حكام البلاد الجدد الذين جاءوا بقوة السلاح واحتلوا العراق فقد احترق سوق الكرخ (فاحترق فيها مواضع كثيرة هلك فيها خلق كثير من الناس وبقي الحريق أسبوعاً)) .

هـ- ايهام الكتل المتحاربه بأن البويهيين معهم ، والبويهيون في حقيقة الأمر ليس الا مع انفسهم ولا يهمهم عموم الناس ومصالحهم ، والدليل على ذلك تردي الأوضاع العامة في العراق ابان الحكم البويهي وهذا ما حدث في السنوات ٣٣٨ و ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥٤ و ٣٥٥ و ٣٨١هـ على سبيل المثال)) كثرت الفتن بين العامة ببغداد وزالت هيبة السلطان وتكرر الحريق في المحال واستمر الفساد)) و ((تجددت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم واشتد الحال فركب ابو محمد ابن الحسن الحاجب فقتل وصلب ، فسكن البلد)) .

و- أمر معز الدولة سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م بكتابة اللعن الصريح لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على جدران المساجد ، فنحن نعلم أن صحابة رسول الله لافرق بينهم فكلهم سواء لدينا ودليلنا على ذلك قول الرسول محمد (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) ولو أنفق الناس بعد عصر الصحابة ملء الأرض ذهباً في سبيل الدعوة الاسلامية ما بلغ مُدَ احدهم ، لما قدموه من جهد في سبيل نشر الدين الاسلامي ، وهكذا فكيف

يكتب لعن صحابة الرسول(□) وسبهم علنا، وقد حذر الوزير المهلبي معز الدولة من مغبة هذا العمل ، فاكتفى بأن يقرأ في خطبة الجمعة : لعن الله من آذى آل بيت رسول الله محمد(□) ، ولو رجعنا الى الهدف من وراء هذا العمل واحتكمنا الى العقل لوجدنا أنه يهدف الى زرع الفرقة والفتنة بين سكان البلد الواحد وبين أبناء الدين الواحد ، فمن من المسلمين لا يحب الرسول واصحابه وآل البيت الكرام عترة رسول الله محمد ، كما أمر معز الدولة بغلق الاسواق والحوانيت في أيام معينة (محرم، عاشوراء) في السنة .

٧- الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المترتبة على الغزو البويهي للعراق :

نتيجة لما تقدم فقد عم الخراب عموم البلاد وضعف الانتاج وانقطعت التجارة وغلت الاسعار وتفشت المجاعات واندثرت الانهار لإعتماد البويهيين على نظام الاقطاع العسكري الذي ينهك الارض والفلاح ، الأرض بتدميرها وعدم رعايتها ، والفلاح بفرض الضرائب الباهضة عليه دون تقديم أي شيء له من دعم زراعي ، أو اعفاء من الضريبة في أيام القحط والمجاعات وتقديم السلف الزراعية له ، فاهملت السدود واندثرت الجداول لعدم العناية بها وبصيانتها ، وارهق الناس بالضرائب (المكوس) فضعفت الصناعة والتجارة والزراعة ، وشاع الفقر وتفككت الاخلاق وفشت الجرائم وقد عبر الدكتور الدوري عن ذلك فقال: ((وحكم البويهيون كاجانب ، لا تهمهم شؤون الاهلين ، ولا يعنيهم الا الحصول على أكبر ما يمكن من الوارد بالضرائب وغيرها، وبدل أن يدفعوا رواتب ،لجندهم ذهبوا الى اقطاعهم الأراضي والقرى، يأخذون وارد ضرائبها بدل الرواتب ويصف مسكويه ابتداء ذلك بقوله : ((وفي هذه السنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م ، شغب الديلم على معز الدولة شغبا قبيحا ، فضمن اطلاق اموالهم في مدة ضربها لهم، فاضطر الى خبط الناس ، واستخرج الاموال من غير وجوهها، فاقطع قواده وخواصه واتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد، وحق بيت المال في ضياع الرعية –أي عامة الاراضي – وصار اكثر السواد مغلقا وزالت ايدي العمال عنه فضمن أي اعطى بالضمان ،واستغنى عن اكثر الدواوين فبطلت)) . ولا يكفي ان يفسر هذا الاجراء بعدم توفر النقد اللازم ، بل ان جهل البويهيين وارثهم القبلي وما الفوه في بلادهم من اقطاع وراء مثل هذا التدبير ، وهكذا قامت بداية الاقطاع العسكري، ان الاراضي والقرى وزعت بالاقطاع على الجند والقادة، كما اعطيت لبعض المدنيين بالضمان ، ولكن بنسبة اقل من الاقطاع ، وكان المفروض ان يدفع المقطع شيئا من المال الى الخزينة ، وان يتكلف بنفقات الري وان تشرف الدواوين على الجباية ، ولكن شيئا من ذلك لم يحصل ،وتصرف المقطعون وكأن الأرض ملكهم . فادى ذلك الى خراب قسم من الاقطاعات ، لأن الجند لايهمهم إلا جمع المال . ولذا كانوا يطلبون غيرها (وصار الرسم جاريا ان يخرب الجند اقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون)) وزاد في سوء الحال اعتماد المقطعين على وكلائهم وغلمانهم لادارة اقطاعاتهم)) فلا يضبطون ما يجري على ايديهم ولا يهتدون الى وجه تثمير ومصلحة

ويقطعون أموالهم بضروب من الفساد واعتاض اصحابهم مما يذهب من أموالهم بمصادراتهم وبالحيف على معامليهم)). واهملوا متطلبات الري وبه قوام الزراعة، فادى ذلك الى خراب الكثير من القرى، وتدهور وضع الزراع، وساءت احوال الفلاحين، وتعرضوا للظلم والافقار، فتخلى بعض الملاك عن ارضهم، وهرب الكثير من الفلاحين وقول مسكويه وهو معاصر ((فسدت المشارب وبطلت المصالح – منشآت الري – وأتت الجوانح على التناء – الزراع ، ورقت أحوالهم، فمن بين هارب جال ، وبين مظلوم صابر لا ينصف، وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع، ليامن شره ويوافقه، فبطلت العمارات)) ، واعطيت الأراضي التي لم يشملها الاقطاع بالضمان وتفنن الضامنون في العسف والتلاعب ، اذ زادوا في الضرائب، واستحدثوا رسوما جديدة، وذهبوا الى مصادرة الزراع ظلما، ولم يعنوا بالري ، ومنعوا الموظفين من الاشراف عليهم ولم تستطع الادارة محاسبتهم أو مراقبة تصرفهم وبقي الناس تحت وطأتهم ((واقتصر في محاسبة الضمناء على ذكر أصول العقد، وما صح عنه، وبقي من غير تفتيش عما عوملت به الرعية)) .

ولم تسلم الاراضي التي كانت ملكا خاصا من هذا الوضع ، اذ ادى التجاوز والعسف في الجباية الى انتشار نظام الالجاء احتماء من الظلم فتحولت ملكية كثير من الاراضي عن هذا الطريق الى القادة خاصة من الاتراك ((فملكوا البلاد واستعبدوا الناس واستمر ذلك الى اليوم)) كما يقول مسكويه. واحدث عضد الدولة (رسوما جائرة في المساحة والضرائب على بيع الدواب، ومنع من عمل الثلج والقز ، وجعلهما متجر للخاص"، وكان يتوصل الى اخذ المال بكل طريق)).

وكان من آثار اهمال نظام الري ، حدوث فيضانات متكررة اضرت بالزراعة في السواد، كما ان الاضطراب في المركز ساعد على زيادة فعاليات الاعراب وتكرار تجاوزهم، فمنذ أواخر القرن الرابع استولت عقيل على منطقة الموصل وغرب الفرات، واستولى بنو اسد على منطقة الحلة ، وتنفذت المنتفك وخفاجة في جنوب العراق، وكانت هذه القبائل في منازعات متصلة نشرت الفوضى والخراب ، كما انه كانت تغزو المدن والقرى، ولاقى التجار والفلاحون الأمرين منهم. كل ما مر ادى الى تكرار الغلاء والمجاعات بشكل لا سابق له .

ولم تفلح محاولات الامراء البويهيين في اصلاح وكري الانهار واعادة العمل بنظام الضرائب السابق في اصلاح الوضع المتدهور الذي اصاب الحياة الاقتصادية في العراق وتراجع النشاط التجاري والصيرفي زمن البويهيين نتيجة اعتمادهم على الارض وتقلص التعامل بالنقد في نطاق الدولة ، هذا فضلا عن تعرض التجار للمصادرات وللضرائب الكثيرة نتيجة تجزئة اراضي الخلافة ، ثم أن اضطراب الأوضاع العامة وعدم ادراك البويهيين لدور التجارة في الحياة الاقتصادية زاد في تقلصها ، هذا ولم يتوزع البويهيون عن التلاعب بالنقد احيانا، وذلك بتخفيض نسبة المعدن الثمين فيه، كوسيلة حسب فهمهم ، للتوفير للخزينة، وهذه ناحية حساسة،

لأن قيمة النقود ذهبية كانت أم فضية كانت ذاتية تعتمد اصلا على نسبة المعدن الثمين فيها، وكل تلاعب تنعكس آثاره بسرعة في ارباك معاملات البيع والشراء، ومن المنتظر أن نرى تقلص دور المؤسسات الصيرفية ومعاملات الائتمان ، فلم يعد لها ذلك الدور الواضح في تسيير التجارة وتنشيطها مما أثر بدوره بصورة سلبية على حركة التجارة . وبعد هذا ، فإن خيرات البلاد صارت تستغل لفائدة البويهيين واتباعهم، في تدهور وضع اهل البلاد المعاشي، كما قلت الخدمات الاجتماعية التي كانت تقدمها الدولة ، وازداد الاضطراب في المدن لتردي حالة العامة، وتوسع الهجرة من الريف ، ثم أن سياسة البويهيين الاجتماعية في اثارة التفرقة والنعرات الطائفية الضيقة لتثبيت سلطتهم، زادت في حالة الاضطراب في المدن وفي تدهورها .

وهذا يفسر ازدياد فعاليات العيارين والشطار في العصر البويهي وازدياد اعدادهم ويجلب انتباهنا وجود عباسيين وعلويين بين العيارين والشطار مما يشعر بفقرهم وبتدهور احوالهم المعاشية ، وربما كان لهذه الأوضاع دور في ظهور حركة التصوف وتطورها واتساعها، وظهرت لدينا في هذا العصر ايضا روابط بين ابناء المحلة الواحدة للدفاع عنها ضد غارات الجند والاعراب، كما صارت للمهن نقابات للدفاع عن حقوقها .

وخلاصة القول ، فإن الاحتلال البويهي للعراق انزل بسكان العراق الدمار وانزلهم الى مستوى الطبقة المتوسطة أو الواطئة ، كما ان واردات الخليفة والوزير والموظفين المدنيين انخفضت بينما زادت رواتب الجيش عما كانت عليه في العصر السابق للاحتلال البويهي . كما ازدادت الضرائب واصبحت مرهقة وكثيرة وأضرت بعامة الناس ، وخير وصف وصف به العراق ما قاله المقدسي بحقه : (بيت الفتن والغلاء ،وهو في كل يوم الى وراء ، ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء ، مع ثمار قليلة وفواحش كثيرة ومؤن ثقيلة)). واود ان اشير هنا الى تفاقم الأوضاع في العراق ابان الغزو البويهي فقد تظافرت العوامل الاقتصادية جنبا الى جنب العوامل الطبيعية في تفاقم الوضع الاقتصادي في العراق آنذاك ، ففي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م وهو عام دخول البويهيين بغداد ، فقد اكل الناس الاطفال وشووهم وعوقب من القي القبض عليه منهم) ، واكلوا الجيف ، واذا راثت الدابة اجتمعوا جماعة من الضعفاء على الروث ، فالتقطوا ما فيه من الحب والشعير فأكلوه، وكانت الموتى مطرحين في الطريق ، فربما اكلت الكلاب لحومهم ، وخرج الناس الى البصرة خروجا مسرفا ، فمات اكثرهم في الطريق، ومات بعضهم بالبصرة ، وصار العقار والدور يباع برغفان خبز ، ويأخذ الدلال بحق دلالته بعض الخبز، وبيع كر الحنطة بعشرة آلاف درهم) ، وبلغ المكوك من الحنطة خمسة وعشرين درهما و (أكل الناس خروب الشوك فاكثروا منه ، وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام في احشائهم ، وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى) ، وتكرر هذا الحال في السنوات اللاحقة حيث اشتد القحط وانقطع المطر في السنوات ٣٧٣ و ٣٧٦ و ٣٧٧ و ٣٨٢ و ٣٨٣ و ٣٨٤هـ وعندما يشتد القحط ترتفع الاسعار ففي

سنة ٣٨٣هـ/٩٣٣م كان في العراق قحط شديد ، فبيعت كارة الدقيق بمائتين وستين درهما وكر الحنطة بستة آلاف وستمائة درهم غياثية . واصدق دليل على ما سقناه من كلام هو تركة عضد الدولة التي بلغت بعد وفاته ٢،٨٧٥،٣٨٤ دينار من الذهب و ١٠٠،٨٦٠،٧٩٠ درهم من الفضة ، ولم يهتم البويهيون بطرق الحج ولم يقدموا اية حماية لحجاج بيت الله الحرام ولهذا كانت قوافل الحجيج تتعرض دائماً لهجمات القبائل في العراق وشبه الجزيرة العربية فضلاً عن هجمات القرامطة المستمرة .

٨- المقاومة الاسلامية للسيطرة البويهية :

لم يقف الناس في العراق والخلافة العباسية موقف المتفرج على الاحداث فاسحين المجال للغزاة البويهيين بالتمتع بخيرات العراق والعالم الاسلامي قبل وبعد الغزو البويهي للعراق منذ سنة ٣٢٧-٣٣٤هـ/٩٤-٩٣٨م وانما عملوا بشكل دؤوب للحيولة دون دخول البويهيين بغداد ، لكننا كما نعلم فقد كانت طاقاتهم محدودة وتنقصهم الخبرة والقيادة فضلاً عن أن الخلافة كانت تعاني من ازمة مالية خانقة ، ومن أجل تبسيط الموضوع فسوف نقسمه الى قسمين ، موقف الخلافة وموقف الدار من الغزو البويهي .

١- موقف الخلافة من الغزو البويهي:

تصدى الخليفة العباسي المستكفي بالله للوجود البويهي ، وان كان مضطرا لإستقبال أحمد بن بويه عند احتلاله بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م فهذا لا يعني سكوته المطلق ازاء هذا الغزو وقبوله بالأمر الواقع كما يفعل الكثير من الزعماء في العالم عند تعرض بلادهم لكارثة أو احتلال، فقد ظل الخليفة المستكفي بالله يتصل بالحمدانيين ويراسلهم من اجل ان يعدوا انفسهم وقواتهم لمواجهة البويهيين لكن نتائج اتصالاته جاءت متأخرة . اذ تخلص منه البويهيون قبل أن يتخلص منهم بمساعدة الحمدانيين كما دبرت(علم القهرمانة ((وليمة كبرى لقادة الجيش البويهي من الديلم والاتراك يتبعه اجتماع موسع لتدارس الأوضاع العامة في الدوله العباسية وكانت علم تهدف للايقاع بمعز الدولة البويهي وكبار قادة الجيش البويهي، الا ان البويهيين علموا بما كان يدبر ضدهم ، وكان هذا سببا مباشراً لخلع الخليفة العباسي المستكفي بالله و قتله وبعد خلع الخليفة العباسي المستكفي بالله ، جاء البويهيين بالخليفة المطيع الله (٣٦٣-٣٣٤هـ/ ٩٤٥-٩٧٣م) وفي ظنهم انه سيكون العوبة على بأيديهم ، لكنه وقف وقفات قوية ضد تصرفات البويهيين وسلوكهم فقد اعترض على قرار معز الدولة البويهي بتولية أبي العباس عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب منصب قاضي القضاة ، وتضمين هذا المنصب كما رفض الخليفة طلبا لعز الدولة بختيار بتجهيز الحسن بن احمد الفرملي بالمال والرجال وتعيينه على بلاد الشام بحجة طرد قوات المعز العبيدي قوات الدولة الفاطمية وعندما تأزمت العلاقة بين عز الدولة بختيار وسبكتكين الحاجب سنة

٣٦٣هـ /٩٧٣-٩٧٤م ، اراد الحاجب أن يستغل تذمر الخليفة من مواقف عز الدولة بختيار وطلب من الخليفة التعاون لإسقاط عز الدولة بختيار ، إلا ان الخليفة المطيع الله رفض هذا التدخل تحسباً وخوفاً من انقلاب الوضع ضده ومن ثم يذهب ضحية هذا الصراع في حين على العكس من ذلك استجاب الخليفة الجديد الطائع الله ٣٨١-٣٦٣ هـ / ٩٧٤-٩٩١م ، لطلب سبكتكين الحاجب وشارك شخصياً في هذه الحملة ، وعندما توفي سبكتكين الحاجب اختار الاتراك ((افتكين)) وافق الخليفة الطائع لله على هذا الاختيار وانعم على القائد الجديد بلقب(نصير الدولة)) .

ثم ازداد موقف الخليفة العباسي الطائع لله صلابة في تحد التسلط البويهي ، عندما وصلت قوات عضد الدولة البويهي لمساندة عز الدولة ، فدعا الخليفة الاشراف والقضاة والأتراك على مواصلة الصمود وعدم التعاون مع قوات عضد الدولة، كما تصدى الخليفة أيضا ل عضد الدولة عندما زور الاخير كتابا على لسان الخليفة بتوليه على العراق ، فقام عضد الدولة بقطع الخطبة لمدة خمسين يوما. كما اعتقل الخليفة الطائع لله ابا الحسن بن المعلم ابرز قادة الجيش البويهي، وكان هذا هو السبب المباشر لعزل الخليفة الطائع لله كما كان لإفلاس الامير البويهي بهاء الدولة وعدم استطاعته دفع رواتب الجند و فعل به كما فعل بالخليفة المستكفي بالله

وعندما تولى الخلافة القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣٠ - ١٠٣١م) ، كان النفوذ البويهي قد بدأ يضعف فاستغل الخليفة القادر بالله هذا الضعف لصالح الخلافة العباسية ولصالح الناس في العراق على وجه الخصوص وفي عموم بلاد المسلمين فتقرب للناس وقرب رجال الدين وجلس للمظالم وعنى بأمور الناس ، فكون لديه قاعدة كبيرة تقف إلى جانبه في الأزمات ولهذا اتخذ جملة من القرارات المهمة والمؤثرة ضد الوجود والتسلط البويهي في العراق ، فقام بتعيين ولي العهد دون تدخل البويهيين ، في حين كان الخليفة في السابق لا يستطيع أن يعين ولى عهد له الا بموافقة السلطان (البويهي كما رفض الخليفة القادر بالله طلبا لقرار اصدره بهاء الدولة من شيراز يولي فيه أبا احمد الحسين بن موسى الموسوي منصب قاضي القضاة وامرة الحج والنظر في المظالم ونقابة الطالبيين .

كما رفض الخليفة القادر بالله طلبا لجلال الدولة الذي دخل بعداد سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م بقرع الطبول على بابه خمس مرات يومياً ، كما وقف الخليفة القادر بالله ضد جلال الدولة واقام الخطبة لأبي علي كاليجار بن سلطان الدولة كما اصدر الخليفة القادر بالله امرا بمنع اقامة أي نشاطات المحاور والكتل المذهبية ومنع المناظرة في مثل هذه المواضيع ، وفي سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م أصدر الخليفة المنشور القادري وقام الخليفة بقراءته على وجوه أهل بغداد من القضاة والشيوخ والاعيان ودعاهم فيه الى الالتزام بالقرآن الكريم والسنة الشريفة المطهرة ، وسيرة السلف الصالح ، ودعاهم كذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد عد هذا المنشور من الكتب

المهمة في هذه الفترة ، لدرجة ان كثيراً من وجوه بغداد كانوا يطلبون من الخليفة القادر بالله أن يعيد قراءته عليهم وكان الخليفة يستجيب لهم فيقوم بقراءة المنشور القادري .

وعندما تولى الخلافة القائم بأمر الله (٤٦٧-٤٢٢هـ/١٠٣١ ١٠٧٤م) سار على منهج أبيه في الاستقامة والعدل والعناية بشؤون الرعية ، وطلب من خواصه والمقربين اليه معرفة امور الناس وأحوالهم وضرورة ايصال ذوي الحاجات وأصحاب المظالم اليه ، فأحبه الناس ووقفوا الى جانبه ، ففي سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م قام جلال الدولة بتصرف غير لائق في دار الخلافة (قيامه بشرب الخمر علانية) فهدده الخليفة القائم بأمر الله بترك مدينة بغداد اذا استمر بهذا السلوك .

وفي سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤-١٠٣٥م قام بعض الجنود البويهيين بنهب متاع من دار الخلافة ، فاحتج الخليفة على هذا التصرف وطلب احضار الجناة واحضار المواد المسروقة ليس بقصد استعادتها بل لاثبات هيبة الخلافة ، وعندما حضر الجناة واعادوا الأموال المسروقة عفا عنهم الخليفة القائم بأمر الله. وعندما حاول البويهيون القاء القبض على قاضي القضاة أبي عبد الله بن مأكولا، احتج الخليفة القائم بأمر الله على هذا التصرف. كما رفض الخليفة اعطاء لقب ملك الملوك لجلال الدولة ، عندما طلب منحه هذا اللقب سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧-١٠٣٨م ، كما اعترض الخليفة على جلال الدولة لتدخله في جباية اموال الجوالي، فضلاً عن عدم استقبال الخليفة لابي كاليجار الذي دخل بغداد سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م ، وأمر الخليفة الملك الرحيم البويهي بإبعاد أبي الحارث البساسيري من بغداد لسوء تصرفه ، وهو من القادة الأتراك البارزين في الجيش البويهي .

ب- موقف الناس من التسلط البويهي :

١- وقف الناس في العراق وفي مختلف مدن الامارة الحمدانية مع قادة من الامارة ضد الوجود البويهي ، وذلك لوقوف هذه الامارة الى جانب الخلاف العباسية ، وقد حدثت ثورة في مدينة الموصل وعزم سكان الموصل على قتل جميع الجند البويهي فيها ، لولا بعد نظر الأمير الحمداني . حرصا منه على أهلها ، وخوفاً من قيام البويهيين بعمل مشابه ضد سكان الموصل .

٢- قد رافق الوجود البويهي في العراق تعطيل لعملية الجهاد التي كانت مستمرة طوال الفترة السابقة للوجود البويهي ، وقد حرص الخلفاء والأمراء وولاة الأقاليم على الظهور بمظهر المجاهدين ضد الدولة البيزنطية ، لكن ما حدث في فترة التسلط البويهي هو العكس فقد انشغل البويهيون في تثبيت سلطانهم على العراق والمناطق المجاورة ، كما انشغلوا بمشاكلهم ونزاعاتهم فيما بينهم، فكانت النتيجة ان يعطل الجهاد ، واستغلت الدولة البيزنطية هذا الضعف الحاصل في الدولة العباسية. فبدأت بالهجوم على مناطق الثغور والعواصم ، فهاجم الروم

في سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م اطراف مدينة حلب ، وفي سنة ٣٦١هـ/٩٧١-٩٧٢م هاجم البيزنطيون منطقة الجزيرة الفراتية، وجاءت الوفود من اهل الشام طالبة النجدة من الخليفة العباسي ومن الامير البويهي بوصف انه القائد العسكري في العراق، فلم يلتفت اليهم وانشغل بملذاته الشخصية وانغماسه في شرب الخمر، وبدلاً من أن يعد الامير البويهي العدة للجهاد تغافل عنه مما أجبر العامة على منع خطبة الجمعة في عدد من مساجد بغداد وحصبوا الخطباء بالحجارة، كما حاول الامير البويهي اشغال الناس بقتال عمران بن شاهين الذي كان قد سيطر على منطقة الاهوار – البطيحة – وهو حاكم عربي مسلم رفض الوجود البويهي . كما طلب الامير البويهي من الخليفة احضار الاموال للجهاد، وقد مر بنا ذلك كما رأينا .واصدر امرا الى العامة للتهيؤ للجهاد، فراى ما ادهشه ((فثار من العامةعدد كبير بأجناس السلاح والرماح والقسي حتى استعظم ما شاهده منهم)) وبدلاً من أن يذهبوا للجهاد وجدوها فرصة للخروج على السلطان البويهي وعجز السلطان عن اصلاحهم واطفاء ثائرتهم)) .

٣- كما كتب عامل الثغر الى الخليفة ((ان اسارى المسلمين في بلد الروم كانوا على رفق وصيانة الى ان ولى آنها ملك الروم في حوادث سنة ٣٣٥هـ – حدثان منهم فعسفا الأسارى واجاعاهم واعرياهم وعاقباهم وطالباهم بالتنصر وانهم في عذاب شديد ولا حيلة لي في هذا والخليفة لا يساعدني فكنت انفق الاموال واجهز الجيوش الى القسطنطينية)) .

٤- وفي سنة ٣٥١هـ /٩٦٢م ورد الخبر في المحرم بدخول الروم مدينة عين زربة ، في مائة وستين الف رجل فطلب المسلمون الامان فأمنهم ملك الروم، فلما دخل البلد نادى في أول الليل ان يخرج جميع الناس الى المسجد الجامع وان من تأخر منهم في منزله قتل ، فخرج الناس الى المسجد الجامع ثم بث جيوشه في البلد فمن وجدوه في المدينة قتلوه وطلب ممن دخل المسجد الجامع أن يخرجوا قبل غروب الشمس ، فخرجوا حفاة عراة لايدري الوالد بولده ولا الام بابنها ومات أكثرهم في الطريق من الجوع والعطش ، ثم هدم المسجد الجامع وكسر المنير واستولى على ما وجده فيها من السلاح والمتاع والأثاث ، الا ان سيف الدولة الحمداني اعاد بناء المدينة فيما بعد . وقد تكررت هجمات الروم في السنوات التالية ٣٥٤م /٩٩٢، ٣٥٥،٣٥٨ ٣٥٩،٣٨٢، ٩٦٥،٩٦٦،٩٦٨،٩٦٩م على التوالي.

٥- ولما ضاق الناس ذرعا بتصرفات البويهيين وسياسة التعسف التي مارسوها ، فقد اعتدى صاحب المعونة في بغداد على احد الاشخاص وقتله، فثارت العامة على صاحب المعونة وقتلوه سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢ – ٩٧٣م كما هاجم الناس في مدينة بغداد السجون، واخرجوا من القي القبض عليه من زملائهم اثر الحادثة ، فقام البويهيون باحراق بيوت الثائرين وقد امتدت الحرائق إلى الأسواق المجاورة فاحترقت ٣٠٠ دكان نتيجة هذا العمل ، وتأذى أصحابها كونها مصدر رزقهم الوحيد .

٦- وفي مدينة نصيبين - تقع الآن في جمهورية تركيا - حدثت ثورة شعبية مسلحة ضد واليها الديلمي الذي أساء السيرة واحل المحرمات، وقد اختفى هذا الولي بزي امراة ، وحاول الهرب، لكن اهالي نصيبين تمكنوا من القاء القبض عليه وقتلوه بعد ان اذاقهم الهوان ، وجبى الاموال منهم بصورة غير شرعية .

٧- أما في مدينة الموصل فقد وقف سكانها الى جانب باذ الكردي واستطاعوا اخراج البويهيين من الموصل، وقد حاول باذ التحرك الى بغداد لطرد البويهيين منها ، لكن نقص الامكانات المادية والخبرة العسكرية وقلة السلاح الثقيل في ذلك الوقت - المنجنيقات - اوقف هذا المشروع وهذه الحملة لطرد البويهيين من العراق ، فتمكن البويهيون من استعادة الموصل وسيطروا عليها مرة أخرى .

٨- لقد فرض البويهيون ضريبة على المنسوجات في سنة ٣٧٣هـ فثارت ثائرة الناس وعم الاضطراب مدينة بغداد ، وطالبوا الحاكم البويهي برفع هذه الضريبة لما لها من ضرر على عامة الناس ، وعلى عمال المنسوجات بشكل خاص ، وقد تمت الاستجابة لهذه المطاليب بعد ضغط شديد من عامة الناس ، ففي سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م فرض البويهيون ضريبة على الابريسم والقطن والمبيعة ضريبة مقدارها عشر الثمن، فاجتمع الناس في جامع المنصور وعزموا على قطع الصلاة وكاد البلد يفتتن فاعفوا من ذلك ، لكنهم أعادوا فرضها سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م ولم يكتفوا بهذه الضريبة هذه المرة ، بل فرضوا ضرائب على المواد الغذائية التي تستورد من انحاء العالم الاسلامي خلافا لاسس جباية الضرائب التي اقرتها الشريعة الاسلامية، وربما تأتي هذه البضائع من شمال العراق او من بلاد الشام او من مصر وهي جزء من ارض الاسلام ولا يجوز فرض ضرائب عليها ، لانها محرمة شرعا .

٩- لقد تهيأ الناس في بغداد لثورة عارمة مسلحة ضد الوجود البويهي سنة ٤٢٣هـ /١٠٣٢م ، الا أنها أجلت للاسباب المعروفة وهو قوة البويهيين قياسا الى قوة عامة الناس في بغداد. وفي سنة ٤٢٩هـ /١٠٣٧-١٠٣٨م حدثت ثورة مسلحة في بغداد احتجاجا على تسمية جلال الدولة بي شاهنشاه ملك الملوك ، وقد ثار اهل بغداد على اطلاق هذا اللقب لأن هذا اللقب يستحقه الله سبحانه وتعالى ولا يستحقه بشر ، ورجموا الخطباء بالحجارة، احتجاجا على اطلاق هذا اللقب في خطبة الجمعة .من كل ما تقدم يتبين لنا دور الناس في مدينة بغداد بوصفها مركز الوجود البويهي وفي غيرها من المدن ، ولا يمكن أن يخرج الناس في عموم البلاد الاسلامية، ويعلنوا ثورتهم جزافا ويضحوا بأنفسهم من دون سبب فالسبب معروف وهو وجود الاحتلال البويهي ، وسوء الادارة والعصف في المعاملة واستغلال الناس في ابشع صورة .

٩- خلفاء العصر البويهي :

١- المستكفي بالله : هو أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي بالله علي بن أحمد ابن المعتضد بالله. وامه ام ولد تعرف بي غصن مولد ليلا الثلاثاء من سنة االثنين وتسعين ومائتين بالقصر الحسني ، كان ربعة من الرجال معتدل الجسم حسن الوجه ابيض مشرب بحمرة اسود الشعر ونقش خاتمه المستكفي بالله أمير المؤمنين بويع له بالخلافة يوم السبت لعشر بيقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة و عمره احدى واربعون سنة ، كان ذكياً لطيف الحس، لين الكلام ، تام المروءة له كلمات لازالت تتردد على الألسن منها ((تقوى الله خير عتاد و العدل في الرعية يعمر البلاد)) و ((من اعتنى بترفيه جسمه فقد تعرض لخمول اسمه)) و ((من شغل نفسه بكثرة المال فقد تعجل لنفسه الوبال قبل المال)) وكان ينظم الشعر فقد روى الصاحب بن عباد ابياتا منها: فكم عثرة لي باللسان عثرتها ففرق من بعد اجتماع بها شمل ، يصاب الفتى من عثرة بلسانه. وليس يصاب المرء من عثرة الرجل. وقد خلع في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وبعد ذلك سملت عيناه وحبس فلم يزل محبوساً الى ان توفي وبلغت مدة خلافته سنة واربعة اشهر وقد تولى الوزارة له أبو الفتوح محمد بن على الشيرازي ثم عزله بعد شهرين وعين بدلاً عنه ابو عبد الله بن أبي سليمان. ثم أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي اما قاضيه فهو أبو الحسن محمد بن أبي الشوارب القرشي وابو السائب عتبه بن عبد الله محمد بن عيسى وحاجبه ابن سكرة والصابي .

ب المطيع لله : هو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر بالله ولد في رابع عشر محرم سنة احدى وثلاثمائة في القصر الحسيني وامه ام ولد يقال لها ((مشغلة)) وقد ادركت خلافته ، ونقش خاتمه ((المطيع لله))، تولى الخلافة بعد أن خلع البويهيين الخليفة المستكفى بالله وسملوا عينيه في جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وخلع المطيع لله نفسه من الخلافة غير مكره فتولى ابنه البكر ابا بكر عبد الكريم ولقب بالطائع لله، وسبب ذلك ان المطيع الله اصابته علة منعته من الحركة وقصرت به عن القيام بلوازم الامامة فاشهد على نفسه بما هذه صورته ((وهذا ما اشهد عليه امير المؤمنين الفضل المطيع لله حين نظر لدينه ورعيته وشغل بالعلة الدائمة عما يراعيه من الامور الدينية وانقطع عن بعض ماكان يجب الله تعالى عليه فرأى اعتزال ما كان اليه من هذا الأمر وتسليمه الى ناهض به قائم بحقه ممن يرى له الرأي عهده له، اشهد بذلك طوعاً في يوم الاربعاء الثالث عشر من ذي القعدة من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة)). تولى الوزارة في عهده أبو احمد الفضل بن جعفر الشيرازي نيابة وابو سعيد وهب بن ابراهيم وقضاته ابو محمد عبيدالله بن احمد بن معروف الذي كان من اجلاء الرجال والباء الناس مع تجربة وحنكة ومعرفة وفطنة وبصيرة ثاقبة وعزيمة ناصبة ضارباً في الأدب بسهم وأخذ من علم الكلام بحظ وكان يجمع وسامة في منظره وظرفاً في ملبسه وطلاقة في مجلسه وبلاغة في خطابه وعفة

عن الاموال ونهوضاً باعباء الاحكام وهيبة في قلوب الرجال، وابو السائب عتبة ابن عبيد الله، وأبو الحسن محمد بن صالح الهاشمي وحجابه ابو الحسن بن ابي عمرو، وشاعره الصابي.

ج الطائع لله : هو أبو بكر عبد الكريم بن الفضل المطيع الله ولد الطائع الله في سبع عشر وثلاثمائة وامه ام ولد يقال لها عتب وقد أدركت امه خلافته ، وتولاها وهو ابن ثمان واربعون سنة كان مربوعا اشقر حسن الجسم نقش خاتمه ((الطائع لله)) ، كان كريماً شجاعاً فيروى انه كان بقرونه بدار الخلافة أيل عظيم وكان يصول على الناس ويقتل بقرونه الدواب فحصره الخليفة الطائع لله وأمسك بقرنيه وارسل في طلب نجار وامره بقطع قرون الايل ثم اطلقه ولم يتغير عليه شيء سوى سقوط فرجية الخليفة من على كتفه . فوض الخليفة الطائع لله أمور الدولة الى عضد الدولة وجلس له في صحن دار السلام واخذ مؤنس الخادم يعضده حتى انتهى إلى الطائع لله وقبل يده ورجله فأمره بالجلوس فامتنع ، فقال له الطائع لله في الرابعة. أقسمت عليك إلا قعدت فجلس على كرسي وفوض اليه الامور فقال عضد الدولة : اريد أن يسمع الناس ذلك فقال الطائع يحضر الحسن بن موسى – نقيب الطالبين – وغيره، فأمر الخليفة بإحضارهم فسمعوا لفظ الطائع تزوج الطائع لله من ابنتي عضد الدولة وبنت عز الدولة وقد سمح الخليفة الطائع لله يقرع الطبول على باب عضد الدولة ثلاثة مرات يوميا .وقد خلع الخليفة الطائع الله سنة ٣٨١/٩١هم وذلك بسبب ابو الحسن بن المعلم الذي كان من خواص بهاء الدولة ، والذي طمع بما عند الخليفة الطائع لله من أموال وأثاث وعدة فجاء السلام على الخليفة فقعد له الخليفة الطائع الله متوشحاً بالسواد وفعل به نفس ما فعل بالخليفة المستكفي بالله وأجبر على التنازل عن الحلافة للقادر بالله. وكان الشريف الرضي حاضرا فبادر بالخروج خوفا من البويهيين .

وقد استوزر الخليفة الطائع لله كلاً من : ابو الحسن على بن جعفر بن نباته وأبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى وابو الحسين عيسى بن مروان وابو الحسن على بن عبد العزيز ابن حاجب النعمان ولم يعزل الطائع لله أحداً من قضاة المطيع الله اما حجابه فهم مؤنس الفضلي، واحمد بن نصر ووصيف، اما شعراؤه فهم الرضي والمرتضى .

د القادر بالله: هو ابو العباس أحمد بن أبي بكر اسحاق بن جعفر المقتدر بالله وامه ام ولد تعرف ب تمني كانت دينة صالحة وقد أدركت خلافته ، كان ابيض حسن الجسم كث اللحية ، كان من الدين والستر وادامة التهجد وكثرة البر والصدقات على غاية اشتهر بها ونقش خاتمه ((القادر بالله)) وقد حدثت ما يعكر العلاقة بينه وبين الخليفة الطائع لله فهرب القادر إلى البطيحة وظل بها حتى ولي الخلافة . بويع بالخلافة في الثاني عشر من رمضان من سنة احدى وثمانين وثلاثمائة، وجلس في يوم وصوله الى بغداد جلوساً عاماً وامتدحه الشعراء .

وقد صنف الخليفة القادر بالله كتاباً في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على الترتيب وأورد فضائل عمر بن عبد العزيز وكان كتاب يقرأ كل جمعة في جامع المنصور وفضائل الخليفة القادر بالله كثيرة لكان يخرج متكراً إلى البلد ليعلم حال اهله ويغشى مجالس ابن القزويني متنكرا في زي رجل صوفي توفي القادر بالله سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة اما وزراؤه فمنهم – وذلك لطول فترة خلافته ٤١ سنة وثلاثة اشهر – أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن ابراهيم بن حاجب النعمان اما قضاته فعلهم ابن الاكفائي وابن الخزري والابيوردي ،اما حجابه فمنهم ابو القاسم . ، وأبو القاسم محمد بن الحسن، وشاعرا الرضي ومهيار.

هـ– الخليفة القائم بامر الله: هو أبو جعفر عبد الله بن أحمد القادر بالله. ولد في يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة سلة احدى وتسعين وثلاثمائة وامه ام ولد ارمنية يقال لها قطر الندى وقد ادركت خلافته عهد له بالخلافة والده القادر بامر الله ، ولقب بالقائم بأمر الله وجددت له البيعة بعد وفاة والده القادر بالله، وقد بايعه الناس بدار الشجرة، وكان لفظ البيعة ((ابايع امير المؤمنين القائم بامر الله على الرضا بامامته والالتزام بشرائط طاعته))، فيقول نعم، ويأخذ و ويقبلها، وبايعه الشريف المرتضى ابو القاسم علي بن الحس الموسوي نقيب الطالبيين .

اما نقش خاتمه فهو ((العزة الله وحده ، كان كثير العبادة متهجدا لا ينام الا غلبة ونقل عنه انه مانام على فراش ولاتدثر بدثار منذ ولي الخلافة، فعرتب في ذلك فقال: اني منذ وليت الخلافة وسمعت الدعاء يقول ((الصوام القوام)) فاستحييت من الله تعالى أن أوصف بصفة ليست في وكان لمحبته ارباب الدين وانخراطه في سلك المتعبدين يغير زيه ويحضر مجلس الشيخ أبي الحسن القزويني بالحربية – محلة من محلات بغداد، كان يقول الشعر، وكانت له عناية بالأدب حتى كان يصلح كثيراً مما ينشأ في ديوانه ،وفي عهده دخل السلاجقة بغداد وبقي في حديثة مدينة من محافظة الانبار بالعراق الآن، وهي غير حديثة الموصل التي تقع قرب النقاء الزاب الاعلى بدجلة قرابة سنة وقد قال في الحديثة شعرا .

وعرف عنه العفو فقد عاهد الله على ذلك رجاء المغفرة ونقل عنه انه نذ رجوعه من الانبار الى داره لم يستعن على قضاء أي حاجة يحتاجها خادم قبل كان يخدم نفسه بنفسه ، وكان يقول: (قد جعلت شكر النعمة الاحسان الى كل مسيء والصفح)) و ((بتحمل الاخطار تعظم الاخطار و ((بالصبر على مضض الاقدار يكون على المقدار) و من وزراؤه ابو طالب محمد بن سليمان وزير ابيه ثم عزله وولى رئيس الرؤساء ابن المسلمة الوزارة وقضاته أبو منصور بن بكران وابو عبدالله الحسين بن علي المردوسي وشاعراه ابن صردر وابن البياضي.

١٠- مقاومه النفوذ البويهي:

دور العيارين والشطار في مقاومة الوجود البويهي :

قبل الخوض في الحديث عن العيارين لابد من التعرف على هؤلاء العيارين والشطار ولماذا اطلقت عليهم هذه التسمية في العراق وبماذا كانوا يعرفون في بقية ارجاء العالم الاسلامي وما هو سبب وجودهم . ظهر العيارون والشطار في مناطق مختلفة من العالم الاسلامي ومن بينها العراق مصر والشام ويبدو من تسميتهم أنهم يحسنون الرماية واصابة الهدف من خلال لفظة العبار والشطار ربما تعني سرعة الحركة و الإفلات من العقاب أو من القاء القبض عليه بعد انجاز مهمته وقد اره ظهرت امثال هذه الحركات في وقت متقدم ابان العصر العباسي ، فنسم عن وجود تحركات للعامة في بغداد في عهد الخليفة العباسي ، محمد الامين اثناء حصار بغداد ، وقد استعان بهم الامين وقد ابلوا بلاء حسنا، لكن ما ينقصهم هو الخبرة والقيادة ، كما ظهروا بشكل أكثر تنظيما اثناء حصار بغداد سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥م في عهد الخليفة المستعين بالله ، وتظهر امثال هذه الحركات اثناء الاضطرابات الداخلية وضعف السلطة المركزية واصبحوا قوة يحسب لها الف حساب ففي العراق اطلق عليهم المبارين والشطار وفي بلاد الشام بالزعار وفي مصر عرفوا باسم الفتوة أو الفتيان او المطاريد او الحرافيش او اوباش او رعاع او طرارون و قد أدت عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية دورا في ظهور هذه الحركات، فضلا عن الغزو الأجنبي وتردي الاحوال العامة في العراق على سبيل المثال لا الحصر .

وقد تبلورت هذه الحركة في الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد ، حين زاد الارتباك السياسي وساءت حالة الناس المعاشية واستمرت هذه الحركة حتى نهاية النفوذ السلجوقي في بغداد، اذ لعب العيارون والشطار دورا مؤثرا في الأحداث السياسية في مختلف مدن العراق. وظلت حتى نظمها ووضع اسما الخليفة الناصر لدين الله تحت اسم الفتوة ويبدو من خلال اقوال المؤرخين المعاصرين أن حركة العيارين والشطار التي بدأت بوصفها تمرداً على سوء الأوضاع المعاشية والفوضى الاجتماعية والسياسية ، قد استغلت من قبل جماعات عديدة من العوام ايضا ، الذين لم يكن لهم هدف او رأي منظم، بل مدفوعين من اجل السلب والذهب ، ومن هنا جاء تباين آراء المؤرخين من رواد و محدثين حول طبيعة حركة العيارين والشطار واهدافها ، فيقول ابن الجوزي حين يقف العيارين والشطار قائلا : ((فانهم يسمون بالفتيان ، ويقولون : الفتى الأيرني ولا يكذب ويحفظ الحرم ، ولا يهتك ستر إمرأة و مع هذا لا يتحاشون من أخذ أموال الناس ويسمون طريقتهم الفتوة
عليهم المبارين والشطار وفي بلاد الشام بالزعار وفي مصر عرفوا باسم الفتوة أو الفتيان او المطاريد او الحرافيش او اوباش او رعاع او طرارون و قد أدت عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية دورا في ظهور هذه الحركات، فضلا عن الغزو الأجنبي وتردي الاحوال العامة في العراق على سبيل المثال لا الحصر .

وقد تبلورت هذه الحركة في الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد ، حين زاد الارتباك السياسي وساءت حالة الناس المعاشية واستمرت هذه الحركة حتى نهاية النفوذ السلجوقي في بغداد، اذ لعب العيارون والشطار دورا مؤثرا في الأحداث السياسية في مختلف مدن العراق. وظلت حتى نظمها ووضع اسما الخليفة الناصر لدين الله تحت اسم الفتوة ويبدو من خلال اقوال المؤرخين المعاصرين أن حركة العيارين والشطار التي بدأت بوصفها تمرداً على سوء الأوضاع المعاشية والفوضى الاجتماعية والسياسية ، قد استغلت من قبل جماعات عديدة من العوام ايضا ، الذين لم يكن لهم هدف او رأي منظم، بل مدفوعين من اجل السلب والذهب ، ومن هنا جاء تباين آراء المؤرخين من رواد و محدثين حول طبيعة حركة العيارين والشطار واهدافها ، فيقول ابن الجوزي حين يقف العيارين والشطار قائلا : ((فانهم يسمون بالفتيان ، ويقولون : الفتى الا يرني ولا يكذب ويحفظ الحرم ، ولا يهتك ستر إمرأة و مع هذا لا يتحاشون من أخذ أموال الناس ويسمون طريقتهم الفتوة ويجعلون لباس السراويل للداخل في مذهبهم كلباس الصوفية للمريد المرقعة)) .

ويبدو من خلال رأي ابن الجوزي ان حركة العيارين والشطار قد ظهرت بوجهين الأول اجتماعي حيث أنها حركة اجتماعية منظمة قام بها الضعفاء من الناس من كل الاجناس كما ذكرنا ذلك سابقا اذ ضمت حتى العباسيين والعلويين في صفوفها ، وقد ظهرت في بغداد والمدن الكبيرة لاسباب من بينها أنه يصعب على السلطة مهما كانت ان تكتشف خيوطها مقارنة بالقرى والقصبات لسعة المدينة وكثرة سكانها والوجه الثاني ان لهذه الحركة مباديء اخلاقية منها الفقه وعدم المجون ، ولهذا اطلقوا على تنظيمهم لقب ((الفتوة)) وكان قسمهم هو بحق الفتوة وهذا يعني أنها امانة في اعناقهم. وقد وصف المؤرخ ابن الأثير سيرة احد زعماء العيارين وهو البرجمي فقال: ((كان فيه فتوة وله مروءة ولم يعرض لإمرأة ولا الى من يستسلم اليه)) .

اما التنوخي فقد وصف ابن حمدون العيار فقال: ((فيه فتوة وظرف...لا يفتش أمراة ولا يسلبها ، ولم يعرض لأصحاب البضائع القليلة – أي صغار التجار – التي تكون دون الألف، واذا اخذ ممن حاله ضعيفة قاسمه عليه ، فترك شطر ماله في يديه)) ، وقد دافع العيارون عن رأيهم في سلب التجار واصحاب الثروة بعض أموالهم او كلها بزعمهم أن هؤلاء الاغنياء لم يدفعوا زكاة أموالهم. وان الضعفاء من العيارين يستحقونها ، وان اخذ اموال التجار مسموح به (لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم العيارون مستحقون للزكاة ، شاء ارباب المال أم كرهوا) الا ان عنف الهجمات على الاسواق والتحكم في ارباب التجارة ، بفرض ضرائب معينة عليهم ونهب دورالمثرين وما صاحب ذلك من اعمال قتل وحرق، تشير دون شك الى دخول عناصر دخيلة غير منظمة في حركة العيارين واستغلال مباديء العيارين وسمعتهم، لتحقيق أغراض دنيئة من اجل تحقيق مصلحتهم في اشباع رغباتهم تحت ستار العيارين مما نشر الفوضى واعاق التطور والنمو الاقتصادي والصناعي والحضري وتعطيل

التجارة والزراعة ومشاريعها قياسا إلى فترات سابق ، مما دعا بعض المؤرخين الى وصف حركة العيارين باللصوصية والاجرام وهذا هو الوجه الثاني للعيارين وبعد أن تطرقنا الى نشوء حركة العيارين والشطار نتناول الآن دورهم في مقاومة الوجود البويهي في العراق ، ففي الفترة الأولى من الوجود البويهي في العراق ، كانت للبويهيين قوة عسكرية كبيرة في العراق ، ولهذا نلاحظ ان نشاطهم كان ضعيفا في عصر قوة البويهيين ، لكن العيارين والشطار لم يتركوا الحبل على الغارب للبويهيين ، بل استغلوا الظروف الداخلية والخارجية لصالحهم ، ففي سنة ٣٦١هـ/٩٧١ – ٩٧٢ وعندما بلغت التجاوزات البيزنطية مداها ، هب الناس يدعمهم العيارين والشطار لنجدة اهل الرّها والجزيرة الفراتية، وأوقع الناس الخسائر الفادحة في ممتلكات البويهيين واعوانهم، وتكرر هذا الهياج في سنة ٣٦٤هـ /٩٧٤م ، حيث قادهم في هذه المرة زعيم العياريين الزيد العاري ، وتمكن العيارين من أخذ الضرائب من سكان الدروب ومن اصحاب الدكاكين في الاسواق ..

كما نشطت حركة العيارين والشطار في سنة ٣٧٩ –٣٨٠هـ / ٩٨٩–٩٩٠م وظهروا جهارا في الاسواق والدروب ، وهذا يعني قوتهم من ناحية وضعف الوجود البويهي من ناحية اخرى، وقد قاموا بقتل كل من يقف ضدهم من اعوان البويهيين ، وظهر تنظيمهم بشكل واضح فاصبح لكل درب امير ولكل محلة مقدم ، وتولى قيادتهم العبار عزيز البايمري، وقد طالب العياريين البويهيين بحسن معاملة الناس وانصافهم، وقد تصدى البويهيين لهذي الحركة ورصدوا لها الامكانات المالية من أجل الحد من نشاطهم وفي سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م امر العيارين ببغداد ، وتجدد نشاط العيارين في الأعوام ٣٩٠ –٣٩٣هـ /١٠٠٠–١٠٠٣م مما أجبر البويهيين على تكليف عميد الجيوش أبي علي بن هرمز على التصدي لهم ومحاربتهم ، لكنه لم يستطع القضاء عليهم وفي مطلع القرن الخامس للهجرة /الحادي عشر للميلاد بدات عوامل الضعف تدب في الدولة البويهية ، فظهروا في بغداد مرة أخرى سنة ٤٠٨هـ /١٠١٧م ، وقاموا بمصادرة اموال البويهيين والاشخاص الموالين لهم .

كما ازداد نشاطهم بشكل واضح في سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م، حيث تحدوا السلطة البويهية بشكل واضح ودون خوف أو وجل فظهروا عيانا امام الناس ليلا ونهارا ، وكانوا اثناء مسيرهم ليلا يحملون المشاعل ومدججين بالسلاح، وفي هذه السنة ايضا نهبوا أموال الحاكم البويهي مشرف الدولة ، فضلاً. عن أموال الاشخاص الذين يساندون الوجود البويهي وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك فقال : (في هذه السنة ظهر امر العيارين ببغداد فقتلوا النفوس، ونهبوا الاموال وفعلوا ما أرادوا ، واحرقوا الكرخ ورغلا السعر بها ،حتى بيع كر الحنطة بمائتي دينار قاسانية) وفي سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م ازداد نشاط العيارين في بغداد، واقلقوا الادارة البويهية ولم يقبلوا بالخروج من البلد، حيث أنذرهم الحاكم البويهي بضرورة الخروج من البلد وبدلا من أن يخرجوا من البلد هاجموا معسكرات الجند البويهي ، فرد عليهم البويهيون باحراق عدد من الدور التي كان يحتمي بها العيارون وفي سنه ٤٢٠هـ/

١٠٢٩م ازداد نشاط العيارون في بغداد، وتزعم قيادة حركتهم أبو يعلى الموصلي، الذي اتخذ من منطقة عكبرا مقرا له ، وقد هاجم ابو يعلى الموصلي الشرطة وقتل بعضهم ، وكان يسير مع اتباعه وسيوفهم مسلولة، استعدادا لأي طاريء قد يتعرضون له .

كما برز في هذه المدة نشاط العيارين بزعامة البرجمي وقد عرف عن هذه الشخصية شدتها وقوتها في معاملة البويهين والأشخاص المتعاونين معهم، وكان لايصعب عليهم أي هدف مهما كان بعيد المنال، حتى ولو كان بقرب دار الحاكم البويهي، وقد اضطر الجند البويهي إلى أخذ خيولهم معهم بعد أن تعرضت اصطبلات الجلد إلى الهجوم من قبل العيارين، ونقل الحاكم البويهي دوابه إلى داخل دار المملكة البويهية، والتي تقع في الجانب الشرقي من بغداد لكن كل هذه الاحتياطات لم تجد نفعا امام نشاط العيارين والشطار في بغداد، فاقتحموا دار المملكة البويهية، ونهبوا ما خف وزنه وغلا ثمله ونهبوا الخيول التي ظن البويهيون انها في مأمن من العيارين. وهنا وضح للعيان عجز البويهيين وفشلهم في التصدي لنشاط العيارين الذين هاجموها في عقر دارها ، واشتبك البرجمي واتباعه مع القوات البويهية التي عجزت عن مقاومته وهربت امامه .

وفي سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٢م قتل اعوان البرجمي صاحب الشرطة في بغداد ، وهذا هو أكبر تحد للوجود البويهي فصاحب الشرطة يمثل ما يعرف اليوم بوزير الداخلية وهو عمل كبير لا يمكن التغافل عنه ، وهنا جندت السلطة البويهية كل طاقاتها وامكاناتها للقضاء على البرجمي واتباعه بعد ان اطاعه الناس وعمال البويهيين انفسهم وجرى اشتباك عنيف مع قوات البويهيين، التي كانت قد اكملت كل استعداداتها لمواجهة البرجمي ، حتى تمكنت من قتله .

ت – المقاومة العربية للتسلط البويهي

أ_ المقاومة الحمدانية :

ترجع الأسرة الحمدانية في نسبها الى بطن من بطون تغلب بن وائل من العرب العدنانية ، وقد برز دورهم منذ خلافة المعتضد بالله ((٢٧٩– ٢٨٩هـ / ٨٩٢–٩٠٢م)) ، وسيطروا على قلعة ماردين – تقع الآن في جمهورية تركيا – لكن قوة الخليفة المعتضد بالله منعتهم من الظهور بشكل علني فقاد هذا الخليفة جيشا وتوجه به صوب مقرهم ماردين وسخرهم لخدمة الدولة العباسية بحيث قضت هذه الأسرة على أحد أكبر زعماء الخوارج في عهده ولكن ضعف الخلفاء الذين جاءوا من بعده وتعرض الخلافة العباسية الى هزات كبيرة ، فسح المجال امام الحمدانيين للظهور من جديد على الساحة السياسية وبخاصة ابان عصر امرة الأمراء ((٣٢٠–٣٣٤هـ /٩٣٢–٩٤٥م))، وقد لعبت هذه الامارة دورا مهما في التصدي للبيزنطيين، بعد أن سيطر البويهيون على منطقة

الاحواز كما مر بنا في بداية الفصل الأول ، تطلع البويهيون للسيطرة على العراق ، وكان في منطقة ولاية البصرة اسرة تحكم هذه المنطقة عرفت بالاسرة البريدية ، التي لم تكن مخلصة للخلافة العباسية ولا لأهل ولاية البصرة التي كانت سببا في وجودها وثرائها بل حاولت هذه الاسرة اكثر من مرة التطلع للسيطرة على مدينة واسط ومن ثم التوجه الى بغداد ، كما نتذكر انها كانت وراء سيطرة البويهيين على الاحواز ، عندما هرب البريدي الى البويهيين بعد هزيمته في احد المعارك، زين البريدي للبويهيين السيطرة على العراق أكثر من مرة .

بعد احتلال البويهيين للاحواز تطلعوا للسيطرة على العراق وقادوا عدة جيوش لهذا الغرض وقد فشل امير الامراء ابن رائق في التصدي للخطر البويهي ، فتحرك ناصر الدولة الحمداني الى بغداد بقواته وشغل منصب امير الامراء سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م ، وعندما علم البريدي بتولي ناصر الدولة لمنصب امير الامراء، لم يرق له هذا التغيير، وبخاصة أن حليف البويهيين، فسار البريدي يريد السيطرة على بغداد، فتصدى ل ناصر الدولة و اشتبك معه في معركة الكيل – قرب المدائن الحالية .. كتب فيها النصر الحمدانيين حيث انسحب البريديون الى البصرة ولأجل استثمار الفوز والنصر سار ناصر الدولة الحمداني نحو مدينة واسط وقام بتحكيم مواقع المدينة العسكرية وعين اخاه عليا بن عبد الله الملقى ب سيف الدولة ، وامره بالاستعداد لاسترداد البصرة، فاخذ بعد العد للهجوم على البصرة واستعادتها من يد البريديين ، لكن انحياز قسم كبير من الجند الحمداني المؤلف من الديلم الى البريديين اضعف الجيش الحمداني ، فضلا عن اختلال الوضع في بغداد والذي ادى بالنتيجة الى اضعاف موقف الحمدانيين في بغداد فآثروا الانسحاب الى الموصل وترك الوضع متأزما في بغداد ، وذلك بتولي توزون منصب امر الامراء سنة ٣٣١هـ /٩٤٢م .

لم يحل تولى توزون لمنصب امير الامراء المشاكل في بغداد وبخاصة الأزمة المالية ومن ثم عدم استطاعة الدولة دفع رواتب الجند ولم يستطع توزون من القيام بالموازنة بين الواردات والنفقات ، فضل عن حل الصراعات المستحكمة بين قادة الجند ، فكل منهم كان يريد ان يمسك بزمام الامور بيده دون غيره غير آن جهوده تبوء بالفشل وهكذا وكلما جاء امير يريد ان تكون الكلمة هي كلمته وقام بمصادرة الأمر الذي كان قبله ، فاضطر الخليفة المتقي الله الى مغادرة بغداد حرصا على حياته لحين الجلاء الموقف ، ولما لم يكن مع الخليفة قوة عسكرية قوه تسنده طلب العون والمساعدة من الحمدانيين الذين اسرعوا للاستجا لطلب الخليفة ، واستقبلته القوات الحمدانية في تكريت ورافقته الى الموصل سنة ٣٣٢ هـ/ ٩٤٣م ، الا ان توزون امير الأمراء لاحق القوا الحمدانية الى الموصل وخسرت الامارة الحمدانية ولاية الموصل جر هذا النزاع ، ويعود السبب في مطاردة توزون للقوات الحمدانية وللخليفة المطيع الله ، لكي يكتب موقفه الصفة الشرعية واثناء هذه الأوضاع ظهر أبو جعفر بن شيرزاد في بغداد وكان قد جند قسما من سكانها لصالحه فالتحق بناصر الدولة الحمداني، الذي آمده

بقوة عسكرية حمدانيه ثم رجع ابن شيرزاد الى بغداد الغربية لينضم الى الجيش الحمداني الموجود فيها بقيادة أبي العطاف جبير بن عبد الله بن حمدان – حيث تسلل هذا القائد مع قسم كبير من الجيش الحمداني الى مدينة بغداد، واخذ ابن شيرزاد بدير بغداد نيابة عن ناصر الدولة الحمداني ، وقد رحب سكان بغداد بهذا الاجراء على امل التخلص من الوجود البويهي فيها كما تحرج موقف البويهيين في بغداد نتيجة لهذا التطور والنجاح الذي حققه ناصر الدولة ، اذ اصبحوا بين قوتين حمدانيتين الأولى في عكبرا والثانية في بغداد ثم سار ناصر الدولة الى بغداد ودخلها في رمضان من السنة نفسها .

وعندما علم معز الدولة بهذه النجاحات تحرك بجيشه صوب مدينة سامراء وتكريت ، واوقع بهما الدمار لأنهما من املاك الحمدانيين، ثم تحرك صوب بغداد فدخل في الجانب الغربي ، ولما علم ناصر الدولة بالامر غادر الجانب الغربي وعسكر في الشماسية، فاصبح الجانب الشرقي من بغداد بيد القوات الحمدانية والجانب الغربي بيد البويهيين، وجرت معركة نهرية عرفت بموقعة نهر دجلة، تكبد البويهيين فيها الخسائر الفادحة واغرقوا اغلب السفن البويهية واستولوا على معدات مهمة من الجيش البويهي.

وفي بداية شوال من السنة نفسها اعد ناصر الدولة خطة عسكرية لإختراق تحصينات البويهيين في الجانب الغربي من بغداد لكن خيانة الجند الديلمي في معسكر ناصر الدولة قلب الكفة لصالح البويهيين، على الرغم من محاولة ناصر الدولة تحقيق النصر حيث اعد قوة من الف مقاتل اشتبكت مع الجيش البويهي .

كما شدد ناصر الدولة الحمداني الحصار على بغداد لمنع الميرة والعلف من الوصول إلى الجيش البويهي وتمت مراقبة المعابر بين الجانبين من قبل ابن شهرزاد، حتى فكر معز الدولة بمغادرة بغداد والعودة الى الاحواز، لكن قائد الجيش البويهي المدعو اصفهدوست والوزير أبا جعفر الصيمري اعدا خطة باغتت الجيش الحمداني وذلك بالعبور الى الضفة الشرقية لنهر دجلة ، فسيطروا على الجانب الشرقي من بغداد فاضطر ناصر الدولة الى الانسحاب الى منطقة عكبرا ، حيث تبعهم كثير من الناس خوفا من انتقام البويهيين منهم لأنهم ساندوا ناصر الدولة في حربه ضدهم ، وقد قتل قسم منهم من قبل القوات البويهية. وظل الأمر متوترا الى سنة ٣٣٥هـ /٩٤٦م حيث تم عقد صلح بين الطرفين ، تكون بموجبها الموصل وبلاد الشام ومصر للحمدانيين، على أن يرسل ناصر الدولة الميرة والعلف الى بغداد ، مع دفع مبلغ من المال سنويا الى البويهيين في بغداد. وقد وصف ابن الجوزي الحالة بعد هذه الهزيمة فقال: ((انهزمنا يومئذ مع ناصر الدولة الحمداني ، من بين يدي معز الدولة البويهي .... فرأيت ما لالحصي من اهل بغداد قد تلفوا بالحر والعطش ونحن نركض هاربين فما شبهته الا بيوم القيامة)) و ((خاف الناس السيف فهربوا على وجوههم، وكانت العذراء والمخبأة المترفة والصبية والاطفال والعجائز وسائر الناس يخرجون على وجوههم يريدون الصحراء ، وكان ذلك اليوم حارا فلا يطيقون

المشي)) وبعد رجوع معز الدولة الى بغداد ، ارسل جيشا إلى البصرة فاستعادها من يد أبي القاسم البريدي ثم شعر معز الدولة بقوته بعد هذا الانتصار، فكتب كتابا على لسان الخليفة المطيع الله وارسله الى ناصر الدولة يأمره فيه بارسال الاموال المتفق عليها إلى بغداد وقد أرسل ناصر الدولة المال المقرر الى بغداد سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م ، تدفعه اسباب داخلية وخارجية فظهور القرامطة في حلب وحركة جمان في الرحبة، فضلا عن انشغال قسم من جيش ناصر الدولة في مهمه جهادية على الحدود مع الدولة البيزنطية ،لكن الحال تغيرت في سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م ، فامتنع ناصر الدولة من ارسال المال المقرر الى بغداد وتكررت هذه الحالة أكثر من ثلاث مرات فضلا عن حدوث اشتباكات بين الطرفين وحدوث كر وفر الطرفين واخلاء الموصل واحتلالها من قبل الجيش البويهي ، حيث تم عقد صلح بين الطرفين، بعد أن اضطر معز الدولة البويهي إلى الذهاب الى جرجان لدعم احد افراد اسرته ، ونص الصلح على ما يأتي: انسحاب البويهيين من الموصل يدفع ناصر الدولة للبويهيين سنويا مبلغ ٨٠٠٠٠٠٠ درهم ، أن تقام الخطبة للبويهيين في الموصل وبقية املاك الحمدانيين أن يقدم ناصر الدولة ولديه رهائن عند البويهيين وهما الفضل والحسين ، وكاد ناصر الدولة في احد المرات أن يحرر العراق من البويهيين أثناء تمرد روزبهان بن ونداد يساعده في ذلك اخويه بيلكا شيراز واسفار في الاحواز حيث تأكد ناصر الدولة ان الدائرة ستكون على معز الدولة البويهي وذلك للاسباب التالية :استياء الجند الديلمي من سياسة معز الدولة ، وانحيازهم الى ،روزبهان وسوء أوضاعهم المالية بسبب عدم صرف رواتبهم ، يأس جيش معز الدولة من الانتصار على روزبهان ، لكن سرعة القضاء على حركة روزبهان ، فضلا عن اجراءات معز الدولة للتصدي للحمدانيين ، افشلت خطة ناصر الدولة لتحرير العراق وطرد البويهيين منه .

وتكررت محاولات البويهيين للسيطرة على الدولة الحمدانية في سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م و٣٥٣هـ/ ٩٦٤م تم عقد اتفاق آخر بين ابي تغلب بن ناصر الدولة وبين معز الدولة البويهي وهو اتفاق لا يختلف عن الاتفاقات السابقة سوى لنا اقر بولاية ابي تغلب بن ناصر الدولة على الموصل وحلب وانتهاء ولاية ناصر الدولة فعليا ، وقد توفي معز الدولة البويهي في سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م ، بعد أن عهد لإبنه عز الدولة بختيار بالامر من بعده كانت العلاقة ودية بين عز الدولة بختيار وبين ابي تغلب الحمداني حيث كان من ضمن بنود الاتفاق الموقع بين الطرفين هو زواج ابي تغلب من ابنة عز الدولة بختيار على صداق قدره مائة الف دينار، مع ضمان الاراضي الواقعة تحت سيطرته بمبلغ من المال متفق عليه ، لكن تجدد الازمة المالية المستعصية في بغداد المتمثلة بعدم القدرة على دفع رواتب الجند والموظفين ، أجبر عز الدولة بختيار على نقض الاتفاق ، ولو أن البويهيين كانوا قادرين على اختلاق الأعذار للهجوم على الحمدانيين ، فقاد عز الدولة بختيار جيشا توجه به صوب الموصل في سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م فغادرها ابو تغلب الى منطقة الجزيرة ، ليلتف من ورائه ويصل الى بغداد حيث سيطر عليها، وعندما علم عز الدولة بختيار بهذا التطور ارسل على جناح السرعة وزيره ابن بقية مع قسم كبير من

الجيش البويهي لمنع الحمدانيين من السيطرة على بغداد ، كما ارسل جيشا آخر بقيادة القائد سبيكتكين لمجابهة ابي تغلب ومنعه من تنفيذ هدفه ، ويبدو أن القائد سبكتكين لم يكن ينوي الحرب، وربما كان لبعد عز الدولة عنه، ولكون قسم كبير من الجيش معه، أو كان ينوي القيام القلاب ضد عز الدولة بختيار ، وقد دخل سبكتكين في مفاوضات سرية. ابي تغلب ، نصت على قيام سبكتكين بالقاء القبض على الخليفة العباسي والوزير البويهي واسرة عز الدولة بختيار ، ثم يعلن سبكتكين ثورته ضد عز الدولة بختيار، ويتكفل ابو تغلب بمحاربة عز الدولة بختيار الذي كان معسكرا في اطراف الموصل لكن سبكتكين لم ينفذ الاتفاق والخطة المتفق عليها بل اطاع اوامر الوزير البويهي في بغداد بالعودة لنجدة عز الدولة بختيار الذي كان على وشك السقوط امام البويهين، لكن سبكتكين لم يصل في الوقت المناسب بل جاء وصوله متأخراً، مما أجبر عز الدولة على قبول شروط الصلح الذي فرض عليه الحمدانيون .

وعلى الرغم من قيام عز الدولة باحتلال الموصل بعد وصول نجده سيككن ، الا ان المعاهده تعد نصرا للحمدانيين ، كما اطلق الخليفة لقب ((عدة الدولة)) على الأمير في تغلب الحمداني، الانجازاته في مقارعة البيزنطيين، وفي سنة ٣٦٣هـ /٩٧٣-٩٧٤م أعلن سبكتكين ثورته ضد عز الدولة بختيار واستجد بالحمدانيين، فاتجده أبو تغلب بجيش يقود اخوه ابو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة، وأمره بالتوقف في مدينة تكريت حتى ينجلي الموقف العسكري بين الاتراك بقيادة سبكتكين وبين الديلم بقيادة عز الدولة بختيار ثم دخل ابو تغلب الحمداني بغداد ، فلما حسمت الحرب لصالح البويهين رجع ابو تغلب الى الموصل ، واكتفى بقطع الطعام والعلف عن مدينة بغداد. وفي سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م دخل عضد الدولة بغداد بوصف انه احق من ابن اخيه بالعرش البويهي فغادرها عز الدولة بختيار واستنجد بصهره أبي تقلب الحمداني، وقد اتفقا على محاربة عضد الدولة في بغداد وضرورة الخراجه منها ، وجرت معركة قرب قصر الجص في سامراء ، كان النصر فيها لعضد الدولة ومقتل عز الدولة بختيار وبعد مقتل عز الدولة بختيار غادر أبو تغلب سامراء متوجها إلى الموصل ، وقام باخلاء المدينة من الميرة والعلف ، لكن عضد الدولة احتاط للامر واخذ كل ما يحتاج اليه ، فضلا عن الادلاء ، فوصل عضد الدولة الموصل ودخلها ، وارسل السرايا لتعقب ابي تغلب الحمداني من مكان إلى آخر ، جرث معارك استطاع أبو تغلب من ايقاع الهزائم بسرايا البوبهيين ، لكنه لم يستطع الاستمرار بسبب الخيانة فتوجه إلى الرملة في فلسطين حيث قتل فيها سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م واخذت اخته جميلة سبيه الى عضد الدولة الذي عرض عليها الزواج منه ، فرفضت هذا الطلب ، وختمت حياتها بالانتحار بعد ان اذلها عضد الدولة البويهي ، وبعد مقتل ابي تغلب وانتحار اخته جميلة ، لم يبق من ابناء ناصر الدولة من يستطيع الوقوف بوجه البويهيين ، حيث جرت محاولة جادة من قبل احد ابناء ناصر الدولة الحمداني وهو ابو طاهر ابراهيم وابو عبد الله الحسين سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م وتخليص المدينة من السيطرة البويهية .

ب المقاومة العربية للتسلط البويهي في البطائح :

قبل التحدث عن المقاومة العربية للتسلط البويهي في البطائح ، لابد من اعطاء تعريف للمنطقة ولماذا اطلق عليها بالبطائح ، تعرف المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات بالبطائح ، والبطائح جمع بطيحة وهي الأرض المنخفضة التي يقف فيها الماء وقد حدثت هذه البطائح منذ وقت ليس بالقليل . منذ أواخر ايام الدولة الساسانية عندما انشغل ملوكها بمشاكلهم السياسيه والدينيه، فاهملت السدود والجداول والقنوات ، اعقبها فترة الفتح الاسلامي حيث لم تكن الدولة الاسلامية متفرغة لمثل هذه الاعمال الزراعية ، وجرت محاولات حثيثة لتجفيف المستنقعات واستصلاح الاراضي في اواخر العهد الأموي ، لكنها لم تكن كافية، لاعادة الاراضي الى سابق عهدها، وظل الحال هكذا ، حتى قامت ثورة الزنج في العصر العباسي ، وبينت للقادة العسكريين صعوبة السيطرة. على مثل هذه المناطق ، نظرا لوعورة الارض وكثرة الجداول والقنوات فيها فضلا عن كثافة الاشجار والادغال وانتشار القصب والبردي ، مما يعيق الحركات العسكرية النظامية فيها ، فكيف اذا حدث تمرد في هذه المنطقة ونصبت الكمائن للقوات النظامية .

بعد الاحتلال البويهي للعراق كانت تسكن منطقة البطيحة قبائل سليم، وقد ظهر في هذه الفترة احد القادة العرب وهو عمران بن شاهين، الذي استطاع أن يوحد القبائل الموجودة مع قبيلة سليم وان يكون منها قوة عسكرية لايستهان بها، ومستفيدا من جغرافية المنطقة المعقدة وتعيق تحرك الجيش الداخل اليها ، وكان عليه أن يؤمن حدوده الجنوبية حيث يوجد البريديون، ففاوض ابو القاسم البريدي حاكم البصرة فاعترف به البريدي حاكما مستقلا على الصليق والجامدة وبقية نواحي البطائح، ولما اطمأن عمران ابن شاهين على قوة موقفه قطع الخطبة عن البويهيين ومنع ارسال الاموال اليهم سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م، ولما علم معز الدولة البويهي بثورة عمران بن شاهين، جهز حملة عسكرية اسند قيادتها إلى وزيره أبي جعفر الصيمري ، ودارت رحى الحرب بين الجانبين ، وعلى الرغم من رجحان كفة الجيش البويهي ، الا ان عمران بن شاهين استمر في موقفه الصامد .

وقد حدث ما يقوي موقف عمران وهو حدوث خلل في منطقة شيراز ، فطلب معز الدولة البويهي من وزيره الصيمري وقف الحرب والتوجه إلى شيراز الإصلاح الأوضاع فيها . وقد افادت هذه المتغيرات عمران بن شاهين في تعزيز موقفه من جديد واعادة تنظيم قواته العسكرية.ان تكرر محاولات السيطرة البويهية على منطقة البطائح كلما سنح لها الفرصة وخدمتها الظروف في السنوات ٣٣٩هـ/٩٥٠م و٣٤٤هـ ٩٥٥م و ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م و ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م و ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م و ٣٦٠هـ/٩٧٠م ، وقد فشلت كل هذه الحملات الابل عززت كل حملة من قوة عمران بن شاهين وامارته ضد الوجود البويهي، حتى لقد اعترف به الحكام البويهيون حاكما مستقلا وطلبوا مصاهرته ابان الصراع الاسري البويهي لكنه رفض كل هذه العروض ، وقد اثرت وفاة عمران بن شاهين على قوة الامارة سنة ٣٦٩هـ – ٩٧٨م، حيث ادت الصراعات الاسرية دورها في اضعاف امارة البطائح ، على الرغم من تولي المظفر الحاجب لولاية البطائح سنة ٣٧٦هـ / ٩٨٦م، وبعد وفاته تولى ابن اخته ابو الحسن علي بن نصر امر البطائح ، فقام بالاعتراف بالبويهيين وتلقب بـ مهذب الدولة .

لكن الأمور لم تستقر لمهذب الدولة اذ اعلن احد قادة الثورة عليه وهو ابو العباس ابن واصل ، وربما اعلن هذا ثورته ضد سيده بسبب مهادنته للبويهيين ، فسيطر على البطائح واخرج مهذب الدولة منها، ومما

يؤكد ما ذهبنا اليه هو قيام بهاء الدولة البويهي بحملة عسكرية على مرة البطائح لإعادة مهذب الدولة الى حكم البطائح، لكن ابن واصل الحق هزيمة منكرة بهذا الجيش البويهي، ثم جهز البويهيون حملة عسكرية اخرى أشرف على تجهيزها وتدريبها عميد الجيوش البويهي ، وقد اعادت هذه الحملة مهذب الدولة الى حكم البطائح مرة اخرى ، بعد أن فشلت الحملة العسكرية السابقة ، وجرت معارك عديدة انتهت بمقتل ابن اصل سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م وبعد وفاة مهذب الدولة سنه ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م ، لم يستقر امر البطائح وذلك للخلافات الاسرية التي لم دع المنطقة تستقر.

لكن أمر البطائح لم يستقر ففي سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م توجهت حملة عسكرية إلى البطائح بقيادة الوزير أبي محمد ابن نابهشاد ، فسيطر على البطائح وابتز أموال الناس وظلمهم وفرض الضرائب على الدور والزمهم بادائها. ضجر الناس من سلوك البويهيين معهم فقسم قرر الهجرة وترك البطائح وقسم قرر المقاومة ، وكان هنالك قائد طموح يسمى بالشرابي ، فحاول هذا خداع الوزير البويهي، وزين له ارسال الرجال والجيش الى مناطق مختلفة من البطائح لجمع الاموال ، ثم انقض هو وسكان البطائح على الوزير البويهي وقتلوه ، ثم كسروا السدود وقطعوا الطرق وظل الأمر هكذا الى سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤١م الى ان جاء ابن العبراني واحتل البطائح سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م ، فلجأ الشرابي الى دبيس بن مزيد الاسدي .

موقف بني مزيد من التسلط البويهي :

يرجع نسب بني مزيد الى بني اسد بن خزيمة من العرب العدنانية، وكانت أول علاقة لهم مع البويهيين ، هي طلب وزير معز الدولة ابي محمد المهلبي منهم حماية منطقة سورا وسوادها قبل سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م ولا نعرف بالضبط حقيقة موقفهم من الغزو البويهي للعراق فتارة كانوا مع البويهيين وتارة ضدهم، ويمكن أن يفسر هذا التذبذب بقو او ضعف البويهيين ، بل استغلوا الخلافات البويهية لصالحهم وايدو طرفا ضد آخر تحقيقا لرغباتهم، مثلما حصل اثناء الخلاف بين بها الدولة وصمصام الدولة ، وقد اعلن بنو مزيد استقلالهم عن البويهيين وسيطروا على المناطق التابعة لمدينة واسط في سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م فتوجهت اليهم قوة عسكرية بويهية استقرت في مدينة واسط، لتترقب الاوضاع وتطورها ، لكي تحسم الأمور في المنطقة ، اما بنو مزيد تحصنوا في أجامهم، ثم جرى الصلح بين الطرفين ، بعد ان البويهيون من صعوبة هذه المنطقة وصعوبة سير الجند البويهي فيها نظرا لوعورتها، وانتشار الغابات والادغال فيها ووجود الجداول والقنوات . وصعوبة ارسال الامدادات العسكرية والغذائية الى الجيش فيها، وقد اقر بهاء الدولة الصلح الذي تم عقده بين الطرفين .

تعرض العقيليون في سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م إلى هجوم بويهي ازاحهم عن منطقة المدائن التي كانت خاضعة لهم ، وقد أراد البويهيون ان لا يحدث أي تقارب بين بني مزيد وبين بني عقيل خوفا من توحد القوتين معا ضد الوجود البويهي في العراق ، ولكن بني مزيد وقفوا الى جانب العقيليين ، على الرغم من وجود بعض الخلافات بينهما الا وهو التنافس على حكم بعض المناطق ، إلا أن بني مزيد وحدوا قواتهم مع العقيليين وهاجموا القوات البويهية، وانزلوا بها خسائر فادحة وتم أسر عدد من الجند البويهي الا أن قائد الجيش البويهي ابا جعفر الحجاج تمكن من اعادة تنظيم قواته وهاجم القوات الربية المشتركة في نواحي الكوفة وانزل بها خسائر فادحة واستباح المناطق الخاضعة لبني مزيد .

وفي سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م اقر البويهيون بسيادة بني مزيد على المناطق التي يسيطرون عليها، لقاء مبلغ سنوي يؤدى إلى البويهيين في بغداد ومقداره اربعين الف دينار، وهذه محاولة من البويهيين لربط بني مزيد بهم خوفا من حدوث أي تقارب بينهم وبين آية قوة عربية في المستقبل، مثلما حدث مع بني عقيل، كما حاولت السلطة البويهية زرع الفتنة والشك بين بني مزيد وبين بني عقيل لمنع أي تقارب مستقبلي بين الطرفين، الا ان هذه الجهود ذهبت ادراج الرياح، ووقف بني مزيد مع القائد بدر بن حسنويه الكردي سنة ٣٩٣هـ/ ١١٠٢م وسارت قواتهما وضربت حصارا على بغداد استمر شهرا كاملا ، في وقت كان الجيش البويهي مشغولا بقتال ابن واصل في منطقة البطيحة ، وكاد الطرفان يحرران العراق من الوجود البويهي، لولا الانتصار الذي حصل عليه الجيش البويهي في منطقة البطائح فآثرا الانسحاب عن بغداد. ولم يصطدم البويهيون مباشرة مع بني مزيد بل سعوا الى اقامة علاقات ودية ظاهرية معهم ، وعملوا سرا في اضعافهم بطرق عديدة منها تعميق الصراع الاسري بين افراد الاسرة واثارة مشكلات لهم مع بني دبيس الذين كانوا في نواحي الاحواز، حيث وقعت معارك بين الطرفين سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م و ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤م. وفي سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م توفي الأمير علي بن مزيد وتولى ابنه دبيس ، وقد أقره الحكم البويهي في بغداد على حكم المناطق التابعة له، ولم نعد نسمع بعد هذا التاريخ أي نشاط ملحوظ لبني مزيد بسبب الانشقاق الاسري ، كما نجح البويهيون مرة أخرى في احداث خلاف بين العقيليين وببين بني مزيد سنة ٤١١هـ /١٠٢٠م وسنة ٤١٧هـ /١٠٢٦م، كما ان الامير المزيدي حاول ايضا تأجيج الصراع الاسري بين البويهيين مرة اخرى.

موقف بني عقيل من التسلط البويهي:

ادى ضعف الامارة الحمدانية في الموصل الى ظهور قوى جديدة في المنطقة كان من ابرزها قيام العقيليين بتأسيس دولة لهم في منطقة ولاية الموصل، وبخاصة بعد سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م ، أسس هذه الامارة محمد بن المسيب الملقب بابي الذواد ، وقد اعترف به الحاكم البويهي اميرا على الموصل، وارسل نائبا عنه ليشرف على أوضاع الموصل ، الا ان ابا الذواد، اهمل هذا النائب ولم يقم له أي اعتبار مما أثار حفيظة البويهيين فارسلوا جيشا استطاع ان يدخل الموصل بعد أن انحر أكثر من مرة على يد العقيليين الذين ابدوا من ضروب الشجاعة ما اذهل البويهيين .

وبعد وفاة أبي الذواد تولى أخوه المقلد بن المسيب الامر من بعده واعد العدة لتحرير الموصل من يد البويهيين فدخلها سنة ٣٨٦هـ /٩٩٦م، ووسع نفوذ الامارة العقيلية وأصبح له نائبا في بغداد ، وسيطر العقيليون على مناطق واسعة من العراق مثل المدائن وداقوق والكوفة و الجامعين وقصر شيرين وقد تهيأ المقلد لطرد البويهيين من العراق ،واعد العدة لذلك، لكنه اغتيل من قبل أحد غلمانه من الأتراك سنة ٣٩١هـ / ١٠٠٠م ، وتولى أمر العقيليين بعد وفاته ابنه الامير قرواش بن المقلد الذي حاول ان يوحد جهوده مع بني مزيد كما رأينا ذلك، لطرد البويهيين من العراق سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠١م، لكنه لم ينجح في هذه المهمة التي سبقه بها ابوه . وتكررت هذه المحاولة ايضا سنة ٤٣٢هـ /١٠٤٠م وسنة ٤٤١هـ ١٠٤٩م، وجرت معارك بين الطرفين الأولى في الانبار والثانية مع البساسيري ، إذ استولى العقيليون على أموال تابعة للبويهيين .

العلاقات الخارجية مع الدول المجاورة والاجنبية:

عند الحديث عن اسباب زوال النفوذ البوبهي ، إن أحد أهم زوال نفوذهم هو السياسة الاقليمية التي ساروا عليها ، فقد كانت أهم مشكلة تتعرض لها البلاد الاسلامية هي كثرة تجاوزات الدولة البيزنطية، ولو رجعنا قليلا الى الوراء لوجدنا أن معظم الخلفاء العباسيين قد شاركوا في الصلات الإيقاف الدولة البيزنطية وتجاوزاتها على أراضي الدولة الاسلامية ، إذ شكل الجهاد محور العلاقة بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية ، وما اشتهار كل من الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون والمعتصم بالله، الا من خلال تلك العلاقة الحربية بين الطرفين ،وقد وصلت التجاوزات البيزنطية حدا لا يطاق تجاء الدولة الاسلامية ، ولم يحرك البويهيون أي ساكن لصد تلك الغارات ، وهم المسؤولون عن حماية المسلمين أمام الله سبحانه وتعالى وامام الخليفة العباسي الذي سلبوه كل شيء ولن يقوموا باية حملة عسكرية لوقف التحدي البيزنطي للمسلمين ،وقامت بهذا الدور الامارة الحمدانية مع ضعف امكاناتها الاقتصادية والبشرية ، وبدلا من أن يدعم البويهيون هذه الدولة ويقدموا لها الاستاد والدعم، نجد أن اغلب الأمراء البويهيون يعدون لها الحملات العسكرية المستمر، حتى سقطوها، لا لشيء ، الا لأنها قامت بدور مشرف في الجهاد ضد البيزنطيين؛ فعلى سبيل المثال فقد تم الفداء في سنه ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م بين الحمدانيين والبيزنطيين، حيث فودي الفين وأربعمائة وثمانون أسيرا ،وبقي عند الروم مائتان وثلاثون أسيرا ففداهم سيف الدولة ، كما هاجم البيزنطيين في سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م، مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم واخربوا المساجد وتكرر هذا العمل في السنوات اللاحقة، فكلما شعر البيزنطيون بضعف الجبهة الإسلامية كلما اغاروا عليهم وكلما تفرغ الحمدانيون للبيزنطيين ردوا عليهم ، وفي سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م بلغت تجاوزات الروم حدا لايطاق، فوصل الروم الى طرابلس وحمص .

أما عن علاقة البويهيين بالدولة الفاطمية في مصر فلم تكرن حسنة بالرغم من انتماء كلا الطرفين للفكر العلوي (البويهيون زيدية والفاطميون اسماعيلية)، وكان المفروض بالدولتان تنسيق جهودهما لخدمة العالم الاسلامي ، لا التنافس على مناطق النفوذ ، وهذا ما حصل فعلا ، إذ تنافست كلتا الدولتين للسيطرة على بلاد الشام والحرمين الشريفين ، كما لم يؤمن البويهيون طريق الحج وهو أهم طريق في نظر المسلمين .

أما عن علاقة البويهيين مع الدولة السامانية فلم تكن جيدة ،وجرت حروب ومعارك بين الطرفين، حيث أشغلت هذه الحروب الدولة السامانية عن أعمال الجهاد في بلاد الترك وفي بلاد الهند ، ورفعت من مكانة الدولة السامانية والدولة الغزنوية بعد ذلك في نظر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.وكانت في بعض الاحيان يتم عقد اتفاقات لتنظيم الامور بين الدولة السامانية والدولة البويهية فعلى سبيل المثال عقد في سنة ٣٦١هـ / ٩٧١م اتفاق بين الدولة السامانية والبويهيين باعتبارهم المسيطرين على مركز الخلافة العباسية في بغداد ، جاء فيه : ان يحمل ركن الدولة وعضد الدولة الى الامير منصور بن نوح الساماني في كل سنة مائة وخمسون الف دينار مع زواج نوح بابنة عضد الدولة، وحمل اليه من الهدايا والتحف ما لم يحمل مثله ، وكتب بينهم كتاب صلح وشهد فيه اعيان خراسان وفارس والعراق .

أما عن علاقة البويهيين مع الدول في منطقة الخليج العربي واليمن ،فقد كانت بلاد عمان تتمتع بشبه استقلال عن الدولة العباسية في المدة البويهية، فكلما تفرغ البويهيون لهم ارسلوا جيشا الى بلاد عمان والخليج

فسيطروا على المنطقة، واعلنت هذه المناطق طاعتها لهم وخطبوا للبويهيين بها الى جانب الخليفة العباسي واذا بأن ضعف البويهيين وتغلب القرامطه عليها.وظلت الامور بهذا الشكل، حتى زوال النفوذ البويهي.

أما عن العلاقة مع بلاد الحجاز واليمن فكانت متذبذبة أيضا فمرة يخطب للخليفة العباسي ومرة يخطب للخليفة الفاطمي، وهذا ناتج عن التنافس على السيادة بين الخلافتين العباسية والفاطمية، فكلما قوي نفوذ أحدها خطب له ،والعكس صحيح، فعلى سبيل المثال ففي سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩م خطب بمكة المكرمة للمطيع الله، والقرامطة الهجريين، وخطب بالمدينة المنورة للمعز لدين الله الفاطمي، وخطب ابو أحمد الموسوي، والد الشريف الرضي، خارج المدينة المنورة للمطيع الله العباسي، فانظر عزيزي الطالب الى ما آلت اليه الأمور في تلك المدة.

أما علاقة اليمن بالخلافة العباسية والبويهيين فكانت متأرجحة تبعا لقوة الخليفة العباسي والامير البويهي، وقوة الدولة الفاطمية التي كان يهمها أمر اليمن بشكل كبير وذلك لمرور التجارة الهندية والصينية عبر مواني‌ء اليمن، كما كانت تصل الخليفة العباسي والامير البويهي بعض الهدايا من ولاة اليمن .

ضعف النفوذ البويهي وانحلاله :

أدت عوامل عديدة في التعجيل بزوال النفوذ البويهي ، فكار ابرزها هو مقاومة الناس في العراق لهذا الوجود الاجنبي ، تمثل في مقاومة الخلافة العباسية ممثلة بشخص الخليفة نفسه ، حيث ذهب عدد من الخلفاء ضحية هذه المقاومة ، فضلا عن مقاومة القبائل العربية في الموصل والحلة والبطائح و بغداد والانبار، كما ساعدت عوامل اخرى داخلية وخارجية في التعجيل بزوال النفوذ البويهي ومنها :

١- العوامل الداخلية :

١- الصراع الاسري : لقد كانت الاسرة البويهية بضمنها امراء موزعين على الاقاليم العباسية ، عاملا مهما من عوامل الهدم داخل الدولة البويهية وانهيارها، فقد تكونت تكتلات ومراكز قوى حول هؤلاء الأمراء في بغداد وشيراز والري وغيرها من المناطق الأخرى، ولم يظهر هذا العامل بوضوح في الجيل الأول من البويهيين ، ولا في عهد عضد الدولة البويهي ، ذلك الحاكم القوى الذي استطاع ان يوحد الدولة وان يجعل بغداد مقرا له، وذلك اجتمع في بغداد الحاكم البويهي والخليفة عدة العباسي. لكن وفاة عضد الدولة ، كانت منعطفا كبيرا نحو التدهور والضعف في مسيرة البويهيين ، حيث اشتعلت الحروب بين الامراء من الجيل الثالث والرابع ، وفي آخر المطاف شهد آخر الامراء البويهيون ابو نصر الملك الرحيم (٤٤٧-٤٤٠هـ/ ١٠٤٨-١٠٥٥م) منازعات مسلحة بين اخوته السبعة حول السيطرة على مدن العراق وفارس ، مما اتاح الفرصة للخليفة القائم بأمر الله الى السكوت أو الرضى عن دخول طغرل بك الى بغداد، وانقاذها من الفوضى السياسية والادارية.

ان مبدأ تضامن الاسرة البويهية وولائها للامير الأكبر الذي كان موجودا في الجيل الأول والثاني، والمتمثل بانحصار الادارة بيد الاسرة البويهية على أنها موروثة لهم. ان هذا المبدأ قد خف وبدأ بالزوال ، ولذلك نلاحظ بان اولاد بختيار البؤيهي حين قتلوا صمصام الدولة بن عضد الدولة في شيراز ذكروه ((بأن هذه سنة سنها أبوك من قبل)) بوصف أن عضد الدولة قتل بختيار ، وعلى هذا يمكن اعتبار تفكك الأسرة البويهية عاملا من عوامل الانهيار .

٢- الجيش: يعد الجيش البويهي المؤلف من عنصرين اساسيين هما الديالمة والاتراك ، عاملا من عوامل اعتلاء البويهيين للسلطة ، وفي الوقت نفسه عاملا من عوامل سقوطهم وانهيارهم في مرحلة الضعف، فقد اتبع معظم الأمراء البويهيين في بغداد سياسة استغلالية وانتهازية مع الجيش وفقا لمصالحهم، فضلا عن عدم قيامهم باحداث التوازن والمساوات في المعاملة بين افراد الجيش، فكانوا يفضلون فئة على اخرى ، مما ولد تذمرا كبيرا لدى الجيش الذي هو عماد قوتهم، مما ادى الى خلق تمردات كثيرة في صفوفه بسبب تفضيل الأمراء البويهيين الديلم على الترك او العكس.

لقد بات الجيش في اوآخر العهد البويهي غير منظم وغير منضبط ، تحركه الطمع في الاموال والمصلحة الذاتية للقادة ، وتجاه هذه الحالة اضطر الأمراء البويهيون المتأخرين الى اتباع أية وسيلة لإرضاء الجيش من اجل كسب ولائه، حيث منحت لهم اقطاعات عسكرية ، زادت في تفاقم الوضع المالي والاقتصادي السيء في البلاد. وقد سعى الامراء البويهيون في بداية الامر الى النظر في مصالح الجند واحتياجاتهم، وبخاصة ما يتعلق بدفع الرواتب الى مستحقيها في أوقاتها المحددة ، وربما قبل حلول موعد استلام" الراتب بيوم او يومين وربما ثلاثة ايام ، وقد عنف عضد الدولة البويهي ناظر الخزانة ، لأنه دفع رواتب الجند في اليوم الاول من الشهر التالي فقال له: ((المصيبة بما لا تعلم مافي فعلك من الغلط اكثر منها فيما استعملته من التفريط ، الا تعلم انا اذا اطلقنا لهؤلاء الغلمان مالهم ، وقد بقي في الشهر يوم ، كان الفضل لنا عليهم ، واذ انقضى الشهر واستهل الآخر ، حضروا عند عارضهم فأذكروه فيعدهم . ثم يحضرونه في اليوم الثاني فيعتذر اليهم ، ثم في الثالث فتبسط في اقتضائه ومطالبته السنتهم، فتضيع، المنة وتحصل الجرأة، وتكون الى الخسارة اقرب منا الى الربح)).

٣-السياسة المذهبية: اتبع معظم الأمراء البويهيين، سياسة طائفية الدوافع سياسية معروفة (فرق تسد) فقد ساندوا طائفة ضد أخرى ، فوقعت فتن واضطرابات وحرائق سببت اضرارا مادية جسيمة دفع ثمنها العراقيون كافة ودون استثناء، كما أحيوا العديد من المراسيم التي سببت التصادم بين ابناء الشعب الواحد، كما لم يتورع البويهيون من الاستنجاد بالفاطميين في أواخر عهدهم لإنقاذهم من وضعهم السياسي المتردي، ولكن المفاوضات لم تؤدي الى اية نتيجة تذكر ، حيث خذلهم الفاطميون ولم يعيروا لهم أي اهتمام .

٤ سوء الأوضاع المالية والاقتصادية: لقد تدهور الاقتصاد في الدولة العباسية بسبب تدهور الحالة السياسية والادارية في القرنين الثاني والثالث للهجرة، وقد اتجهت الدولة العباسية في بغداد الى نوعين من الاجراءات ، هما المصادرات والضمانات، واصبحت هذه عادة متبعة في العصر البويهي أيضا ، فكان كل وزير بويهي يعزل تصادر أمواله المنقولة وغير المنقولة ، ولهذا سعى وزراء هذا العصر الى جباية اموال كثيرة.

وخزنها في مناطق متعددة حفاظا على مستقبلهم ، مما زاد في عنت السلطة البويهية، فسعت الى تعذيب الوزراء بعد عزلهم ، وكذلك الكتاب ورؤساء الدواوين ، للاقرار بما عندهم من اموال، وشملت هذه الاجراءات وزراء معروفين مثل ابن العميد .ولم تقتصر هذه المصادرات على المسؤولين فقط بل تعدتهم إلى عامة الناس .

٥-أما سياسة التضمينات ،فكان سببها عجز الخزينة عن دفع رواتب الجند والموظفين بالدرجة الأولى ، فسعت السلطة البويهية الى تضمين كبار القادة العسكريين اقاليم ومدن معينة مقابل مبلغا من المال يدفع سنويا للخزينة المركزية، وعندما عجزت السلطة البويهية عن دفع مرتبات الجند منحتهم خراج مناطق او مدن معينة ،

يتقاضاها القائد لقاء مرتبه ومرتبات الجند الذين يقودهم . لكن هذه السياسة لم تعالج العجز المالي، الا بصورة مؤقتة، حيث بدأت الادارة تدور في حلقة مفرغة، فكلما زاد العجز المالي، منحت الدولة اقطاعات جديدة للجند والقادة، ومما زاد الطين بلة ، أن هؤلاء القادة العسكريين لم يعنوا باستصلاح الأراضي الزراعية او اروائها، أو الاعتناء بزراعتها، بل كان همهم الوحيد هو جباية الضريبة السنوية من سكانها وفلاحيها، ولذلك ساءت حالة الأراضي وتردت زراعتها بمرور الزمن ، ولم تعد تدرنفس الحاصل الذي كانت تدره قبل تطبيق هذه السياسة ، ثم ان هؤلاء القادة العسكريين أو الولاة المتنفذين لم يكونوا ليذهبوا الى الاقاليم التي عينتها الدولة لهم ، بل كانوا يرسلون مندوبين عنهم لجباية الخراج من هذه الأقاليم فضلا عن الآفات الزراعية التي كانت تجتاح الأراضي الزراعية مثل اسراب الجراد ، والامراض التي كان يتعذر على الناس معالجتها ، وكذلك الزلازل .

٦- السياسة الاقليمية المتقوقعة: انتهج البويهيون سياسة اقليمية ضيقة كانت سببا لعزلتهم عن بقية ارجاء العالم الاسلامي وعن الخلافة العباسية ،فلقد بقيت الدولة البويهية دولة اقليمية شملت الري والجبال وفارس والاحواز والعراق ، كما لم يهتموا بفكرة الجهاد التي كانت تشد المسلمين إلى السلطة في ذلك الوقت ، ففي الوقت الذي كان الحمدانيون يتحملون اعباء المجابهة ضد البيزنطيين ، وكان السامانيون والغزنويون يتحملون أعباء الجهاد في بلاد الترك والهند ، عزل البويهيين انفسهم فنبذهم العالم الاسلامي، او ان تلك السياسة دفعت الرأي العام الاسلامي الى كره البويهيين وحدا بالمؤرخين الى ذمهم .

ولم يكتف البويهيون بذلك بل حاولوا اخضاع الحمدانيين لسيطرتهم المباشرة ، بدلا من أن يقدموا لهم المساعدة ، لأنهم يحاربون دولة قد تمتد سيطرتها وتهددهم في عقر دارهم، بل شغلوا الامارة الحمدانية صراعات معهم ، اشغلتهم عن دورهم الاساسي في مجابهة الدولة البيزنطية، التي اخذت تحتل اجزاء واسعة من منطقة الجزيرة الفراتية .

ب- العوامل الخارجية: يعد قيام الامارة الغزنوية من اهم العوامل التي ادت الى سقوط البويهيين ، فقد أسست هذه الامارة في مدينة غزنة سنة ٣٥١-٥٤٣هـ/٩٦٢-١١٤٨م، سواء بما قامت به هذه الامارة من فتوحات عززت مكانة الخليفة العباسي ، ام بالتنافس معها على بعض مناطق النفوذ ، فقد تدخلت هذه الامارة في الصراع الدائر في خراسان فكان نتيجتها هزيمة منكرة لقيتها القوات البويهية من قبل سبكتكين مؤسس الامارة الغزنوية ، وبعد وفاة سبكتكين تولى ابنه محمود الغزنوي الحكم من بعده فوسع نفوذه في خراسان مما ولد احتكاكا مع الدولة البويهية ، حيث سيطر على سجستان وكرمان وبلاد الجبل ، وفي الوقت نفسه ، كانت الدولة السلجوقية في طور الظهور ، وبدأت تجد لها موطأ قدم في خراسان ، ومن ثم لتقضي على الوجود البويهي في خراسان والعراق .

جدول بخلفاء العصر البويهي :

١- ابو القاسم عبد الله المستكفي بالله ٣٣٣-٣٣٤هـ / ٩٤٤-٩٤٦م

٢- ابو القاسم الفضل المطيع لله

٣٦٣-٣٤٣هـ/٩٤٦-٩٧٤م

٣-ابو بكر عبد الكريم الطائع لله

٣٨١-٣٦٣هـ/٩٧٤-٩٩١م

-٤- ابو العباس احمد القادر بالله

٤٢٢-٣٨١هـ/٩٩١-١٠٣١م

٥-ابوجعفر عبد الله القائم بامر

٤٦٧-٤٢٢هـ/١٠٣١-١٠٧٥م

١ اسماء امراء آل بويه في فارس:

١- عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه

٣٣٨-٣٢٠هـ/٩٣٢-٩٤٦م

٢- عضد الدولة ابو شجاع خسرو

٣٧٢-٣٣٨هـ/٩٤٦-٩٨٢م

٣- شرف الدولة أبو الفوارس شيرزاد

٣٧٩-٣٧٢هـ/٩٨٢-٩٨٩م

٤-صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان

٣٨٨-٣٧٩هـ/٩٨٩-٩٩٨م

٥-تهاء الدولة أبو نصر

٤٠٣-٣٨٨هـ/٩٩٨-١٠١٢م

٦- سلطان الدولة ابو شجاع

٤١٥-٤٠٣هـ/١٠١٢-١٠٢١م

٧-عضد الدوله ابو كاليجار المرزبان

٤٤٠-٤١٥هـ/١٠٢٤-١٠٤٨م

٨-الملك الرحيم ابو نصر خسرو فيروز

٤٤٠-٤٤٧هـ/١٠٤٨-١٠٥٥م

ب في العراق والاحواز وكرمان:

ا - معز الدولة ابو الحسين احمد

٣٥٦-٣٢٠هـ/٩٣٢-٩٦٧م

٢- عز الدولة بختيار

٣٦٧-٣٦٥هـ/٩٦٧-٩٧٧م

٣- عضد الدولة ابو شجاع خسرو

٣٧٢-٣٦٧هـ/٩٧٧-٩٨٢م

٤- شرف الدولة ابو الفوارس شيرزاد

٣٧٩-٣٧٢هـ/٩٨٢-٩٨٩م

٥-بهاء الدولة أبو نصر
٣٧٩-٤٠٣هـ/٩٨٩-١٠١٢م
٦ - سلطان الدولة ابو شجاع
٤٠٣-٤١٢هـ/١٠١٢-١٠٢١م
٧- مشرف الدولة ابو علي
٤١٢-٤١٦هـ/١٠٢١-١٠٢٥م
٨ ابو طاهر جلال الدولة
٤١٦-٤٣٥هـ/١٠٢٥-١٠٤٣م
-٩- ابو كاليجار مرزبان
٤٣٥-٤٤٠هـ/١٠٤٣-١٠٤٨م
١٠ - الملك الرحيم ابو نصر خسرو فيروز
٤٤٠-٤٤٧هـ/١٠٤٨-١٠٥٥م
في الري واصفهان وهمذان
١-ركن الدوله ابو علي حسن
٣٢٠-٣٦٦هـ/٩٣٢-٩٧٦م
٢-مؤيد الدوله ابو منصور
٣٦٦-٣٧٣هـ/٩٧٦-٩٨٣م
٣-فخر الدوله ابو الحسن علي
٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٨٣-٩٩٧م
٤-شمس الدوله ابو طاهر (في همذان فقط)
٣٨٧-٤١٢هـ/٩٩٧-١٠٢١م
٥-مجد الدوله ابو طالب رستم (في الري فقط) ٣٨٧-٤٢٠هـ/٩٩٧-١٠٢٩م
٦-سماء الدوله ابو الحسن (في همذان فقط) ٤١٢-٤١٤هـ/١٠٢١-١٠٢٣م

بلاد التركستان وعلاقتها بالخلافة العباسية:

شهدت منطقة التركستان أي بلاد ما وراء النهر بداية علاقاتها بالدولة الاسلامية في العصر الراشدي ، وبداية العصر الأموي فكان سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه أول من عبر من المسلمين ماوراء النهر وظلت العلاقة بين اخذ ورد حتى مجيء القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي حيث اختلف التعامل العربي مع الاتراك في وقام بلاد ماوراء النهر فسعى هذا القائد إلى نشر الاسلام بين السكان ،بتشجيعهم بوسائل عديدة من اجل الدخول في الاسلام ومن ثم حملهم مسؤولية نشرة بين ابناء جلدتهم وتم فتح اغلب بلاد ماوراء النهر في عهد هذا القائد حتى وصل الى حدود بلاد الصين ،وعندما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز طلب من

المسلمين في بلاد ماوراء النهر الرجوع الى خراسان لعدم قدرة الدولة الأموية على حمايتهم فلم يرجع احد ليس استهانة بامر الخليفة عمر بن عبد العزيز ،أو تطاولا على ارادته ،بل لأن المسلمين في بلاد ماوراء النهر قد توثقت علاقاتهم الاسرية وتصاهروا سكانها وزوجوا بناتهم من اهل البلاد،وظهرت علاقات اقتصادية وعلمية بين المسلمين وبين سكان البلاد من الاتراك بحيث اصبحوا عائلة واحدة يصعب تفريقها،وهذه ناحية اود ان اعلق عليها هنا وهي اننا !سرنا على نهج أولئك القادة العظام التخلصت بلادنا الاسلامية من كثير من مشاكلها الداخلية العرقية والدينية والسياسية .

واثناء قيام الدعوة العباسية ،تم ارسال احد الدعاة الى بلاد ماوراء الي ركلك النهر وهو اسحق الترك لكي ينظم المقاومة ضد الدولة الأموية ،وعندما قامت الخلافة العباسية اصبحت بلاد ماوراء النهر من ضمن ممتلكات الدولة العباسية وشهدت احدى أهم المعارك وهي معركة تلاس أو طلاس في سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م ، حيث انتصر الجيش العباسي على الجيش الصيني ،اذ كانت كلتا الدولتان تتنازعان النفوذ على هذه المنطقة كما شهدت بلاد ماوراء النهر في العصر العباسي دخول اعداد كبيرة من الترك في الاسلام، ففي سنة٤٣٥هـ/١٠٤٣م ذكر ابن الاثير دخول عشرة الاف خركاه (خيمة) في الاسلام والخركاه تعني العائلة وبحساب بسيط يمكن أن نقول ان العائلة مكونة من خمسة افراد زوج وزوجة وثلاثة اطفال لتبين لنا كثرة عدد الاتراك الداخلين في الدين الاسلامي وهذه الأعداد لم تدخل الدين الاسلامي جزافا بل عن اقناع وجهود فردية وجماعية قام بها المسلمون في بلاد ماوراء النهر.

وعندما قامت الامارة السامانية في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة العاشر للميلاد شهدت المنطقة تنظيما افضل لتوعية الناس بحقيقة الدين الاسلامي ،فازداد،دخول الناس في الدين الاسلامي ،حيث وسعت هذه الأمارة من مناطق نفوذها وازداد الاتصال والاحتكاك بين المسلمين وغير المسلمين في بلاد ما وراء النهر فدخلت قبائل الغز والتغرغر والكيماك وبعض قبائل المغول في الدين الاسلامي

ظهورالسلاجقة :

ينتمي السلاجقة الى مجموعة القبائل التركية وهم من قبيلة قنق الغزية ،التي تسكن في الأراضي الواقعة بين بحر آرال) بحر خوارزم (وبحر قزوين،وكذلك الى الجنوب ،على مرتفعات وسهوب نهري سيحون وجيحون آمو دريا و سرادريا)وتعرف هذه القبائل بقبائل الغز،وتعود تسميتهم بالسلاجقة نسبة الى جدهم الأعلى سلجوق بن دقاق،وكانت هذه القبائل تتنقل وراء الماء والكلا من مكان الى آخر في منطقة التركستان أي في بلاد ماوراء النهر ،التي كانت خاضعة للإمارة السامانية٢٦١-٣٨٩هـ /٨٧٤-٩٩٩م وعاصمتها مدينة بخارى، وكانت هذه القبائل تتردد على المناطق الحضرية في بلاد ماوراء النهر لتصريف منتجاتها من الصوف والوبر والمواشي

وبقية المنتجات التي تنتجها منطقتهم ،وتتزود بما تحتاجه من منتوجات بلاد ماوراء النهر .وأدى هذا الاحتكاك التجاري الى نشوء نوع من العلاقة بين الطرفين ،فتأثر السلاجقة بمباديء الاسلام،الذي كان منتشرا في بلاد ماوراء النهر واصبحوا بشكل أو بآخر جزءا من رعايا الإمارة المنطقة .السامانية،ولم يكن هنالك من عائق يمنعهم من دخول دار الاسلام ،او الانتقال من منطقة الى اخرى في بلاد ماوراء النهر أو غيرها من المناطق سوى استغلال الظرف المناسب لتلك استطاع سلجوق بن دقاق) تعني دقاق القوس الجديدة (ان يوحد ابناء قبيلته ويقودها قيادة حكيمة،بعيدة عن التهور ،مستغلاًولاء قبيلته المطلق له،كما يعود الى سلجوق ايضاًالفضل في تثبيت العقيدة الاسلامية بين ابناء قبيلته من السلاجقة ،فاحبه ابناء قبيلته ،لأنه اعطاهم مكانة متميزة ،وجعل الإمارة السامانية تقدرهم نتيجة للجهود التي قدمها للإمارة ،حيث وضع قدرات قبيلته تحت تصرف الامير الساماني،ونتيجة لموقف الإمارة السامانية الجهادي ضد الكفار الترك في بلاد ماوراء النهر،فقد وقف سلجوق بن دقاق معها في حربها ضدهم وذلك سنة مكانة ٣٧٥هـ/٩٨٥م ،عندما هاجموا حدود الإمارة السامانية فكسب متميزة لدى الإمارة السامانية ،وأنعم عليه الأمير الساماني بلقب قائد وبعد سقوط الإمارة السامانية في عام ٣٨٩/٩٩٩م ، اصبحت بلادماوراء النهر خاضعة للدولة القراخانية ،فتعاون سلجوق معها ،وتكشفت قدرات سلجوق القيادية في هذه الفترة وبان طموحة ،لكن ملك الترك القراخانيين ،لم يلتفت اليه وصف أنه تابع له،لكن زوجة الملك حذرته من سلجوق ،وطلبت من زوجها التخلص من سلجوق مخوفا من طموحاته ،لكنه لم يتخذ قراره في الوقت المناسب وقد لقبه ملك الترك بـ) سباشي ومعناه قائد الجيش (و عندما شعر سلجوق بنية ملك الترك تجاهه ،غادر منطقة ملك الترك الى جند التي كان قد اتخذها قاعدة له ولأتباعه والتي تقع في بلاد ماوراءالنهر واستقر في المنطقة المحصورة بين بحر أرال وبحر قزوين،والمنطقة المطلة على نهر جيحون ،حيث الأرض خصبة ،وتساعد السلاجقة على رعاية مواشيهم واغنامهم .توفي سلجوق بن دقاق بعد أن بلغ من العمر عتيا ،وترك اربعة اولاد هم اسرئيل)بيغو أرسلان (ميكائيل موسى ،ويونس سقوط الإمارة السامانية،لم تكن العلاقة بين السلاجقة والقراخانيين حسنة بسبب الاختلاف الديني بين الاثنين ،كون أن رئيس الدولة القراخانية هو غير مسلم ،فوقفوا الى جانب احد قادته وهو)علي تكين حيث ساعدوه في حربه ضد ايلك خان والحقوا الهزيمة بجيشه واصبح السلاجقة قوة لايستهان بها في بلاد ماوراء النهر.

انتقال السلاجقة الى خراسان وعلاقتهم مع الامارة الغزنوية:

بعد أن أصبح السلاجقة قوة لا يستهان بها في بلاد ماوراء النهر وضاقت عليهم موارد الحياة فيها ،كان لابد لهم أن يجدوا مكاناًآخر ينتقلون اليه،وكان المكان المناسب لهم هو بلاد خراسان ،التي كانت تابعة الإمارة الغزنوية وقائدها محمود الغزنوي وبسبب وقوف السلاجقة مع على تكين فيما سبق،وكون على تكين قد اخذ

يتعرض خراسان ،اصبح السلاجقة في الصف المعادي للإمارة الغزنوية ،مما دفع الأمير محمود الغزنوي الى شن غارة عليهم،فاضطروا إلى الهرب امامه،كما اخذ محمود الغزنوي يحتاط لأمر السلاجقة بعد أن حذره ايك – خان منهم وذلك سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م ، وتبين لمحمود الغزنوي ان السلاجقة قوة لايستهان بها ،وعليه أن يوقفهم عند حدهم فارسل لى فائدهم اسرائيل يدعوه الى عقد اتفاق صداقة بينه وبينهم اسرائيل إلى مكان الاجتماع قرب نهر جيحون القى محمود الغزنوي –القبض عليه وسجنه في قلعة كالنجر في بلاد الهند ، وظل فيها ، فلما جاء حتى توفي سنة ١٠٣١/٤٢٢م ، وبعد سجن اسرائيل من قبل محمود الغزنوي ، تولى قيادة السلاجقة اخوه ميكائيل ابن سلجوق الذي احسن قيادة السلاجقة في هذه الفترة . وكان عليه ان يقود السلاجقة الى بر الامان دون تكبيدهم خسائر في غير محلها ،وهذا هو القائد الجيد الذي لايضحي بجيشه بسبب او بغير سبب ويكون حريصاًعليهم غاية الحرص ،لا أن يضحي بهم في حروب لامسوغ لها ، ولا يعير لذلك أية عناية ،ورأى القائد السلجوقي ميكائيل ان من الحكمة هي عدم الاصطدام مع السلطان محمود الغزنوي و السلجوقي ميكائيل القوة الإمارة الغزنوية ولمكانة السلطان محمود الغزنوي في العالم الاسلامي وموقف الخلافة العباسية المؤيد للسلطان في كل إجراءاته فقرر اتباع الحكمة في معالجة موضوع شائك كهذا ،ولاسيما أن السلاجقة قد كانوا من سجن زعيمهم من قبل محمود الغزنوي فيما سبق فارسل الى السلطان محمود الغزنوي رسالة يلتمس فيها السماح للسلاجقة بعبور ،جيحون بطريقة سلمية على أن يستقروا في المنطقة المحصورة بين نهر مدينتي نسا و ابيورد .وعندما علم والي مدينة طوس مشهد الحالية وتقع في جمهورية ايران الاسلامية ارسلان الجاذب ،بطلب السلاجقة حذر السلطان ذلك محمودا الغزنوي من هذا الطلب وعدم الموافقة على ذلك،لأن في خطر يهدد دولته في المستقبل ، الا ان السلطان محمود الغزنوي لم يلتفت ا لهذا التحذير واعتقد أن سجن زعيمهم اسرائيل قد أضعف قوتهم ، ولا يشكلون أي خطر على دولته ، فسمح لهم بعبور نهر جيحون والتوجه الى المنطقة المحصورة بين مدينتي نسا وأبيورد فعبروا بهدوء وبهذا تحقق نور الشطر الأول من خطة السلاجقة وهي ايجاد موطيء قدم لهم في خر خراسان ،ومن ثم عليهم أن ينتظروا الفرصة المواتية لهم لتحقيق هدفهم التالي وهو تكوين دولة خاصة بهم،حالهم حال أي قوة جديدة ظهرت في بلاد خراسان رود تركز السلاجقة في منطقتهم الجديدة وعززوا قوتهم بما التحق بهم من قبائل الغز ووحدوا صفوفهم واصبحوا قوة لا يستهان بها في المنطقة،حتى اقلقوا سكان المنطقة التي يقيمون بها لأن المنطقة منطقة زراعية تكثر فيها البساتين والمزارع وهؤلاء السلاجقة بدو رحل غير متحضرين،وغالباًما يتجاوزون على المزارع والحقول فيتأذى الناس منهم ولهذا طلبوا من والي المنطقة ان يكتب الى السلطان محمود الغزنوي بضرورة أن يوقفهم عند حدهم،فكتب محمود الغزنوي الى والي طوس باجلائهم،فهاجم والي طوس معسكراتهم لكنهم دحروه،فطلب النجدة من السلطان محمود الغزنوي،الذي جاء بنفسه وحطم قوة السلاجقة في معركة حامية في عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م.

المرحلة الثانية:

بظهور "الدولة اللاحقة وبعد وفاة سلجوق بحدود عام 420هـ 1029م ،تولى قيادة السلاجقة ولديه ابو سليمان داؤود)جغري بيك (وابو طالب محمد طغرل بيك (،اللذين اثبتا مقدرة وعزيمة في قيادة السلاجقة الذين كان اغلبهم محاربين بحكم طبيعتهم البدوية المتمرسة على القتال ،ولكونهم مهددين في هذه المنطقة ،وقد رأينا قبل قليل ما تعرضوا له على يدمحمود الغزنوي .وقد خدمت الظروف هذين القائدين ،فقد توفي السلطان هذه محمود الغزنوي سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م ، وتولى الحكم من بعده ابنه مسعود الغزنوي، فحاول هذان القائدان توسيع نفوذ السلاجقة في خراسان،وكان هذا التوسع على حساب املاك الإمارة الغزنوية في المنطقة ولإيجاد حجة للتحرش بالإمارة الغزنوية التي اذاقتهم المر والهوان أكثر من مرة اعتقال زعيمهم اسرائيل على سبيل المثال للثأر منها ،فطلبا من والي نيسابور) سوري بن المعتز (السماح لهما بالاقامة قرب نيسابور ،فرفض هذا الوالي طلب السلاجقة واستعان عليهما بطلب النجدة من السلطان الغزنوي مسعود ،الذي اسرع الى نيسابور في جيش كبير قاده بنفسه ،وكان النصر في بداية المعركة التي جرت قرب مدينة سرخس للسلطان مسعود ،الا ان النصر ما لبث أن إنقلب الى هزيمة لجند السلطان مسعود ، فاضطر لعقد الصلح معهم ،وحصلوا بموجب هذا الصلح على مناطق واسعة من خراسان وكان هذا سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٥م ، وقد ابدى السلاجقة بعد نظر وحكمة في التعامل مع الأوضاع في خراسان ولم يتعجلوا الأمور ،وانما ارادوا ان يهادنوا السلطان الغزنوي مسعود ليحصلوا على أقصى ما يمكن الحصول عليه من الدولة الغزنوية وقد ارسلوا له رسالة يعتذرون فيها مما بدر منهم جاء فيها)) :وقد أخطأنا في اختيار سوري للوساطة والشفاعة عند السلطان فانه متهور ولا يرعى المصلحة في عواقب الأمور وانتهى الأمر أن يسير السلطان الينا جيشا ومعاذ الله ما كنا نجرؤ على امتشاق الحسام في وجه الجيش المنصور لولا أنهم انقضوا على دورنا كما تنقض الذئاب على الحملان واعتدى على نسائنا واطفالنا مع انا كنا حاملين على الامان فلم نجد بدا من از ندافع عن انفسنا،والنفس عزيزة وانا نؤكد ما ذكرنا أول الأمر،وكلحدث لم يكن الا من قبيل عين حاسدة اصابت الجيش المنصور على الرغم منا ....وأنا لا نبغي غير السلم ونصت الاتفاقية التي وقعت بين الطرفين على ما يلي -1:استعطى الى بيغو وهو الابن الثالث لميكائيل وطغرلبيك وجغري بيك ولايات نسا وفراوة ودهستان - 2تعطى لكل من هؤلاء خلعة ومنشور ولواء -3ان يذهب القاضي ابو نصر الصيني ويسلمهم الخلع بنفسه -4 .ان يأخذ القاضي ابو نصر الصيني عليهم الميثاق بالوفاء بالعهد مع السلطان.

-5-ان يقتصر هؤلاء على هذه الولايات الثلاث -6 .ان يأتي احد هؤلاء الثلاثة الى الدركاه)البلاط (ليكون في خدمة السلطان

-تأسيس الدولةالسلجوقية:

بعد هذا الصلح اخذ موقع السلاجقة يتعزز في خراسان وفي غيرها من المناطق التابعة للغزنويين والبويهيين ،وأخذ الناس في خراسان تحسب لهم الف حساب ،وكثرت شكاوي الناس ضدهم واعلموا السلطان مسعود الغزنوي بتصرفاتهم ،فطلب من والي خراسان التوجه الحرب السلاجقة ،فتردد في بداية الامر ،الا انه تحت الحاح السلطان مسعود حاربهم بعد أن أرسل له السلطان مسعود قوة عسكرية لدعمه الا أن هذه الحملة لم يكتب لها النجاح حيث اندحرت القوات الغزنوية في معركة قرب مدينة سرخس سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧-١٠٣٨م ، وبعد هذه المعركة اخذت قوة السلاجقة تتنامى وسيطروا على كل خراسان وتم تعيين طغرل بيك ابن ميكائيل بن سلجوق أميرا عليهم ودخلوا نيسابور واتخذوها مقرا لهم،وأعلن قيام دولة السلاجقة في خراسان ،ولقب نفسه بالسلطان المعظم ركن الدنيا والدين ابو طالب ولم يبق الا الحصول على الاعتراف بهم من الخلافة العباسية في بغداد اعلن طغرل بيك نفسه سلطانا ،وأمر بأن تقرأ الخطبة بأسمه ،وقام بتعيين نوابه على مختلف اقاليم خراسان،أما رد فعل السلطان مسعود الغزنوي فكان عنيفا اذ اعد جيشا كبيرا قاده بنفسه سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م، لوضع حد للسلاجقة ،السلاجقة الحقوا به الهزيمة في موقعة داندانقان التي تقع في الصحراء بين مرو ومرخص السحب على أثرها الى مدينة غزنة ،ولم يفكر ثانية في خراسان التي تركت للسلاجقة ليتونوا أمرها ولتشكل دولتهم فيها وتكمن اهمية هذه المعرك في انهاء الصراع السلجوقي الغزنوي لصالح السلاجقة في ولم يفكر السلطان الغزنوي هو وخلفاؤه من بعده بخراسان ،كما فسحت هذ كة مية لكن السلاجقة والسرمين المعركة المجال امام السلاجقة لمراسلة الخليفة العباسي القائم بامر الله وان يطلب منه اضفاء الصفة الشرعية على حكمه -مما يكسب السلاجة قوة بتأييد الناس لهم،وهذا ما تم في سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م ، إذ اعترف حكاما لخراسان وتقلص نفوذ الغزنوبين من خراسان وما وراء النهر.

كان أول عمل قام به طغرل بيك هو اعادة تنظيم الأوضاع في خراسان ،فقبل هذا التاريخ كان السلاجقة جزءا من سكان خراسان تابعي بشكل او بأخر حكامها المحايين من بويهيين وغزنويين ،لما الآن :اصبحوا مادة خراسان وعليهم أن ينظموا أمورها المالية والادارية ،لاأي خلل قد يعرضهم الى هزة لا تحمد عقباها ،فبدأ طغرل بيك بالاعتماد على افراد قبيلته حاله حال أي حاكم جديد يتولى زمام الأمور في ذلك الوقت ،فعين اقاربه على مختلف المناطق في خراسان ،واتخذ طغرل بيك من مدينة نيسابور مقرا له ،وأمر اقاربه بان يوسعوا نفوذهم على اقصى فوسع ما يستطيعون من الأراضي لتوسيع نفوذهم ،وهذا مقاموا به ،كل منهم ممتلكاته بالسيطرة على المناطق المجاورة له . وبعد أن رتب السلاجقة امورهم الادارية والمالية والعسكرية طيلة ثلاث سنوات،كتبوا الى الخليفة العباسي القائم بامر الله رسالة يعلنون فيها ولاءهم للخليفة العباسي وانهم خير جنده الذين ينتظرون إشارة

منه للانطلاق الى أي مكان يأمرهم اليها ،ثم بينوا له ماتعرض اليه السلاجقة من ظلم على يد محمود الغزنوي الذي قام بقتل كبيرهم وقائدهم اسرائيل،وبينوا له سوء الأوضاع في خراسان في عهد السلطان مسعود الغزنوي الذي انصرف الى اللهو والملذات تاركا امور خراسان ،حتى استدعاهم اهل خراسان لحمايتهم ،ثم ذكروا له كيف ان السلطان مسعود قد هاجمهم أكثر من مرة ،وطلبوا منه الموافقة لهم بحكم خراسان .فلم يكن هنالك من سبيل امام الخليفة العباسي الا الموافقة على طلبهم نظرا للظروف التي كانت تمر بها الخلافة في بغداد ،وبهذا اصبح حكم السلاجقة في خراسان حكما شرعيا مدعوما بمباركة الخلافة العباسية في بغداد ،وبهذا اصبح الطريق ممهدا امام السلاجقة للتوسع في أي اتجاه يرغبون فيه ،ما دام قد اضفي على حكمهم الصبغة الشرعية .بعد أن سيطر طغرل بيك على كل مناطق خراسان وقبل أن يفكر بالتوجه صوب العراق ،كان عليه أن يطمئن على حدوده الشرقيةوالشمالية الشرقية من أي هجوم محتمل ،من قبل امراء او حكام هذه المناطق .وبدأ بالسيطرة على منطقة طبرستان وجرجان ،وكان في هذهالمنطقة احد افراد الاسرة الزيارية وهو انو شيروان الزياري ،الذياعلن ولاءه للسلاجقة ،وبهذا أنهى السلاسة الدونة الزيارية التي بدات بحكم المنطقة منذ سنة 316هـ 928م و التي استمرت الى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م أي هجوم الري بعدها توجه السلاجقة للسيطرة على بلاد خوارزم وتمت لهم السيطرة عليها وبهذا امن السلاجقة على منطقة خراسان من محتمل قد يشن ضدهم ثم توجه السلطان طغرل بيك الى مدينة وأصلح أحوالها الادارية والمالية واتخذها مقراًلحكمه وفي الري استقبل طغرل بيك مبعوث الخليفة العباسي،الذي حمل رد الخلافة على طلب السلاجقة ،وقد انتظر مبعوث الخليفة طغرل بيك في مدينة الري مدة ليست بالقليلة لإنشغال طغرل بيك بالحروب ،وقد دعا مبعوث الخليفة طغرل بيك لزيارة بغداد والخليفة العباسي ،وقد قبل طغرل بيك الزيارة والدعوة لكنه أرجاها لوقت آخر لإنشغاله في ترتيب امور خراسان وبخاصة الولايات الجنوبية من خراسان والولايات الغربية منها.

توجه طغرل بيك بقواته وسيطر على المناطق الشرقية من خراسان وهي قزوين وزنجان و همذان و اقليم اذربيجان ثم توجه للسيطرة على الاجزاء الجنوبية من خراسان فسيطر على مدينة كرمان بعد جهد كبير ،واعلن حاكم ديار بكر تقع الآن في جمهورية تركياطاعته للسلطان طغرل بيك .ثم توجه طغرل بيك لفتح اصفهان واقليم فارس وعاصمته شيراز،وتوجه بنفسه الى اقليم اذربيجان ليتأخذ من ولاء اهل المنطقة له ،ودخل مدينة تبريز عاصمة اقليم اذربيجان ،كما أن قريش ابن بدران صاحب الموصل ولاءه للسلطان السلجوقي ،وبذلك اصبحت كل خراسان بيده فضلا عن اقليم خوارزم و فارس و ادراستان ومناطق من آسيا الصغرى واجزاء من العراق ،ولم يبق له الا ان يتوجه الى العراق ليبسط سيطرته عليه.

احتلال السلاجقة لبغداد:

بعد أن فرغ طغرل بيك من بسط سيطرته على كل الاجزاء الشرقية من العراق ،لم يبق له إلا أن يتوجه الى العراق ،ويقضي على بقايا النفوذ البويهي في العراق المتمثلة بوجود الملك الرحيم وبقايا الأسرة البويهية في بغداد ولكي يكسب قسما من الجيش البويهي في بغداد نجد ان طغرل بيك يكاتب الجند التركي الذين يشكلون قسما لابأس به من عموم الجند البويهي في العراق ،يعدهم ويمنيهم من اجل كسبهم الى جانبه،خاصة وأنهم اصبحوا اصحاب النفوذ في العراق،حيث اخذوا يعينون ويعزلون ،كما تدخل الجيش الذي سيطر عليه الاتراك امراء بني بويه،ولهذا حاول السلطان السلجوقي كسبهم الى جانبه،كما ارسل وفدا الى الخليفة في بغداد محملا برسالة فيها آيات الطاعة والولاء للخليفة العباسي ،والهدف معروف وهو كسب رضا الخليفة العباسي في بغداد .في تعيين قائد كان الوضع الامني والاداري في العراق غير مستقر ،بسبب تدهور الحكم البويهي ،وبسبب الانشقاق الحاصل بين افراد الجيش البويهي ،وبخاصة بين فرعيه الرئيسين التركي والديلمي ،كما كان الخلاف محتدما بين رئيس الرؤساء ابن المسلمة الذي كان وزيرا لآخر ملك بويهي في العراق وهو الملك الرحيم ،وكان هذا الوزير على خلاف شديد مع الجيش ابي الحارث البساسيري ،الذي اعتنق مذهب الفاطميين لأسباب سياسية وخطب لهم .فضلاًعن ان الخلافة العباسية كانت مهددة من قبل الفاطميين الذين سيطروا على أغلب مدن الشام حتى سيطروا على حلب التي تقع في أعالي بلاد الشام بحدود عام 441هـ 1049 /م (وبعد سيطرة طغرل بيك على الأوضاع في خراسان حدثت ثورةقادها احد انصار البويهيين في ولاية فارس وهو القائد فولاذ صاح بقلعة اصطخر الذي استولى على شيراز وقطع الخطبة للسلطان طغرل بيك وخطب للملك الرحيم ،اخر حكام البويهيين في بغداد ،وعلى الرغم من استعادة الوضع في اقليم فارس من قبل السلاجقة ،إلا أن هذه الحادثة قد حفزت السلطان طغرل بيك ،على القضاء على الوجود البويهي بصورة بمن نهائية في العراق،لأن آخر ملك بويهي مازال موجودا في بغداد اما بغداد فقد اضطربت امورها و صار (كل جندي فيها رأساًلنفسه ،وانقطعت موارد البلاد ((،واصبح الخليفة العباسي وقد فقد الثقة حوله،والملك الرحيم البويهي لايعرف ماذا يفعل ،والوزير أبو القاسم علي بن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء ،وجد في مراسلة طغرل بيك مخرجا من مشاكله بوصف انه الأقوى،وربما يستطيع ان يحافظ على نفسه او منصبه على اقل تقدير ،والقائد البساسيري يرى في دخول السلاجقة بغداد زوال لمكانته ،فدخل في صراع مع الوزير وراسل الفاطميينهذه الأوضاع كلها ساعدت طغرل بيك على تنفيذ خطته التي كان قد رسمها لدخول العراق ،ولما تهيأت الظروف كلها لصالحه تحرك بسرعة في سنة 447هـ 1055 /م ،واختار اسرع طريق يوصله الى بغداد ،فوصل الى حلوان ،وطريق حلوان هو اقرب الطرق للوصول الى بغداد .ولم يجد السلطان البويهي بدا من الرضى بما يحدث بعد أن خذله حنده وقائد الجيش البويهي .ووصلت أنباء تحرك الجيش السلجوقي على أطراف العراق الى سكان العراق ولاسيما سكان بغداد

،فهام الناس على وجوههم وتحيروا في كيفية مواجهة هذا الموقف ،كما تحفز الجيش في بغداد واستعد لما قد يحدث ،وهنا تظهر المقدرة السياسية لطغرل بيك ،في عدم إثارة الناس ضده في بغداد ولكي يطمئن الناس ويمتص غضبهم ويهدئهم حتى يقلل احتمالية تعرض الجيش السلجوقي لأية مفاجئة غير متوقعة ،فارسل وفدا رسالة يطمئن فيها الخليفة العباسي والناس ،إذ جاء في الرسالة،ان القصد من قدومه إلى بغداد هو للتبرك بزيارة بغداد ،ثم يتجه بعدها الى مكة المكرمة لأداء الحج،كما يود ان يعيد تنظيم طريق الحج،لأن الناس تجد مشقة في اداء الحج ،ومن ثم العودة الى بلاد الشام لطرد الفاطميين منها ،واعادتها الى حظيرة الدولة العباسية .وقد انخدعت كل الاطراف بهذه الرسالة بما فيهم الخليفة العباسي ،ولهذا أمر الخليفة العباسي بذكر اسم طغرل بيك في خطبة الجمعة بعد اسم الملك الرحيم البويهي والشكل التالي))السلطان ركن الدولة ابا طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين امير المؤمنين ((وزيادة في الحيطة ارسل طغرل بيك رسولاًآخر الى بغداد يستأذن الخليفة العباسي بالسماح له في دخول بغداد فأذن له ولما وصل طغرل بيك وجيشه الى النهروان ،خرج لإستقبالهم الوزير)رئيس الرؤساء)وضم الوفذ كبار موظفي الدولة من قضاة ونقباء،وعندما علم طغرل بيك بوصول الوفد اليه ارسل الى استقباله الامراء ووزيره ابا نصر محمد ابن منصور الكندري وهو اول وزراء آل سلجوق،ولما التقى طغرل بيك برئيس الرؤساء البلغة رسالة الخليفة))واستحلفه له وللملك الرحيم ولإمراء الاجناد فأجابه .((.ونصت الاتفاقية على ما يلي 1 :صون الخلافة والحفاظ على هيبتها -1 ...الحفاظ على الامن والنظام في العراق -2الابقاء على الملك الرحيم البويهي لمدة من الوقت لحين مغادرته بغداد توجه طغرل بيك الى بغداد بصحبة الجيش السلجوقي ودخل بغدار في الخامس والعشرين من شهر رمضان من سنة 447هـ / 1055م ،في موكب ضخم ونزل بباب الشماسية ،والتقى بقريش بن بدران صاحب الموصل،واستقبل طغرل بيك في بغداد اروع استقبال ،واعترف به الخليفة سلطانا على جميع المناطق التي سيطر عليها ،ولقبه بـ))ملك المشرق والمغرب ((،كما تزوج الخليفة القائم بأمر الله من ابنةجغري بيك أخي طغرل بيك وهي)ارسلان (خاتون خديجة ((وبدلاًمن أن يرد السلطان طغرل بيك على احسان الخليفة واهل بغداد ووجوهها بأفضل منه ،قابل الخليفة والملك الرحيم أسوأ مقابلة وأحرج الخليفة العباسي وذلك بالقاء القبض على الملك الرحيم البويهي الذي ضمن الخليفة الحفاظ على حياته ،وأرسله مكبلاًالى سجن في قلعة طبرك في الري ،وقضى على آخر امل للبويهيين في الحكم ،واسدل الستار على دولتهم بعد أن اتهمه بتحريض العامة في بغداد ضد الوجود السلجوقي وان الملك الرحيم هو السبب المباشر لكل ما حدث لم يقف الخليفة القائم بامر الله موقف المتفرج على ما حدث باعتقال الملك البويهي ،لأن طغرل بيك قد اعتقل الملك الرحيم دون اخذ موافقة الخليفة العباسي ،وعدّهذا العمل اهانة موجهة للخليفة ،وارسل الـ .طغرل بيك ينكر عليه هذا العمل ويهدده بمغادرة بغداد وكتب اليه (:اذ انما خرجوا اليك بامري وامانى فان اطلقتهم ،والا فأنا افارق بغداد،فاني انما اخترتك واستدعيتك اعتقادا مني أن

تعظيم الأوامر الشريفة يزداد ،وخرمة الحريم تعظم وارى الأمر بالضد .وقد اطلق السلطان السلجوقي بعد هذه الرسالة بعض اصحاب الملك الرحيم ،وصادر اقطاعاتهم ،فتوجه قسم منهم الى البساسيري وانضموا الى حركته كما صادر السلطان السلجوقي أموال الاتراك البغداديين ،كما امتدت اعمال السلب والنهب))من الجاء الغربي من تكريت الى نهر النيل – ((النيل بلدة بين بغداد والكوفةالغز السلاجقة انتشروا في سواد بغداد فنهبوا من الجانب الغربي من تكريت الى النيل ومن الشرقي الى النهروان وأسافل الاعمال،وأسرفوا في النهب ...فنهبوا درب يحى ودرب سليم و به دور رئيس الرؤساء ودور أهله ..ونهبت الرصافة وترب الخلفاء وأخذ منها من الأموال ما لا يحصى،لأن اهل تلك الاصقاع نقلوا اليها أموالهم اعتقاداًمنهم أنها محترمة،ووصل النهب الى أطراف نهر المعلى ،وأشتد البلاء على الناس وعظم الخوف،ونقل الناس اموالهم الى باب النوبي وباب العامة وجامع القصر فتعطلت الجمعات لكثرة الزحمة ((ولم يتوانى السلاجقة عن استخدام القوة ضد النساء والاطفال والشيوخ ،اذ تعرضوا الى الضرب من اجل ارغامهم على تقديم مزيد من الاموال او الادلاء على اماكن وجودها .ولم يكتف السلطان السلجوقي بما صادره من اموال و املاك الملك الرحيم البويهي وامراء اجناده ،وصدق من قال عن الاتراك السلاجقة))لم يترك الترك وردا الا شفهوه ولا حسنا الا سوهوه ولا نارا الا ارشوها ولا دارا الا شعثوها ولا عصمة الا رفعوها ولا وصمة الا رفعوها اجفل الملوك من خوف اقدامهم وتنحوا عن طريق ضرامهم فما جاؤا إلى بلدة الا ملكوا مالكها ،وملأوا مسالكها وارجوا سكانها واسكنوها الرعب ،وغلبوا ولاتها وولوها لغلبكما امتدت يد السلطان طغرلبيك الى اموال الخليفة ،فارسل إلى الخليفة وزيره عبد الملك الكندري ،والخليفة في أسوا حال اذ كان في مجلس عزاء ابنه وولي عهده محمد ،يطلب منه اموالا،فعظم على الخليفة مقدارها فأشاروا عليه بان يطلق يده في أموال الحريم واجاب رسل السلطان بأن)) :مال الحريم مازال مصونا وقد جرى فيه ما رأينا مكافأته في ولدهن ((رافق دخول الجيش السلجوقي الى بغداد نهب وسلب واعتداء على اموال الناس ودورهم ومحلاتهم التجارية التي تعرضت للنهب ،والما دخل عسكر طغرل بيك الى مدينة بغداد ذهب قسم من عسكره الى احد اسواق بغداد للامتيار للشراء من سوق الازج –وأخذ واحداً . أهله ليطلب منه تبناًوهو لايفهم ما يريدون ...فاعتدوا عليه بالضرب فاستغاث عليهم ،وصاح بالعامة بهم ورجموهم وهاجوا عليهم ...وارتج البلد وأقبل منالناس من كل حدب ينسلون يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد ((ووقع الاصطدام بين سكان بغداد والجيش السلجوقي بسبب ما ارتكبه السلاجقة من جرائم ونهب وقتل للأبرياء وقد اشار ابن الجوزي الى ذلك فقال))وثارت بين العوام والاتراك فتنة ،ادت الى قتل واسر فنهب الجانب الشرقي بأسره وذهبت أموال الناس))كما خرج جماعة من أهل بغداد الى ظاهر بغداد وهم يحملون السيوف واصطدموا السلاجق مع ودارت بين الطرفين معركة غير متكافئة قتل فيها الكثير من الطرفين إلا انها اثبتت للسلاجقة قوة أهل بغداد وان اعمالهم لن تمر دون حساب فاضطر السلطان السلجوقي الى اصدار امر بعدم دخول السلاجقة الى بغداد وان

يخرج من وجد من السلاجقة في دور الناس ،فضلاًعن اعتذاره الخليفة القائم بامر الله ،كما استاء الخليفة العباسي من هذه خيبة أمله في السلاجقة وفي طغرل بيك شخصيا ونتيجة لهذه التصرفات الاعمال الهمجية وارسل الى السلطان السلجوقي رسالة عبر فيها عن ابداها طغرل بيك توترت العلاقة بينه وبين الخليفة القائم بأمر الله وقد ذكر بان السلطان طغرل بيك ظل أكثر من ثلاثة عشر شهرا دون ان يحظى بمقابلة الخليفة . وانتهى احتلال ليبدأ احتلال جديد وتغير الاسم فقط التي من بويهي الى سلجوقي .ويبدو أن السلاجقة احمدوا بالفتور بينهم وبين الخليفة فارادوا اصلاح الموقف في وقت بدت فيه الخلافة تستعيد هيبتها ،فاصدر الخليفة امرا الى السلطان السلجوقي بالمسير الى الشام لإقامة الخطبة له على منابر الشام ،وقد استجاب السلطان السلجوقي لذلك واصدر امرا امر فيه))العساكر ان يتجهزوا ويبعثوا باحضار كاواتهم –خيامهم –واولادهم واهلهم ليتوجهوا معه الى بلاد الشام.

و– عصر قوه الدولة السلجوقية (عصر السلاطين لاقوياء ٤٤٧–٤٨٥هـ/١٠٥٥–١٠٩٢م

1–عصر السلطان طغرل بيك:

خلال عصر هذا السلطان حدث امران مهمان الأول قد تكرر لمرتين وهو تمرد اخيه من امه المسمى إبراهيم ينال فقد تمرد عليه قبل احتلال السلاجقة للعراق وذهب السلطان طغرل بيك الى همدان وحارب اخاه ثم عفا عنه واقره في منصبه،انطلاقا من مبدأ الاخوة ،والمرة الثانية كرر تمرده ضد اخيه في وقت حرج جدا بالنسبة للسلاجقة في العراق فهم في اول احتلالهم العراق يحتاجون الى من يقف إلى جانبهم وبخاصة .الأسرة السلجوقية لا أن يتمرد عليهم والدولة في بداية تكوينها وتواب تحديات خطيرة في العراق فأهل بغداد لم ينسوا ما حدث لهم أثناء دخول السلاجقة بغداد،من قتل وتدمير ونهب وتشريد،فقد أصابهم الأذى جميعا ودون استثناء،فضلا عن وجود فتنة يقودها قائد خطر وهو البساسيري في هذه الاثناء اعلن إبراهيم ينال تمرده ضد اخيه الإمهطغرل بيك ،وطالب بالعرش السلجوقي لنفسه ،وهنا تجلت مقدرة السلطان السلجوقي لوضع حد لهذا التمرد الخطير،فقاد جيشا كبيرا وتوجه للقضاء على ثورة اخيه ابراهيم سنة 450هـ 1058 /م ،لكن الهزيمة لحقت بطغرل بيك فاضطر الى سحب باقي الجيش السلجوقي من بغداد لكي يعزز موقفه موفعلا تم له النصر والقى القبض على أخيه ابراهيم ينال واعدمه لعلم الاسرة السلجوقية في همدان،منعا من تكرار هذا العمل مستقبلا الأمر الثاني الذي يسجل خلال عهد السلطان طغرل بيك هو ما يعرف بحركة أبي الحارث البساسيري لم تكن فتنة أو حركة البساسيري ناتجة عن فراغ،بل سبقتها احداث كثيرة ،ولنعد إلى بداياتها ،إن الجيش البريهي كان يتكون كما ذكرنا من قسمين رئيسيين هما الاتراك و الديلم ولم يحسن القادة البويهيون السيطرة على هذا الجيش بل كانوا يستخدمونه ويسخرونه وفق اهدافهم الخاصة ،أي لم تكن لهم سياسة عامة يسيرون عليها ،والجند الاتراك جيدون ويطيعون ،إذا كان هنالك من يحسن استخدامهم كما رأينا في عهد الخليفة المعتصم بالله والواثق بالله والموفق بالله والمعتضد بالله وكيف كانوا مشكلة بالنسبة للخلفاء المتوكل على الله ومن جاء بعده من الخلفاء،وقد تكرر هذا في أواخر العهد البويهي ،حيث انعدمت القيادة الجيدة ولم يحسن ملوك بني بويه المتأخرين من مسك العصا من الوسط بل شجعوا العداء بين اقسام الجيش،ولم يتخذوا ما يمنع الجفاء بين الطرفين،وضربوا كل الفرق بالاخر حتى اذا تغلب فريق على آخر انقلبوا عليه،وهكذا .ويشير ابن الأثير إلى ذلك في حوادث سنة 379هـ 989م فيقول)) :فوقعت الفتنة بين الاتراك والديلم،واشتد الأمر ،ودام القتال بينهم خمسة أيام ،وبهاء الدولة في داره براسلهم في الصلح قلم يسمعوا قوله ،وقتل بعضهم رسله،ثم انه خرج الى الاتراك وحضر القتال معهم فاشتد حينئذ الأمر،وعظم الشر،ثم انه شرع في الصلح ورفق بالاتراك وراسل الديلم ،فاستقر الحال بينهم،وحلف بعضهم لبعض .ثم ان الديلم تفرقوا فمضى فريق بعد فريق ،واخرج بعضهم ،وقبض على البعض ،فضعف أمرهم وقويت شوكة الاتراك واشتد حالهم .وعندما توسع السلاجقة في خراسان ،كان يتولى قيادة الجيش البويهي ،قائد الاتراك ابو الحارث البساسيري))هو ابو الحارث ارسلان بن عبد الله البساسيري التركي مقدم الاتراك ببغداد،كان من مماليك عضد الدولة بن بويه ،وكان الخليفة القائم بامر الله قد قدمه على سائر الاتراك فاستبد بالسلطة

ببغداد،وخطب له على منابرالعراق و خوزستان)منطقة عربستان وتقع الآن في جمهورية ايران الاسلامية .
وعظم امره وهابته الملوك ،وعرف بالبساسيري نسبة إلى قرية في بلاد فارس يقال لها بسا او بساسير. ((وكان البساسيري قد اثبت كفاءة في ايقاف نشاط العيارين وكان له دور في القضاء على البرجمي في سلة 425هـ 1033م حيث عين الحماية الجانب الغربي من بغداد وكان الملك البويهي لا يقطع امرا دونه ولا يعين احد الا عن امرة واصبح اليه جباية الاموال ببغداد ،واصبح البساسيري الحاكم المطلق في بغداد وصار يلقب بـ))كافل الخلافة))،ولم يستطع الملك البويهي فعل شيء تجاه تمادي البساسيري في الامور ،فاراد الخليفة اصطناع شخصية تقف بوجه البساسيري سيما وان الخليفة اراد سحب صلاحيات البساسيري بالتدريج،فاختار ابن المسلمة،لكي يقف بوجه البساسيري،واغدق على الالقاب ،فلقبه بـ))رئيس الرؤساء ((و))جمال الورا وشرف الوزراء ((ومنحه صلاحيات واسعة ،حتى قال البساسيري مرة للخليفه العباسي)) :ما أشكوا إلا من رئيس الرؤساء،الذي خرب البلاد وأطمع الغز وكاتبهم ،وازدادت العلاقة توترا بين الخليفة والوزير من جهة والبساسيري من جهة اخرى ،فقد وقف الخليفة والوزير صراحة ضد البساسيري،اذ استقبلوا ابا الغنائم وابا سعد المحلبان ،وكانا حليفي قريش بن بدران العقيلي صاحب الموصل،اللذان قدما سرا إلى بغداد مولم يكشف ابن الأثير عن سبب الزيارة لهؤلاء الاشخاص الى بغداد،وبدأت المشاحنات تاخذ مداها بين الخليفة والوزير وبين البساسيري اذا اراد البساسيريالقبض على هؤلاء الاشخاص ،فلم يتمكن منهم،وبدأ كل طرف يحبك التهم والمشاكل للطرف الآخر)منع البساسيري سفينة لاقرباء الوزير من المرور في نهر دجيل الا بعد دفع الضريبة ،كما اسقط مشاهرات الخليفة والوزير من دار الضرب واحرق ناحيتي دمما لفلوجة اما الوزير فلم يقف مكتوف الأيدي تجاه تصرفات البساسيري وانما اثار العامة ضده الذين رفعوا شعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .فكسروا ما يقرب من 600جرة من الخمور العائدة الى ابي سعد النصراني كاتب البساسيري،نهبوا دور البساسيري ونوابه في بغداد (،وقد عبر الخليفة للملك الرحيم عن مخاوفه من البساسيري اذ تبين أنه قد كاتب الفاطميين)) :وان البساسيري خلع الطاعة وكاتب الاعداء،وإن للخليفة على الملك عبودا وله على الخليفة مثلها فان آثره فقد قطع ما بينهما،وان ابعده وأصعد الى بغداد تولى الديوان تدبير امره كما أمر الخليفة القائم بأمر الله الفقيه الماوردي بوضع كتاب في الفقه يحدد فيه صلاحيات. الخليفة ،ليكون دليل عمل لمن يأتي بعده ،ومبينا صلاحيات الخليفة الصحيح وضرورة الاستعانة بالآخرين لوضع حد لأماراتهم في مراقبة الامراء وضرورة الثورة عليهم اذا ما خرجوا عن الطريق لقد اتصل البساسيري بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله الملقب بابي تميم ،وطلب منه المساعدة العسكرية والمالية وان يساعده في طرد السلاجقة ،فاستجاب له الخليفة الفاطمي وارسل ممثلا خاصا من قبله وهو))المؤيد في الدين هبة الله بن موسى بن عمران الذي وصل الى الرحبة –تقع الآن في الجمهورية السورية للاشراف على العمليات العسكرية المؤيدة للفاطميين والمناهضة للسلاجقة والخلافة العباسية ،وقد استطاع هذا

الممثل من عقد تحالفات مع عددمن الامراء المحليين واغراهم بالخلع والألقاب،وهزم جيشا سلجوقيا في مدينة سنجار)تقع شمال غرب الموصل في العراق وهي احدى القلاع العسكرية المهمة في منطقة الجزيرة الفراتية،واتخذت موقعا عسكريا منذ العهد الروماني وما بعده (،وقد حرض البساسيري وزير السلطان السلجوقي على ضرورة الدخول في طاعة الدولة الفاطمية ،فرفض الوزير ذلك ،لكن البساسيري نجح في احداث انشقاق في البيت السلجوقي ،فتحج في احداث فجوة بين السلطان طغرل بيك واخيه ابراهيم ينال ،فخلت بغداد من الجيش . فدخلها البساسيري،وقتل الوزير ،ونهبت دار الخليفة وغادر بغداد الى حديثة ثم فرضت عليه الاقامة الجبرية في مدينة عنه)تقع غرب العراق على نهر الفرات شمال غرب مدينة الانبار ،وسيمار البساسيري على بغداد وواسط والبصرة ما يقارب العام وخطب للخليفة الفاطميى وبعد القضاء على ثورة ابراهيم ينال عاد طغرل بيك وسيطره على بغداد،ولم ينجد الخليفة الفاطمي البساسيري الذي كان في امس الحاجة المساعدة بسبب عدم ثقة الخليفة الفاطمي بالبساسيري،ولكون مصر تو بأزمة اقتصادية كبيرة سميت بالشدة العظمي ومن ثم ترك البساميري ليواجه مصيره المحتوم قرب مدينة الحلة الى الجنوب الغربي من بغداد (ويقل شر قتلة وبهذا تخلصت الخلافة العباسية والسلاجقة من خطر كبير كان يهددهما .

وبعد القضاء على حركة البساسيري تشغل طغرل بيك بتنظيم امور السلطنة ،ثم ادركته الوفاة في سنة 455هـ / 1063م ولم يكن له وريث العرش ،وكان طغرل بيك قد تزوج من امرأة اخيه جغري بيك بعد وفاته سنة 451هـ / 1059م ،فولدت له ولدا اسمه سليمان واستطاعت ان تؤثر في السلطان السلجوقي وان تجعله وليا للعهد وان تخطب باسمه بمساعدة الوزير أبي نصر الكندري ،لكن الب ارسلان حاكم خراسان وما وراء النهر لم يقبل بان يكون تابعا لأخيه الذي لم يبلغ الرابعة من العمر بعد ،فسار بقواته إلى الري بدعمه وزيره أبو علي حسن بن علي بن اسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك واستطاع ان يعيد الأمور إلى نصابها وأن يصبح سلطانا ويكون اخيه الصغير وليا للعهد

2-عصر السلطان الب ارسلان :

لكن الأمور لم تستقر لألب أرسلان فقد نار عليه احد اعمامه قتلمش بن اسرائيل ابن عم والده وسيطر على الري فسار اليه الب ارسلان وتخلص منه عام 456هـ 1064/م ،ثم ثار عليه عمه بيغو حاكم هراة لأنه رفض أن يكون تابعا لابن اخيه ،فتوجه اليه آلب ارسلان وأجبره على الاعتراف بحكمه وبالتبعية له .هذا قرر السلطان السلجوقي أن يضع بان نقرأ الخطبة باسمه حدا للتمردات الأسرية فوطد الحكم وعين ابنه ملكشاء وليا للعهد وامرومما عزز موقف السلطان السلجوقي ألب ارسلان وقوف الوزير نظام الملك إلى جانبه،صحيح ان بداية تولى نظام الملك للوزارة قد جاءت عقب مقتل الوزير الكندري الذي قال قبل مقتله برسالة وجهها للوزير نظام

الملك)) :قل لنظام الملك بنس ما عودت الاتراك قتل الوزراء واصحاب الديوان ومن حفر قليباًوقع فيه ((وقد ارتفعت مكانة الوزير نظام الملك كثيراًعند السلطان ألب ارسلان ،نتيجة لمواقفه المساندة للسلطان الب أرسلان فخلع عليه الخلع والاقطاعات كما ارتفعت مكانة ابناء نظام الملك كذلك لوجه السلطان ملكشاه رسالة إلى وزيره جاء فيها :ان كنت شريكي في الملك ويدك مع يدي في السلطنة فلذلك حكم ،وان كنت نائبي وبحكمي فيجب ان تشترم حد التبعية والنيابة وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة،وولي ولاية كبيرة،ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعو لي أن فعلوا كذا وكذا وعندما وصلت رسالة السلطان الى نظام الملك رد على السلطان رد من كان معتدا بنفسه) :قولوا للسلطان :إن كنت ما علمت اني شريك في الملك فاعلم فانك ما تلت هذا الامر الا بتدبيري ورأيي .....وان ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة،وان اتفاقهما رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة،ومتى اطبقت هذه زالت تلك ،فان عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه وليأخذ الحذر من الحادث امام طروقه قولوا للسلطان عني مهما أردتم ،فقد أهمني ما لحقني من توبيخه وقت في عضدي ((ولم يجرؤ السلطان السلجوقي على عزل وزيره بل أثر التخلص منه بسلام واتهمت الباطنية بقتله سنة 485هـ 1092/م فكر السلطان لم يعش بعده سوى خمسة وثلاثين يوماً. ذلك كانت في نية السلطان السلجوقي القيام باعمال عسكرية تجار الفاطميين الذين ابدوا حركة البساسيري من قبل موسيطروا على الشاء وهددوا دولة السلاجقة في العراق ،كذلك كان عليه أن يواجه الدولة البيزنطية التي بدأت بالتحرش بالدولة الاسلامية وبحدودها ورأت از الفرصة مواتية لها لإستعادة امجادها في منطقة الجزيرة الفراتية لكن هذ .الخطة لا يمكن أن تتم بدون تأمين حدوده الشرقية والجنوبية الشرقية فقرر الارتباط بحكامها برباط المصاهرة زوج ابنه ملكشاه بابنة خاقان ملك الخانيين وزوج ابنه ارسلان شاه بابنة صاحب غزنة وهكذا أمر جانب هذه الدول من أن تهدد ممتلكاته في الشرق والجنوب الشرقي فتفرغ لخطته المقبلة بالتوجه صوب بلاد الشام والدولة البيزنطية توجه السلطان ألب أرسلان على مدينة حلب بوصفها مفتاح بلا الشام وقاعدة للانطلاق الى الحدود البيزنطية والتي يحكمها محمود بر صالح المرداسي الكلابي الذي كان قد اعلن ولاءه للدولة الفاطمية في مصر وخطب لها على منابر حلب وهدد اطراف العراق الغربية وعنده علم حاكم جلب بتوجه السلطان السلجوقي البارسلان إلى حلب اعلم ولاءللخلافة العباسية،وخطب لها وطلب التقليد من الخليفة العباسي فوصله التقليد قبل وصول السلطان السلجوقي إلى حلب ،إذ ارسل الخلية القائم بامر الله مبعوثه نقيب النقباء الزيني،فطلب السلطان السلجوق حضور حاكم حلب بين يديه فارسل حاكم حلب ممثل الخليفة ليطلب إعفاءه من الحضور امام السلطان السلجوقي ،فرفض السلطان السلجوقي ذلك وحاصر حلب فغلت الاسعار واشتد الحصار على أهل حلب .فخرجت والدة حاكم حلب يصحبها ابنها وحضرا ليلا إلى خيمة السلطان السلجوقي الب ارسلان واعلن ولاءه للسلطان السلجوقي ،فخلع عليه السلطان وأقره على حكم حلب لم يكتف السلطان السلجوقي بالسيطرة على حلب ،وانما أرسل قواته جنوبا

فى فلسطين والرملة والقدس وضمها الى سلطته وحاصر دمشق الا انها صمدت له لكنه جعلها في وضع لاتحسد عليه ،فجميع المناطق المحيطة بها أصبحت تابعة للسلاجقة .بهذه الاعمال المدروسة والمتعقلة اصبح الباب مفتوحا امام السلطان لب أرسلان لكي يتوجه صوب المناطق الشمالية الغربية لإقليم خراسان حيث فتح بلاد الأرمن وسيطر على عاصمتهم القديمة أن ،وسيطر على جورجيا)بلاد الكرج (،وكانت هذه المناطق تشن الغارات على اراضي الدولة السلجوقية وتقف عائقا امام التوجه لفتح الأقاليم العربية من بلاد الاناضول والتوجه إلى القسطنطينية وفتح الطريق للتوجه إلى كبادوكيا و مناطق غرب عمورية .لقد اثارت هذه الاعمال التي قام بها السلطان السلجوقي أكتب أرسلان حفيظة الامبراطور البيزنطي رومانوسديوجينيس1067-1071)م -460 464هـ (الذي اعتبر المناطق التي سيطر عليها السلطان السلجوقي مناطق بيزنطية يجب الدفاع عنها فقاد جيشا كبيرا ضم كل قادر على حمل السلاح في الدولة البيزنطية والدول الخليفة معها من الروس والأرمن والبلغار واليونانيين والفرنسيين والجورجيين .و توجه شرفا باتجاه بحيرة وان فان) (وكان الب ارسلان قد فرق فواته في مختلف المناطق من الدولة السلجوفية ولم يكن معه سوى خمسة عشرالف مقاتل فاضطر الى التوجه لوقف الزحف الدرر تعطي ،وترك معون مواجهة جيش كبير بهذه الاعداد البسيرة و الدخول في مثل المعركة بعد عملاًالتداريا،فقرر طلب الصلح وعقد معاهدة .الامبراطور البيزنطي .لكن الامبراطور البيربطي رفض هذا العرض وقال ان قواته سوف لن تتوقف الا في قري عاصمة الدولة السلجوقية .فكان لابد من المواجهة وقرر مواجهة الامبراطور البيزنطي في يوم الجمعة والكد على جنده بالتحلي بالصبر والدعوة من الله بالنصر على الأعداء وافكار الحساس الديني في نفوس جنده ومناهم بالنصر أو الشهادة عن والجنة استنادا إلى ما وعد الله به المؤمنين في كتابه الكريم ونزل دابته ومرغ وجهه بالتراب منضرعافى الله سبحانه وتعالى أن يمن عليه بالنصر وجرت المعركة في ظروف غير متكافئة ،لكن الله من على الجيش الإسلامي بالنصر واتر الامبراطور البيزنطي وتشتت جاده وأصبح الآلاف منهم للرى لدى الجيش السلجوقي وسميت هذه المعركة بمعركة ملاذكرد وقد وقعت في سنة 463هـ 1071/م .وقد تم توقيع معاهدة صلح بين الطرفين،نصت على تهدئة لمدها خمسين سنة وأن يدفع الامبراطور البيزنطي الجزية عن نفسه الف الف وخمسمائة الف دينار (وعن سكان بلاده وان يعين الملاحقة بالجند اذا ما طلبوا منهذلك واطلاق جميع اسرى المسلمين الذين في الدولة البيزنطية نتائج معركة ملاذ كرد بعد معركة ملاذكرد من المعارك المهمة في التاريخ السلجوقي بخاصة وبتاريخ الصراع الاسلامي البيزنطي بشكل علم فهي تعطي دروسا عظيمة اكدتها الآيات القرآنية ((قَالَالذين تكون أنهم ملهوا الله كم من فقرة قَلِيلَةٍغَلَبَتْلِقَةٌكَثِيرَة باذن الله وَالله مَعَالصبرين))البقرة .249فعلى الرغم من الاستعدات الكبيرة والتدريبات التي استمرت لثلاث سنوات من قبل الجانب البيزنطي والجيش العظيم الذي حشدته الامبراطورية البيزنطية الا ان الله سبحانه وتعالى ،كتب النصر للمسلمين ولم يكتف المسلمون بالنصر فحسب بل اسروا رئيس الامبراطورية

البيزنطية وشتتوا جيشه العظيم الذي ظل يتباهى به امام الدول ولم يكتف بهزيمة جنده فحسب بل هزم معه جيوش الدول المتالفة معه ،وهذا يذكرني بالامبراطورنيوفيل بن ميخائيل الذي فعل الشيء نفسه عندما اغار على ملطية والمصيصة وبقية ،ومن بين النتائج المستخلصة نستنتج ما يأتي: استطاع السلاجقة من تأسيس موطيء قدم لهم في آسيا الصغرى بعد سيطرتهم على المناطق الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى وتوسعوا شيئا فشيئا حتى اسوا دولة سلاجقة الروم برئاسة سليمان قتلمش ب –حفزت هذه المعركة أوربا لإعلان الحروب الصليبية على المسلمين فتم تحشيد جهود كبيرة في أوربا من قبل البابا جريجوري السابع والبابا أوربان الثاني .عصر السلطان ملكشاه485-465 :هـ1092-1072/م تولى ملكشاه الحكم بعد مقتل والده ألب ارسلان في بلاد ماوراء النهر وهو يحارب الثوار الخانيين سنة 465هـ 1092 /م ورث دولة السلاجقة المترامية الاطراف ولم يكتف بما ورثه عن أبيه بل قرر مواصلة توسيع رقعة دولة السلاجقة لتشمل كل أرجاء العالم الإسلامي ومما عزز موقف السلطان السلجوقي وقوف الوزير نظام الملك إلى جانبه في كل اجراء اتخذه فاليه يعود الفضل في تأسيس المدارس النظامية في بغداد ونيسابور والمدرسة الحنفية في بغداد ،كما قام ببعض المشاريع الأروائية في العراق السلجوقي ملكشاء على القضاء على الدولة الناظمية وضرورة ضم كل صمم السلطان المناطق الخاضعة لسيطرتها،ولم ينس موقف الفاطميين المؤيد الحركة .البساميري فارسل حملات عديدة للسيطرة على كل بلاد الشام ،وتحولت انظاره صوب بلاد مصر عنها .ولم يفكر ضبط امور بلاد الشام ونظمها ،تحولت معقل الفاطميين وارسل جيشاًكبيراًدخل الأراضي المصرية وحاصر القاهرة،وكاد أن يفتحها المكن استمائة الفاطميين في الدفام مثل هذه الحملة السلجوقية صوب مصر السلاجقة بالتوجه إلى بلاد مصر مرة ثانية وقرروا الاكتفاء بالسيطر على بلاد الشام فقط ،واصلوا ادارتها محبت وضعوها تحت رعاية احد افراد السلطة السلجوقية،وهو تاج الدين تتش سنة 470هـ 1077/م وأمره بتوسيع حدود ولايته بان يفتح ما يستطيع فتحه من المناطق غير الخاضعة للسلطة السلجوقية وان يضمها إلى إمارته توجه تتش الى مدينة حلب لاستعادة السيطرة عليها وضب امورها،فقاد جيشاًوحاصر مدينة حلب بوطال الحصار حتى ضاق امور سكانها وارتفعت فيها الاسعار ،ولما عام الفاطميون بانشغال الجية السلجوقي بمحاصرة حلب،وجهوا جيشا للمطرة على مدينة دمشق واستعادة بلاد الشام ولما حاصرت القوات الفاطمية مدينة دمشو استنجد حاكمها بالامير السلجوقي نقش ،فاسرع اليه لنجدته فانسه الفاطميون عنها فدخلها الجيش السلجوقي بقيادة تتش في عام 1079/ 472م،واتخذها مقرا لإدارته وأسس فيها دولة ملاحقة بلاد الشام ولم يغفل السلطان السلجوقي ملكشاه عن بلادالأناضول دعا الجهود والده الب ارسلان وما حققه في معركة ملاذكرد،فعين أحد لبناء عمومته واليا عليها وهو سليمان بن قلمش في عام 470هـ 1077/م ،وامره بتوسيع نفوذه صوب المناطق التابعة للدولة البيزنطية سيطر على منطقتي أق سرا وقونية وبهذا تأسست لدينا دولة اخرى للسلاجقة في بلاد آسيا الصغرى هي دولة سلاجقة الروم موقتي استمرت في الحكم

حتى عام 700هـ 1300 /م .سعى سليمان بن قلمش إلى توسيع نفوذه باتجاه الجنوب الغربي من دولته التي مقرها قونية فتح مدينة انطاكية التي كانت خاضعة للروم البيزنطيين في ذلك الوقت،وكان فتحها مكسبا جديدا للسلاجقة الذين لطلوا بسيطرتهم على هذه المدينة على البحر المتوسط وحاول سليمان أن يوسع نفوذه أكثر وذلك بالتوجه إلى حلب التي هي من ضمن الملاك تنش،فوقع الخلاف بين السلاجقة،وقد قتل سليمان نتيجة هذا الصراع فاضطر ملكشاهالتوجه فى المنطقة وسوى الامور بين افراد الاسرة السلجوقية وسيطر في طريقه فى بلاد الشام على مدينة الرها التي كانت خاضعة للروم وافر نتش على الشام واقر اولاد سليمان على بلاد الأناضول " وقبيل وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه بحوالي الشهر اغتيل وزيره نظام الملك موقد اتهمت جماعة الحسن الصباح باغتياله بولو انه في حقيقة الأمر هناك أكثر من سبب لهذا الاغتيال منها سطوته الكبيرة على مقاليد الأمور وتنفذه وأولاده في إدارة الدولة السلجوقية،حتى لقد شكا ليه السلطان السلجوقي في رسالة شديدة اللهجة هذا التنفذ والتسلط فاجابهظام الملك قائلاً)) : إن ثبات تلك القلنسوة بهذه الدواء ،وان اتفاقهما. رباط كل رغيبة وسبب كل عليمة ومتى قطعت هذه زالت تلك فان عزم على تغييري فليتزود للاحتياط قبل وقوعه (فوجه السلطان ملكشاه رسالة إلى وزيره جاء فيها)) :ان كتب شريكي في الملك ويدك مع يدي في السلطنة،فلذلك حكم ،وان كنت نائبي وبحكمي فيجب أن تلتزم حد التبعية والنيابة وهؤلاء أو لكن قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولي ولاية كبيرة،ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا ((.. وعندما وصلت رسالة السلطان على نظام الملك رد على السلطان رد من كان معتدا بنفسه)قولوا للسلطان ان كنت ما علمت اني شريك في الملك فاعلم فلك ما ذلك هذا الامر الا بتدبيري ورأيي وان ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة وان اتفاقهما رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة،ومنى أطبقت هذه زالت تلك فان عزم على تغيير ليتزود للاحتياط قبل وقوعه وليأخذ الحذر من الحادث امام طروقه قولوا للسلطان علي مهما أردتم ،فقد أسمني ما لحقني من توبيخه وقت في عضدي ((،ولم يجروء السلطان السلجوقي على عزل وزيره بل أثر التخلص منه بسلام واتهمت الباطنية بقتله سنة 485هـ 1092 /م لكن السلطان لم يعش بعد سوى خمسة وثلاثين يوماً

ز –السلاجقة وعلاقتهم مع الخلفاء العباسيين لقد رأينا في فترة التسلط البويهي مقدار التجاوزات على الخلفاء العباسيين وكان البويهيون لا ينتمون لنفس مذهب الخليفة العباسي حيث انهم كانوا زيدية ولما جاء السلاجقة واحتلوا العراق وكانوا ينتمون لنفس مذهب الخلافة العباسية والذي من المفترض أن يعاملوا الخليفة العباسي باسلوب أفضل مما كان يعامله به البويهيين ،لكننا نجد أن الحالة سبان،حيث تعرض الخلفاء العباسيين إلى اشكال من الاهانات

والتجاوزات التي قام بها السلاجقة ضدهم،ومن هذه الممارسات :

ادخل السلاجقة عادة تقبيل الأرض بين يدي الخلفاء العباسيين،وهي عادة غير عربية كما ذكرنا ذلك عند الحديث عن التجاوز البويهي على الخلفاء ،وقد مارس هذه العادة السلطان طغرلبيك عندما دخل مدينة بغداد اثناء الاحتلال السلجوقي العراق ،كما مارسها في عام 449هـ 1057/م ،وكرر هذه الممارسة في عام 451هـ 1059/م ،وكان السلطان السلجوقي يتظاهر باحترام الخليفة العباسي امام الناس لأنه هو الذي يعطيه الشرعية في حكم العالم الإسلامي ،بالمنشور الذي يصدره الخليفة العباسي –2اثارة الفتن المذهبية :لابد المحتل من أن يثير الفتن المذهبية والطائفية لأنها سبب وجوده وسبب استمرار هذا الوجود ،ففي عام 475هـ 1082 /م ارسل نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه احد الوعاظ ليحاضر في المدرسة النظامية،فتعرض إلى معتقدات الناس ،مما اثار غضب الناس في مدينة بغداد،وتكرر هذا العمل في الاعوام 478هـ 1085 /م بين اهالي الكرخ والمحلات الأخرى ،وكذلك في عام 481هـ 1088م وفي عام 482هـ 1089 /م عين ابنه المستظهر بالله وليا للعهد فثارت ثائرة السلطان السلجوقي الذي قاد جيشا وتوجه به الى بغداد وهند بلقي الخليفة العباسي من الفائدة بغداد ووقعت الخلافة في مشكلة كبيرة لولا أن الوفاة ادركت السلطان السلجوقي ،وحلت تلك الأزمة السياسية هـ انتزاع التقويض بصلاحيات الخليفة عمل السلاجقة بكل ما في وسعهم من أجل السيطرة على الأمور في العراق وجني أكبر قدر من الصالهم،ومهما كانت جهة هذه الاموال ومصدرها،فأخذ السلاجقة يعيدون الولاة ويضمدونهم المناطق في مختلف أرجاء العراق بعد أن حصلوا هم على التعريض بحكم العراق وبقية المناطق الاسلامية من الخليفة العباسي الذي أغدق عليهم الألقاب التي طالما ما حلموا بها فقد خطب طغرلبيك في بغداد تحت اسم السلطان ركن الدولة ابا طالب محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين (كما كتب السلطان السلجوقي الب ارسلان في الخليفة العباسي أن يمنحه لقب الولد المؤيد (فلقيه الخليفة بب)ضياء الدين عضد الدولة (،وطلب السلطان السلجوقي ملكشاه من الخليفة أن ينعم عليه بلقب يستحقة قلقبه ملك الملوك عضد الدولة وتاج الملة عدة أمير المؤمنين (وطالبوا الخلافة العباسية بتقديم المال لهم حتى في لحرج الظروف التي كانت تمر بها الخلافة او الخليفة العباسي،فقد ارسل طمر لبيك وزيره عميد الملك الكندري إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يطلب منه مالاًكثيراًوهو في مجلس عزاء ابنه ذخيرة الدين محمد بن القائم ،مما أثار استياء الخليفة واهل بغداد من هذا التصرف المشين ،حيث لم يحدث أن طولب شخص بما عليه من مال في مجلس عزاء،فكيف بمطالبة الخليفة نفسه الذي لم يكن لديه المال بل ان كل المال اصبح بيد السلاجقة كما ضمنوا المدن والقصبات بمبالغ من المال فقد ضمنوا بغدر أكثر من مرة وواسط والبصرة ،كما سيطروا على واردات الدون وطلبوا ان تحمل الى الري بدلاًمن العراق،وسيطروا على أمور العراق الادارية بواسطة العميد المسؤول الاداري (او بوساطة الشحنة القار العسكري في بغداد (،وقد عبر الوزير نظام الملك عن سوء سلوك السلاجقة فقال) :بان (الامراء السلاجقة لا يتورعون عن ارتكاب عشر جرائم من أجل الحصول على دينار واحد).

ح الخلافة العباسية ومقاومة النفوذ السلجوقي لم يقف الخلفاء العباسيون والناس في بغداد موقف المتفرج على يجري في بلدهم اثناء الغزو السلجوقي وما رافقه من انتهاكات فيه دخول السلاجقة بغداد وسيطرتهم على أموال الناس ومنازلهم لحد الخليفة القائم بأمر الله على هذا التصرف ،وارسل الى السلطان السلجوقيطغرلبيك بان يوقف هذه الاعمال،فاضطر إلى التدخل واوقف اعما الذهب والسلب التي قام بها الجند السلاجقة واخراجهم من دو الناس كما امر الخليفة العباسي المقتدي بالله بطرد جميع الأتراك من حاشية تركان خاتون من بغداد بعد أن تعدوا بالضرب ع احد الافراد من سكان بغداد فاخرجوا في أقبح صورة من بغداد ولم يقتصر الأمر على الخلفاء العباسيين بل امتد غضب الشارع في بغداد ضد الوجود السلجوقي فجرت حالات من الغضب العارم ضد الوجود السلجوقي مثلما حدث سنة 447هـ1055/م وما حدث سنة 453 هـ 1061 /م وفي عام 461هـ 1069 /م ،حتى أنهم منعوا الخطيب من القاء خطبة الجمعة

الخلفاء العباسيين في عهد السيطرة السلجوقية :

يتناول هذا المبحث الخلفاء العباسيين قبل تولي الخليفة الناصر لدين الله حيث بدأت الخلافة في هذه المدة بأخذ زمام المبادرة لوضع حد للتسلط السلجوقي وذلك بالطرق السلمية والخلفاء هم : القائم بأمر الله والمقتدي بأمر الله والمستظهر بالله وبقية الخلفاء العباسيين

١.القائم بأمر الله :

هو ابو جعفر عبد الله بن القادر بالله ، وفي عهدة دخل السلاجقة بغداد ، ولد سنة احدى وتسعين وثلاثمائةمن الهجرة المباركة وامه ام ولد تعرف بـ قطر الندى ارمنية وقيل رومية ، كان القائم بالله جميلا مليح الوجه حسن الجسم ورعا دينا زاهدا قوي اليقين بالله . كانت له عناية بالأدب ولم يكن يرتضي أكثر ما يكتب من الديوان، فكان يصلح فيه اشياء، وكان مؤثرا للعدل والانصاف يريد قضاء حوائج الناس، لايرى المنع شيء يطلب منه استوزر ابو طالب محمد بن ايوب وأبو الفتح بن دارست ، ورئيس الرؤساء وكان قاضيه ابن مأكولا وأبو عبد اللبهالدامغاني توفي سنة سبع وستين واربعمائة من الهجرة الظاهرة على صاحبها افضل الصلاة والتسليم

٢. اما المقتدي: فهو أبو القاسم عبدالله بن محمد بن القائم بأمر الله ولد يوم الاربعاء ثامن جمادى الأولى سنة ثمان واربعين واربعمائة ، وامهام ولد أرمنية تعرف بـ ارجوان وتدعى بـ قرة العين. وقد ادركت ارجوان خلافة حفيدها المسترشد بالله. وقد بويع بالخلافة. في صبيحة الليلة التي توفي فيها جده القائم بأمر الله وهو يوم الخميس شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة وعمره تسع عشرة

سنة وشهور .وجلس في دار الشجرة وحضر بيعته الوزير وكتاب الدواوين والقضاة والعدول ونقيب الطالبيين أبو الغنائم المعمر بن محمد بن عبيد الله وعامة الناس.تولى الخلافة وطريق الحج مقطوع منذ سنة ٤٣٠هـ/١٦٠م .ولم يحج الا من غرر بنفسه ، حت تم اعادته في عهده. وله من الأقوال الحسنة((وعد الكرماء الزم من ديونالغرماء)) و ((الالسن الفصيحة انفع في الأمور من الوجوه الصبيحة)) و ((حق الرعية اللازم الرعاة وقبيح بالولاة الاقبال على السعاة)) و ((العدليغني عن جمع العساكر ويمنع مال اتمنع الحصون)) وقد جمع في أيمه العمل بالشريعة وتنزيه دولته من المور الفظيعة . وكان أبيض تام الطول رقيق المحاسن محسن الشمائل نقش خاتمة (من توكل عليه كفاه) وكان مهيبا مرهوباً شجاعاً ذا همة عالية ونفس شريفة وكانت أثار الخير في أيامه ظاهرة والسيرة حميدة توفي فجاءة في الخامس عشر من محرم سنة سبع وثمانين واربعمائة. وكتم موته ثلاثة ايام وتولى ابنه المستظهر بالله الخلافة من بعده. واستوزر فخر الدولة ابو نصر بن جهير ثم ابو شجاع وعمد الدولة أبو منصور أبنجهير، كانتايامه كثيرة الخيرواسعة الرزق وعظمت وقته الخلافة اكثر مما كان قبله ونعمرت في بغداد محال كثيرة .البصلية والقطيعة والحلبة والمقتدية والاجمة ودرب القيار وخربة ابن جردة وخربة الهراس والخاتونيتين ، كما أمر بنفي المغنيات والمفسدات من بغداد، وبيع دورهن ، فنفين، ومنع الناس ان يدخل احد الحمام الا بمأزر ، وقلع الهرادي والابراج التي للطيور ، ومنع من اللعب لأجل الاطلاع على حرمن النساء، ومنع من اجراءماء الحمامات الى دجلة (المحافظة على البيئة) والزم اصحابها بحفر آبار للمياه وامر من يغسل السمك المالح أن يعبر الى منطقة النجمي ليغسله هناك حفاظا على الناس من التسمم بفضلات الاسماك ، ومنع الملاحين أن يحملوا النساء والرجال سويا عند عبور النهر ، فضلا عن كونه قوي النفس عظيم الهمة من رجال بني العباس.

٣- أما الخليفة المستظهر بالله:

فهو ابو العباس احمد بن عبد الله المقتدي بالله ولد ليلة السبت ثامن عشر شوال سنة سبعين وأربعمائة، وامه ام ولد يقال لها ((گلبهار)) وكان ابيض مشرب بحمرة ونقش خاتمه ((ثقتي بالله وحده)) وكان سخي النفس مؤثراً للإحسان حافظاً للقرآن الكريم ،محباً للعلم ، من افصح الناس لساناً واحسنهم نظماً وأوفرهم فضلاً وكرما ، اذا دعي الى خير اجاب واذا طلب منه الانعام جاد به ذاكراً للآخرة ، مسارعاً الى كل حسن وله اقوال مأثورة نقتطف منها : ((ذخائر المرء لدنياه ذكر جميل ولآخرته ثواب جميل)) و ((البذل من صفات الاكارم والضن من صفات الألائم)) و ((بضاعة العاقل لاتخسر ، وربحها يظهر في المحشر)). ووقع في طلب شفاعة : ((شفاعتك مقبولة ، وعراض أمالك العيوب عنايتك مطولة)) وكان ينظم الشعر ومنه:

أذاب حر الهوى في القلب ما جمدا يوماً مددت على رسم الوداع يدا

فكيف اسلك نهج الاصطبار وقد أرى طرائق في مهوى الهوى قددا

وكان الخليفة المستظهر بالله لين الجانب كريم الاخلاق يحب ويفعل الخير ويسارع الى اعمال البر والمثوبات مشكور المساعي لايرد مكرمة وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ الى سعاية ساع ولا ملتفت لقوله ولم يعرف عنه تلون وانحلال عزم باقوال اصحاب الاغراض. كانت ايامه ايام سرور للرعية فكأنها من حسنها اعيادو كان اذا بلغه ذلك فرح وسره واذا تعرض سلطان او نائب له لاذى احد بالغ في انكار ذلك وازجر عنه كان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقرية فيها احد. يدل على فل غزير وعلم واسع وقد تزوج الخليفة المستظهر بالله بابنة السلطان السلجوقي ملكشاة وهي اخت السلطان محمد وزفت اليه في رمضان سنة ٥٠٤هـ| ١١١٠م وزينت بغداد فرحا بهذا المناسبة وفرح الناس فرحا لم يشاهده من قبل . وتوفي ليلة الخميس الرابع عشر ربيع الاخر من سنة اثني عشر واربعمائة..

٤. الخليفة المسترشد بالله: هو ابو منصور الفضل بن احمد بن عبدالله المقتدي بالله . ولد يوم الاربعاء رابع عشر ربيع الاول من سنة خمس وثمانين واربع مائة . وأمه أم ولد اسمها (اقبلان)بيعة الخلافة في صبيحة يوم الخميس وبايعة الناس كافة ماعدا اخاه أبا الحسن عبد الله كان اسمر اللون رقيق البشرة ونقش خاتمه((من توكل عليه كفاه)) سمع الحديث من مؤدية أبي البركات ومن أبي القاسم على بن احمد بن بيان وحدث فيخلافته. وهو آخر من روى خطيباً من الخلفاء كان فالا وتوقيعاته بليغة منها ((حمامة الملك مغنية علينا واعين الأمة طامحة الينا)) وقال عندما حارب دبيس ((اشم روائح النصر من خفقان البنود والمح شخص الظفر من خلال السعود))

وقد استطاع الخليفة المسترشد بالله من تعبة العامة والتي منحته ولاءها المطلق والتفت حوله لدعم الخلافة في تحقيق استعادة مجدها الذي جردها من السلاجقة وتولى اتجاه العالم الإسلامي فعلى سبيل المثال فقد هدد دبيس بن صدقة– امير الامارة المزيدية في الحلة – في سنة ٥١٦هـ| ١١٢٢م بمهاجمة بغداد فأخرج الخليفة السرادق ((ونودي النفير فامير المؤمنين خارج إلى القتال عنكم يا مسلمين)) .

ومن خلال التزامه بقيم الإسلام ومبادئه التي سعت الى ترسيخها في المجتمع فقد استعان بالفقهاء لاستحصال الفتاوي اتي اعطت بموجبها المسوغات الدينية للعامة في مواجهة اعدائها ففي بداية عام ٥١٩هـ|١١٢٥م خرج مع الخليفة لمواجهة الملك طغرل السلجوقيودبيس بن صدقة ((ونحو من ثلاثين ألف شاب بعضهم بالسلاح والأخر رماة البدق وبعضهم بأيديهم المقاليع)) . كما حلول السلطان السلجوقي محمود على دخول مدينة بغداد

عنوة، فاحتج الخليفة ازاء هذا التصرف. وعبر الخليفة في الجانب الغربي من بغداد و((وبكى الناس جميعهم بكاءعيما لم يشاهد مثله)) ووقفوا يسبون السلطان والأتراك) وهو أول من قال السلاجقة بالجيش فقد قاد الخليفة جيشاً عباسيا وهزم الخليفة المسترشد بالله في سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٨م إلى الجيش السلجوقيلية السلطان محمود بن على المؤرخ البنداري على هذا

فقال ((فعزم على الحركة واندفع كالشيل ...ولم يترك الترك وردا الا شوهوه ولا حسناً إلا شوهوه ولا ناراً إلا أرشوها ولا داراً إلا بعثوها ، ولا عصمة إلا رفعوها ولا وصمة إلا وصفوها ... فما جاءوا إلى عدة إلا ملكوا مالكها ، وملأوا مسالكها ، وأرعبوا ساكنيها وغلبوا ولاتها ولوها الغلب وأزوروا الى الزور وأشاعوا اليد بالغارة السوداء)) . وفي سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م انتهك جند السلطان السلجوقي محمود دار الخلافة فاستاء الناس فاجتمعوا) ونادوا الغزاة فأقبلوا من كل ناحية)) وكان مع الخليفة في مواجهة السلطان محمود في هذه السنة ثلاثون الف مقاتل من منطو اهل بغداد والسواد)).

وقد واصل الخليفة المسترشد بالله سياسته القائمة على مقاومة النفوذ السلجوقي والتخلص منه فبعد وفاة السلطان محمود في ٥٢٥هـ / ١١٣١م، أقيمت الخطبة للسلطان مسعود بن محمد بن لكشاه حيث دارت صراعات عديدة بين ابناء البيت السلجوقي حول زعاما الاسرة والسلطنة السلجوقية في بغداد. وقد بين لنا الخليفة العباس موقفه من السلاجقة فقال : ((فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغو علينا ، ((فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)) القرانالكريم : الحديد /آية ١٦)

واستكمالاً لإستعدادات الخلافة لمواجهة السلاجقة فقد قام الخلية ببناء سور مدينة بغداد الشرقية (بغداد الغربية تعرف بمدينة المنصور.

المدينة المدورة ، وتعرف بالكرخ ، اما بغداد الشرقية فتعرف بالرصافة ، وقد اتخذها الخلفاء العباسيون مقرا لإقامتهم بعد رجوعهم من مدينة سامراء في نهاية خلافة المعتمد على الله، وهذا السور يعد من الاعمال الجليلة للخليفة المسترشد بالله ، وقد حمى هذا السور مدينة بغداد من هجمات عديدة تعرضت لها فيما بعد ، كما قام الخليفة باجراءات عديدة كانت تهدف إلى رفع الظلم عن الناس واقرار الحق قدر المستطاع فجذبت اليه هذه الاصلاحات كثيرا من العامة . واستوزر المسترشد بالله ابو شجاع محمد بن الربيب ابو منصور وزير السلطان السلجوقي محمود وعزل قاضي القضاة عن نيابة الوزارة.

وخرج الخليفة المسترشد بالله لملاحقة عماد الدين زنكي في الموصل ثم توجه الى بلاد خراسان ، وفي مدينة همدان حيث اشتبك مع جيش السلطان السلجوقي مسعود ، وعندما علم السلطان السلجوقي بمقدم الخليفة

العباسي على رأس جيش لمحاربته ، علم ان لاقدرة له على مواجهة الخليفة ، لمكانته الدينية لدى المسلمين ، فلجأ الى الطرق الملتوية والخداع، فراسل من كان مع الخليفة من السلاجقة ، فانحازوا اليه ، وبذلك ضعف موقف الخليفة العسكري ، وانهزم الجيش الذي يقوده الخليفة ووقع الخليفة في الاسر هو ونقيب الطالبيين علي بن المعمر ، و الوزيرابو القاسم علي بن طراد الزينبي ، وقاضي القضاة علي بن الحسين الزينبي وصاحب المخزن ابو الفتوح بن طلحة ، وكاتب الانشاء ابو عبد الله بن الانباري . وقد ارسل الجميع الى القلاع ، ونصب الخليفة اسيرا إلى مراغة حيث قتله بالتواطؤ الباطنية مع في معركة دايمرج ، ويعود سبب الخليفة المسترشد بالله من قبل السلاجقة إلى انه كشف خيانة اخت سلطان سنجر مع احد الشبان في بغداد ، وفضح الأمر لأنها زوجة أبيه لا يجوز للرجل الشريف ان يرضى بالمهانة في بيته وهذا هو السبب الحقيقي لقتل الخليفة فلو اراد، سنجر حفظ كرامة الخليفة وتدارك الأمر. الأمر ابن اخيه مسعود بالاعتذار للخليفة مما وقع ، واعادته معززاً مكرماً الى بغداد ، ولكن طبع، الغدر غلاب كما يقول المثل المصري

٥- الخليفة الراشد بالله :

هو أبو جعفر منصور بن الفضل المسترشد بالله ولد سنة اتش وخمسمائة ، وامه ام ولد يقال لها جلنار وبعد وصول نبأ استشهاد والده على يد السلاجقة والباطنية المتواطئين معهم ، الى بغداد حضر القضاة وبنو هاشم ونقيب الطالبين الى دار الخلافة وبايعوه بالخلافة ، وأول ما أمر به الخليفة المسترشد بالله ، هو اصداره أمراً بأن لا يظلم أحد أحد ومن كانت له ظلامة فليكتبها الى الديوان العزيز وخطب له أول جمعة في بغداد فقط ولم يخطب للسلطان السلجوقي في بغداد وانهزم من كان في بغداد من اصحاب السلطان مسعود لمعرفتهم بما سيحل بهم أن رفعوا ساكناً بأي أمر

كان أبيض مشرب بحمرة ونقش خاتمه ((من للمال)) أيقن بالانتقال عمل ، وكان جميل السيرة، حسس الطوية لرعيته كثير الميل إلى العدل، كارها للفتن محبا للأمن وله اقوال منها : ((لو تركنا لما أوجفنا الخيل ولا تبطنا الليل)) و ((انا ذكره الفتن إشفاقاً على الرعية وتؤثر المدل والأمن في البرية، ويأبى المقدور إلا أن تصعب الأمور واختلاط الجمهور فنسأل الله العون على لم شعث الناس باطفاء نائرة البأس)) وله شعر حسن منه

ساقتضي من زملي ديوني إن أخرتني ريب المدون

ولست بالراشد إن لم انتخي لهاشم عن حسبي وديني

الأستثيرن لمرشدكم من عصبة قد مرقو عن ديني

قد كفروا بعد إسلامهم حتى يقيني منهم يقيني

ولم يرق للسلاجقة تولي الراشد بن المسترشد بالله توليه الخلافة فعمدوا إلى خلعه واجبروا القضاة على اصدار فتوى بخلعه ، فخلع بعد سنة من توليه الخلافة ، فتوجه إلى الموصل (تقع شمال العراق) ثم الى مراغة تقع شمال غرب ايران في اقليم الربيجان واصبحت احدى مراكز الحكم في العصر المغولي بعد سقوط بغداد على يد المغول) وزار قبر والده المسترشد بالله في مدينة اصبهان (تقع الآن في جمهورية ايران الاسلامية)، وقد سعى السلاجقة الى اضعاف الخليفة الراشد بالله بشتى الوسائل وقاموا بتحديد صلاحياته فقال السلطان مسعود : ((لا اريد ان يجلس إلا من لايداخل نفسه في غير أمور الدين ولا يجدد ولا يتخذ ولا يجمع ، ولا يخرج علي ولا على اهل بيتي . وقد اجاز السلطان السلجوقي لنفسه خلع الخليفة اذا خالف هذه الشروط، كما جردوه من أي مبلغ من المال وطلبوا منه أضعاف ما يملك وما تملكه الحزينة الفارغة (الف الف دينار) في ولكن على الرغم من قلة هذه الامكانات المالية التي تعد اساسا ، المواجهة واعداد الجيش الا ان الخليفة الراشد بالله تمكن من طرد ممثل السلطان السلجوقي والشحنة من بغداد بما جنده من جند وبتعاون امراء الاطراف معه فاضطر السلطان السلجوقي الى التوجه إلى مدينة بغداد موقد استعد له الخليفة الراشد بالله لكن عندما حصلت المواجهة تخلى عنه المراء الاطراف الذين لم تكن لهم مصلحة بالوقوف الى جانب الخليفة فتخلوا عنه فاضطر الى مغادرة بغداد الى الموصل لكن السلطان السلجوقي لم يمهله كثيرا فجمع الفقهاء والعلماء واجبرهم على اصدار فتوى ضده لأنه حارب السلطان السلجوقي وقتل على يد الملاحقة سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧ واتهم السلاجقة كالعادة الباطنية بقتله . ودفن فيالموضع المعروف بشهرستانه .

٦ – الخليفة المقتفي لأمر الله:

هو محمد بن المستظهر تولى الخلافة بعد عزل الخليفة الراشد بالله من قبل السلاجقة سنة ٥٣٠–٥٥٥هـ / ١١٣٥–١١٦٠م ولقب بالمقتفي الأمر الله ، وقد حرص السلطان السلجوقي مسعود على تجريد الخليفة المقتفي لأمر الله من كل شيء مما يعزز سيطرته على مقاليد الأمور في المستقبل فقام السلطان السلجوقي بمصادرة جميع ما في دار للخلافة منخيل وسلاح واموال وسلب أموال الخليفة الجديد حتى باع عقاراته ، كما سيطر السلطان السلجوقي مسعود على دار الضرب في بغداد .

لكن الخليفة المفتقي لأمر الله لم يرضخ لحالة العجز هذه قبل ظل يراقب الأمور عن كتب وعندما هرب سحنة بغداد السلجوقي من بغداد مع بعض قادة السلاجقة مكتب الخليفة رسالة إلى السلطان السلجوقي يخبره بواقع

الحال وان بعداد اصبحت بدون جند للدفاع عنها اذن له السلطان السلجوقي بأن يتخذ الجند للدفاع عن بغداد وبدأ الخليفة منذ هذا التاريخ يعاونه وزيره القدير يحيى بن هبيرة معتمدا على عامة الخلافات أهل بغداد .

وقد وصف المقتفي لأمر الله بانه كان عادلا – حسن السيرة من الرجال ذوي الرأي والعقل الكثير وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من أول الديلم على الأن واول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره واصحابه حين تمكن من الخلافة وحكم على عسكره واصحابه حين تحكم المماليك على الخلفاء منذ عهد المستنصر إلى الآن الا ان يكون المعتضد وكان شجاعاً مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الاخبار في جميع حتى كان لايفونه منها شيء.

وقد شكلت وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م، نقطة انطلاق الخلاقة العباسية الإستعادة قوتها وسيطرتها وسلطانها، فاستكثر الخليفة المقتفى لأمر الله من الجند وسيطر على

ممتلكات السلاجقة في بغداد بعد أن عرب شحنة السلاجقة الى تكريت

وتمكن الخليفة بما توافرت عنده من قوات الجيش من استعادة فرض سيطرته ونفوذه على أغلب مدن العراق سيطر على مدن الكوفة والحلة والبصرة وقد حاول السلاجقة فرض سيطرتهم على بغداد وحاصرها محمد شاه السلجوقي الا ان صعود الخليفة ومساعدة الجيش واهل بغداد لعمل خطة السلاجقة لاستعادة احتلال بغداد فاضطر الجيش السلجوقي لى الانسحاب منها بعد حصار دام ثلاثة أشهر لبغداد وكان ذلك بداية النهاية لنفوذ السلاجقة في بغداد موقد اشاد كل من كتبوا عن هذه الفترة بالخليفة المقتفي لأمر الله

٧– الخليفة المستنجد بالله

تولى الخلافة بعد وفاة والده المقتفي لأمر الله سنة ٥٦٦هـ/١١٦٠–١١٧٠م وهو يوسف بن المقفي لأمر الله دوامه ام ولد تعرف بـ طاووس وقيل نرجس وحاولت زوجة ابيه قتله وتوليا

ابنها أبو على الخلافة بدلا من المستنجد ولى العهد الأصيل لكنه فشلت حان في ذلك وسار على سياسة والده القائمة على التخلص من النفوذ السلجوقي، وقد طلب منه المتلاحقة اقامة الخطية لأرسلان شاه بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه مولن تعود المياه الى مجاربها السابقة بين السلاجقة والخلافة العباسية برفض طلبهم واعيد مبعوثئهم على أقبح صورة كما اتبع الخليفة المستنجد بالله وهي مقاومة النزعات الانفصالية داخل العراق فقد قضى على احفاد صدقة بن مزيد في الحلة وطرد بني اسد من مناطق نفوذهم وقدمها بين الأسرة الزنكية لكن

هذه السياسة التي دها سار عليها الخليفة المستجد بالله لم ترق لبعض الأمراء فإغتالوا الخليفة في قصره سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م

وكان المستنجد بالله من احسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، عادلا فيهم كثير الرفق بهم، وأطلق كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيئا وكان شديدا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس

٨- الخليفة المستضيء بأمر الله : ٥٦٦-١١٧٠/٥٧٥ ١١٧٩م:

تولى الخلافة بعد مقتل الخليفة المستنجد بالله وامه ام ولد ارمنية تدعى غضة وكان عادلا حسن السيرة في الرعية ، كثير البذل في الاموال غير مبالغ بما جرت عليه العادة بأخذه ، وكان الناس معه في اس عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قبل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا حتى

قال فيه الشاعر :

كان أيامه من حسن سيرته مواسم الحج والاعياد والجمع

استوزر عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء ، وتولى بعده الوزارة شرع ظهير الدين ابو بكر كمصور بن نصر المعروف بابن العطار

وفي هذه الفترة لم يحاول السلاجقة التعرض للعراق وذلك لعدة اسباب منها بوصول السلاجقة الى حالة من الضعف بحيث سيطر عليهم الاتابكة ، كما ارتفعت مكانة الخليفة العباسي بسيطرة صلاح الدين الايوبي على مقاليد الأمور في مصر وهو والقضاء على الخلافة الفاطمية فيها، واعلان الخطبة للخليفة العباسي في مصر وهو ابو محمد الحسن بن المستنجد بالله ولم يتفق أن تولى الخلافة من اسمه الحسن الا الحسن بن علي ابن ابي طالب رضي الله عنه .

علاقة الخلافة العباسية مع الامارات والدول الخارجية

في سنة ١٣٥هـ / ١٠٤٣م لظهر المعز ببلاد افريقية الدعاء للدولة العلمية وخطف للأمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين ووردت عليه الخلع والتقليد ببلاد افريقية وجميع ما يفتحه يوفي أول الكتاب منع الرسل من عبد الله

ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد ثقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الانام ناصر دين الله فاهر اعداء الله ومؤيد سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أبي تميم المعزز بن باني بن المنصور ولي أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتحه سيف امير المؤمنين))

وعندما قامت دولة المرابطين ٤٤٨-٥٤١هـ / ١٠٥٦-١١٤٦م لم يعترفوا بالخلافة الفاطمية وطلبوا التقليد من الخليفة العباسي يحكم المغرب والأندلس وارسلوا وفدا إلى بغداد موقد ورد يوسف بن تاشفين على من دعاء للبيعة الى نفسة فقال : ((حاشا لله ان تتسمى بهذا الاسم انما تسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة وانا راجلهم والقائم بدعوتهم وقد خطب للخليفة المقتدي بالله وارسل اليه وفدا طالبا التقليد بالأندلس وافريقية فوصل الوفد الى بغداد فوجد أن الخليفة المقتفي بالله قد توفي وتولى ابنه المستنصر بالله حيث أجابهم إلى طلبهم واعطاهم تقليدا بحكم المغرب والأندلس.

لكن الحال تغير بتولي الموحدين الحكم في بلاد المغرب والأندلسي ((٦٦٧-٥٢٤هـ / ١١٢٩-١٢٦٨م) حيث لم يعترفوا بالخلافة العباسية رغم أن محمد بن تومرت قد درس في المدرسة النظامية وأعير بدراستها ومناهجها ، و عندما تولى محمد ابن تومرت الحكم محاولا يخالف كل ما جرى في عهد المرابطين ومن بينها عدم الاعتراف بخلافة العباسيين فتسمى بأمير المؤمنين سنة ٥٢٨هـ / ١١٢٣م وعندما يحيى بن غانية الميورقي على الموحدين دعا للخليقة العباسي وقد أرسلت له الخلافة التقليد مع الشاعر الفقيه ابو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الاسكندرني وعاد هذا الشاعر الى بغداد محملا بالهدايا ومعه عشرة آلاف دينار فرقها في اصحابه .

وعندما ثار محمد بن يوسف بن هود الجدامي على الموحدين في الاندلس في سنة ٦٢٥/١٢٢٧م دعا للخليفة العباسي المستنصر بالله وسيطر على أجزاء كبيرة من الاندلس وقد وصله التقليد من المستنصر بالله العباسي فقرأ التقليد في مدينة ابذه ولبس السواد. اما عن العلاقة مع بلاد الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة. المنورة فقد كانت العلاقة ودية بين الاثنين ، واستمرت على ذلك حتى به احتلال السلاجقة للعراق وبعد وفاة الخليفة القائم بأمر الله ارسل الخليفة الفاطمي إلى أمير مكة المكرمة والمدينة المنورة رسالة جاء فيها : ايمانك وعيونك كانت للقائم والسلطان الب ارسلان وقد ماتا، فخطب له بمكة وقطعت خطبة المقتدي بالله واعيدت للعباسيين . ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م وظلت العلاقة متذبذبة وخاصة اثناء قيام دولة لمرنة الحسن بن على وكانوا يخطبون تارة للفاطميين وتارة لبني العباس تبعا لقوة هذا الخليفة أو ذلك ولكن في سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م ارسل الخليفة المقتفي بأمر الله إلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم بباب صاج زين ونقش بطريقة جميلة وامره أن يجعله على باب الكعبة المشرفة وان يأخذ على الباب القديم له أي ما عليه من الفضة)، وأن يرسل له الباب القديم مجردا لكي يعمله تابوتا يدفن فيه عند وفاته وقد امتثال امير دولة الهواشم للخليفة وابدل الباب القديم بباب جديد

وقد تكررت الوفود بين الخلافة العباسية ودولة الهواشم خاصة بعد سقوط الدولة الفاطمية في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وحتى بعد قوط دولة الهواشم في مكة المكرمة وقيام دولة بني قتادة بحكم الحجار وهي أسرة علوية من ذرية الحسين بن علي (ع) استمرت تلك العلاقة الطيبة وخطب في الحرمين الشريفين للعباسيين فقد جاء في اخبار سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م أن الخطبة قد قطعت في بلاد الحرمين الشريفين عن الدعوة للفاطميين وخطب للخليفة المقتدي بالله وقد حافظ كل الخلفاء العباسيين على هذه العلاقة الطيبة بين الاثنين لما لها من اهمية العلاقات بين الطرفين ولكون فيهما الحرمين الشريفين. اما عن العلاقة بلاد اليمن فقد كانت الخطبة فيها قبل سنة ٤٦هـ / ١٠٦٩م للفاطميين، وفي هذه السنة قطعت الخطبة عن فاطميين واصبحت للعباسيين وقد وفد رسول صاحب اليمن البغداد و اوضح أن أهل اليمن خطبوا للسلطان السلجوقي والخليفة القائد بأمر الله. ثم حكمت في هذه الفترة الدولة الصليحية التي مدت نفوذه إلى تهامة. فاستجد حاكمها بصلاح الدين الأيوبي الذي ارسل جيشا بقيادة اخيه توران شاه فسيطر على المنطقة وجعلها تابعة للأيوبيين الذين : بدورهم تابعين للخليفة العباسي في بغداد. واثناء قيام الدولة الرسولية في اليمن اصبحت العلاقات ودية بين الخلافة العباسية وبين بني رسول واصبحت تبادل الهدايا والرسل والخلع وعهود التقليد بين الاثنين. اما عن العلاقة مع بلاد الشام ومصر فلم تكن العلاقة حسنة بين الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية بسبب الاختلاف الفكري بين الاثنين وهدف كل واحد منهما أن يعد نفوذه وسيادته على بلاد الشام نظرا لأهميتها ومكانتها الاقتصادية والسياسية والدينية ، وكان ابتداء الخط للعباسيين في بلاد الشام في سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م بحلب وخطب للخلي القائم بأمر الله . ولكن بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، اصبحت بلاد الشام ومصر بشكل أو بآخر تابعة للخلافة العباسية ،وذلك بسيطرة صلاح الدين الأيوبي عليها ، وكان صلاح الدين الأيوبي كلما فتح بلد وحرره من الصلبيين بعث الى الخليفة العباسي يبشره بهذا النصر على الصليبيين وسعى كل ملوك بنتي ابوب الى استرضاء الخليفة العباسي والحصول منه. على التقليد بحكم مصر او بلاد الشام او أي مدينة أو منطقة بعد تفكير الدولة الايوبية.

الفصل الثالث

عصرضعف السلاجقة وبداية الحروب الصليبية ١١٨٠-١٠٩٢/-٥٧٥-٤٨٥

عصر ضعف السلاجقة منذ وفاة ملكشاه وحتى خلافة الناصرلدين الله:

شكل حكم السلطان السلجوقي ملكشاه عصر قوة السلاجقة ، وعهد تهم وتحكمهم في امور الخلافة العباسية وكان عهده عهد توحد الاسرة السلجوقية ، إذ لم تشهد الاسرة السلجوقية أية انقسامات طفت على سطح ما عدا ما حدث بين تاج الدين تتش وبين سلاجقة الروم كما سلفنا عند التكلم عن تلك المدة، وهابت الدولة السلجوقية القوى المحلية الدول المجاورة ، ولم يؤخذ عن حكم السلطان السلجوقي ملكشاه إلا ماخذ احد وهو تدخله من اجل تعيين حفيده من ابنته جعفر لكن الخليفة المقتدي بالله رفض ذلك واصر على عدم تعيين ابنه جعفر وليا للعهد ، طلب منه ملكشاه مغادرة بغداد ، غير أن الخليفة العباسي رفض هذا الأمر حلت المشكلة كما مر بنا بوفاة السلطان السلجوقي ملكشاه .خلف السلطان السلجوقي ملكشاه تركة ثقيلة من المشاكل واهمها مكلة ولاية العهد التي لم يتوصل لحلها ، لحسم أمور كثيرة داخل الأسرة السلجوقية الحاكمة ، التى كانت غالبا ما تتمسك بتقاليدها القبلية ، وهي ضرورة أن يكون الرجل الأكبر في الأسرة هو الحاكم الفعلي للأسرة وعلى الجميع الخضوع له انطلاقآ من مبدآ قبلي قديم يعتقد به السلاجقه حيث يولى الرجل الكبير قياده القبيله عندهم

عصر بركياروق بن ملكشاه: ٤٨٥-٤٩٨هـ /١٠٩٢-١١٠٤م

تولى بركياروق رئاسة الاسرة السلجوقية ، بعد وفاة والده ملكشاه لكنه لم يهنأ بما ترك له والده من ادارة دولة مترامية الأطراف ، فعادت المشكلة من جديد وهي المنافسة بين الاعمام وابناء الاخ فضلاً. الاخوة انفسهم. وقد ادى مع كل طرف عناصر مستفيدة من هذا الصراع ، ولم يعن هؤلاء الا بتلبية مصالحهم الخاصة مفضلينها على مصالح الدولة السلجوقية وعلى مصالح البلاد الإسلامية التي أخذت تهددها الاعمال العدوانية الخارجية وتحالف دول أوربا في ذلك الوقت التي كانت تمهد لغزو البلاد الإسلامية عبر ما يعرف بالحروب الصليبية لم يستطع بركياروق تولي مقاليد الأمور بعد وفاة والده الذي كاز متوجها إلى بغداد لإرغام الخليفة العباسي على تنحية ولي العهد وتنصيب ابن بنت السلطان السلجوقي ملكشاه وليا للعهد . فقد سعت زوجة السلطان السلجوقي التي كانت مع زوجها في حملته على بغداد، إلى عدد من الاجراءات التي تمكنها من تنصيب ابنها ولياً للعهد حيث ضمنت موافق القادة السلاجقة وكبار موظفي البلاط السلجوقي على هذا الأمر ، فضلا عن السعي لاستصدار منشور من الخليفة العباسي يقر بموجبه ابنه سلطاناً على السلاجقة. وقد تم لها ما أرادت ، فنصب

ابنها محمود سلطاناً على السلاجقة ولما يبلغ الخامسة من العمر وهنا وقف بركياروق المدعوم من قبل أبناء نظام الملك موقفاً مغايراً إذ أعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة من مدينة أصفهان التي كان موجوداً فيها وعين ع الملك بن نظام الملك وزيراً له. لم تقبل تركان خاتون زوجة ملكشاه بهذا الأمر (وهي ام محمود وتوجهت إلى مدينة اصفهان فاضطر بركياروق الى مغادرة المدينة الى الري ، وجرت موقعة هزمت فيها تركان خاتون وانسحبت الى اصفهان فتبعها بركياروق وحاصر المدينة وقتل وزيرها تاج الملك الشيرازي ولما لم يكن الوقت يسمح بحصار طويل لمدينه اصفهان حيث كانت الاحداث متسارعه . غادر بركياروق مدينه اصفهان واتخذ من مدينه همدان مقراً له .

لم تركن تركان خاتون الى الهدوء بعد هزيمتها أمام بركياروق ، بل أخذت تحيك المامرات تلو المامرات من أجل تحقيق رغباتها في ان يكون ابنها هو السلطان الفعلي للسلاجقة ، فاتصلت بامير آذربيجان اسماعيل بن ياقوتي)) وطلبت منه ان يتحالف ضد ابن اخته بركياروق وافق على عقد تحالف بين الطرفين، وربما وعدته تركان خاتون بالزواج مقابل هذه المساعدة الا ان بركياروق وانصاره كانوا لهذه كان المحاولة بالمرصاد، فتم اغتيال اسماعيل بن ياقوتي ، وبذلك انتهى هذا التحالف الذي حاكته تركان ،خاتون ولما فشلت هذه المحاولة سعت تركان خاتون الى عقد تحالف جديد مع عم بركياروق وهو تاج الدين تتش حاكم الشام ((الا ان الوفاة ادركتها سنة ٤٨٧هـ /١٠٩٤م ، وبذلك تخلص بركياروق من منافس قوي وطموح ظل يحيك الدسائس ضده مدة من الزمن أما موقف عم بركياروق المدعو تاج الدين تتش امير الشام فلم يكن باقل من موقف زوجة ابيه ، فقد خرج تتش مطالبا بالعرش السلجوقي ورفض ان يكون تابعاً لابن اخيه الصغير بركياروق ، وان يعترف به على السلاجقة مستغلاً ولاء بعض الامراء له ، فضلاً عن قوته العسكرية التي استطاع ان يحشدها ضد ابن اخيه بركياروق ، فتحرك تاج الدين تتش في سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م وضم حلب وانطاكية والرها وحران والرحبة ونصيبين وهذه كما نعلم هي أجزاء من سلطنة سلاجقة الروم كما مر بنا قبل قليل ، وسيطر على مدينة الموصل التي كانت خاضعة للعقيلين بعدها.. أرسل الى الخليفة العباسي المقتدي بالله) ٤٦٧ ٤٨٧هـ /١٠٧٥-١٠٩٤م) طالبا منه التقليد وان يخطب له رئيساً السلاجقة، فوافق الخليفة العباسي وعزل محمود بن ملكشاه عن السلطنة وبهذا اصبح تتش هو السلطان الفعلى للسلاجقة وبدأ يحقق حلمه التالي باخضاع ابن اخيه بركياروق لسيطرته ويضم المناطق التابعه له الى سلطانه

بعد هذه التصرفات من تاج الدين تتش أدرك بركياروق نوايا عمه خاصة وانه بدأ باخضاع مناطق اخرى ووضعها تحت سيطرته مثل ديار بكر وميافارقين فكان لابد من المواجهة بين الاثنين فجرت موقعة عسكرية بين الطرفين، استطاع فيها بركياروق من استمالة قسم من جيش عمه تتش الى جانبه ، فكانت الغلبة والنصر لبركياروق ، فعاد تتش خائباً مدحوراً إلى بلاد الشام ، لكنه لم ييأس من اعادة المحاولة مرة اخرى(تحالفه مع تركان خاتون ام محمود) فأخذ يستجمع قواه لعله ينجح في تحقيق هذا الحلم وقد جن جنونه عندما حصل بركياروق على التقليد بعرش السلطنة السلجوقية من الخليفة العباسي المقتدي بالله في سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م .تحرك تتش هذه المرة باحكام أدق وتصرف مدروس فبدأ اولاً بالتخلص من العناصر التي يشك بولائها الى ابن اخيه بركياروق وتحرك بسرعة إذ لم يترك مجالاً لإبن أخيه بركياروق وسيطر على عدد من المناطق ووضعها تحت سيادته مثل خلاط و اذربيجان وهمدان (مقر بركياروق) . تحرك بركياروق الذي كان في هذا الوقت في نصيبين المواجهة عمه تاج الدين تتش، فاستعان بالنظامية وهم أبناء نظام الملك وكان لهم تأثير بارز على الساحة السياسية فعين فخر الملك وزيراً له (بعد وفاة أخيه عز الملك) . لكن الاجراءات التي اتخذها تتش افشلت كل مساعي بركباروق، فكانت الهزيمة من نصيب بركياروق ، الذي انسحب الى اصفهان (حيث كان اخاه محمود قد تحصن بها مع والدته تركان خاتون كما مر بنا قبل قليل) حيث توفيت زوجة ابيه تركان خاتون واخيه محمود، فسارع انصار اخيه محمود للانضمام الى بركباروق واعانوه ضد عمه تاج الدين تتش ، فانتصر عليه .

بعد انتصار تاج الدين تتش ارسل الى الخليفه العباسي المستظهر بالله رسالة يطلب منه تقليده عرش السلطنه السلجوقيه .فوافق الخليفه

العباسي مضطراً إلى ذلك ، وعزل بركياروق من عرش السلطنة. لكن بركياروق لم يترك عمه تتش يهنأ بعرش السلطنة السلجوقية فأخذ ينظم نفسه تنظيماً جديداً فاستعان بوزيره مؤيد الملك بن نظام الملك ، الذي اخذ يكاتب امراء الجند السلجوقي ويذكرهم بفضل والد بركياروق عليهم السلطان السلجوقي (ملكشاه وضرورة الوقوف إلى جانبه في هذا الوقت بالذات حفاظاً على الحكم السلجوقي واستمراره، فاستمالهم الى جنب بركباروق، وبهذا تقوى المركز السياسي والعسكري لبركياروق ، وقبل أن يعد العدة لمواجهة تاج الدين تتش ، كان هنالك لبركياروق عم أعمى مسجونا في قلعة تكريت اسمه تتش ايضاً ، إذ كان قد سجنه اخوه ملكشاه ولما تولى بركياروق الحكم اطلق عمه واحسن اليه ، لكن هذا العم لم يكن وفياً لمن اطلقه من السجن واحسن اليه ، ومال إلى اخيه الآخر

تتش بعد ان كاتبه الاخير وطلب منه الانضمام اليه فوافق هذا وعندما علم بركياروق بنية عمه توجه اليه بركباروق وقتله.بعد أن أتم بركياروق استعداداته العسكرية والسياسية توجه للقاء عمه تاج الدين تتش في سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م وهزمه في موقعة حاسمة قرب الري وقتله ، وبذلك تخلص بركباروق من منافس قوي نافسه على عرش السلطنة السلجوقية.ثم ظهر عم آخر لبركياروق يعرف بـ ارسلان ارغون وقام باحتلال بلخ وترمذ ونيسابور وسيطر على اغلب مدن خراسان وطلب من بركياروق ان يقره على ماسيطر عليه من مناطق، فارسل له بركياروق جيشا لكنه لم يستطع القضاء عليه ، حيث كانت الحرب سجالا بين الطرفين، وظل ارسلان يقلق بال بركياروق برهة من الزمن ، لكن سوء سلوك وسياسة ارسلان تجاه اعوانه وتجاه المناطق الخاضعة لسيطرته جعلت احد اتباعه يغتاله ،وبذلك تخلص بركياروق من منافس آخر اقلقه بعض الوقت ، وذلك في سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م، وربما جاء هذا التخلص بتدبير من بركياروق او وزيره مؤيد الملك . وعين بركياروق اخاه سنجر

واليآ على اقليم خراسان وبلاد ماوراء النهر حيث خطب لأخيه في المناطق التي خضعت لسيطرته ما أخوه الآخر محمد بن ملكشاه ، فقد عينه على منطقه كنجه وعين له اتابكآ كما فعل بأخيه سنجر من قبل ولكن عندما كبر محمد اراد الخروج عن سلطة اخيه بركياروق، وبدعم وبتحريض من وزيره مؤيدالملك الذي عزله بركياروق من منصبه وعين اخاه فخر الملك وزيرآ بدلآمنه فأخذ مؤيد الملك منهاج مؤيد يزين لمحمد الثورة على أخيه بركياروق، وقد نجح في أحداث انشقاق داخل الأسرة السلجوقية وهذه المشكلة واجهها السلاجقة اثناء حكم بركياروق وبعده ، فلم يعن الوزراء بأمور الدولة ومصالح الناس وينظروا الى الاخطار الخارجية المحدقة بالعالم الاسلامي بل عنوا بمصالحهم الضيقة والخاصة جداً دون الالتفات إلى مصلحة الدولة التي ذا ما زالت خسروا كل شيء قد كسبوه من خلالها، وجرت اكثر من خمس معارك عنيفة بين الاخوين ، (٤٩٢هـ / ١٠٩٨م، ٤٩٣هـ ١٠٩٩م ،٤٩٥هـ / ١١٠١م، جرت فيها معركتين و ٤٩٦هـ / ١١٠٢م) لم تؤد الا الى ضعف الدولة وتشرذمها وانهاك الشعب في المناطق التي تجري فيها المعارك فاندثرت الزراعة والصناعة والتجارة وصودرت أموال الناس وممتلكاتهم عبر الضرائب التي يفرضها كل طرف عليهم لتغطية نفقات الحرب ، ولما لم تحسم الحروب بين الاخوين الأمر بينهما لجأوا إلى عقد الصلح بين الطرفين الذي نص على ما يأتي:

١-ا يطلق على كل منهما لقب سلطان ويحكم المناطق الخاضعة له.

٢- وتكون السلطان محمد المناطق الشمالية وتشمل اذربيجان و ديار بكر والجزيرة والموصل والشام وجزءاً يسيرآ من بلاد العراق.

٣- تكون الخطبة لكل سلطان في منطقته، دون ذكر اسم السلطان الآخر.

٤- يسمح للجند السلجوقي بالانضمام الى أي سلطان يختارونه دون تدخل أي طرف

محمد بن ملكشاه: ٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٤-١١١٧م.

توفي بركباروق وهو في ريعان شبابه نتيجة لجهود جبارة في اقرار سلطته بذلها طوال حياته القصيرة الملأى بالحروب في اقرار سلطته فقد خاض أكثر من عشرين معركة جرح في معظمها فضلا عن محاولات الاغتيال التي تعرض لها فادت هذه الى انهاكه ومرضه ومن ثم الى وفاته وبعد وفاته تولى عرش السلطنة السلجوقية اخوه محمد دون منازع او منافس قوي كما حدث مع بركياروق، ولم ينازع السلطان محمد اخاه الأمير سنجر بل اكتفى باطلاق لقب ملك على نفسه وخطب لأخيه محمد بالسلطنة. وظل السلطان السلجوقي محمد يحكم البلاد دون منافس حتى ادركته الوفاة في سنة ٥١١هـ / ١١١٧م بعد أن عين ابنه محموداً خلفاً

نشوء الاتابكيات

ظهرت هذه الاتابكيات في مناطق مختلفة من العالم الاسلامي وخاصة في المشرق، فقد كان السلاجقة وفق نظامهم القبلي، يرسلون ابنائهم إلى مختلف المناطق من دولتهم للتدرب على الادارة ، ولما كان هؤلاء الأولاد صغارا كانوا يرسلون صحبة اتابك وتعني ابا الامير ، ومع مضي الزمن اصبح هؤلاء الاتابكة هم المسيطرون على الأمراء الصغار وصاروا يتحكمون بهم . وما يهمنا من هذه الاتابكيات هو أتابكية الموصل وحلب. اللتان لعبتا دورا مهما على الساحة السياسية والعسكرية ابان الحروب الصليبية وقد نشأ من هذه الاتابكيات عماد الدين زنكي مؤسس الاسرة الزنكية وابناؤه من بعده نورالدين محمود وسيف الدين ايلغازي ، والذين كنا سببا مباشرا في ظهور صلاح الدين الأيوبي وغيره من القادة الابطال الذين لعبوا دورا جهاديا لطرد الصليبيين من بلاد الشام ، وسيظل يذكر التاريخ سيرة أولئك الابطال الذين سطروا بجهودهم اروع الملاحم ونذروا انفسهم في سبيل نصرة دين الله ، فلا نامت أعين الجبناء من بعدهم فرقا من الموت لقد طلب هؤلاء الموت فوهبت لهم الحياة .

ب الحروب الصليبية

ترجع اهمية الحروب الصليبية بالنسبة لنا ، الى انها تشكل تجربة في تاريخ المسلمين سواء في المشرق ام في المغرب ، وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة الأثر والنتائج وانما هي تجربة كبرى مليئة بالدروس والعظات،

مما يتطلب منا أن نتأملها ونبحثها في كل وقت، الآن وفي المستقبل، لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها ، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها وبذلك نحفظ للمسلمين حقوقهم وللامة الاسلامية كيانها ونضمن لأبنائنا حياة حرة كريمة في بلادنا الاسلامية . ثم ان ذيول الحروب الصليبية انتهت في القرن الخامس عشر تقريباً ، لتفصح عن نتائج غربية متناقضة بالنسبة للمسلمين والغرب الأوربي ، فاذا كانت هذه الحروب صفحة مثيرة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، فما السر في أنها انتهت بتدهور وركود وانحلال استمر طويلا في البلاد الإسلامية، في حين صحبت هذه الحروب واعقبتها مباشرة نهضة شاملة في الغرب الأوربي هي أساس نهضته الحديثة ؟ الواقع أن هذه الظاهرة تسترعي الانتباه وتستحق منا التفكير العميق فقد تكون الحروب الصليبية في حد ذاتها مسؤولة عن الانهيار الذي تعرضت له البلدان الاسلامية في اواخر القرون الوسطى ، بعد أن استنفذت جهود هذه البلدان وامكاناتها الاقتصادية والبشرية في الدفاع عن كيانها وكرست مواردها ونشاطاتها للقضاء على الاخطبوط الصليبي الذي ثبت اقدامه في بقعة هي بمثابة القلب من العالم الإسلامي، وأخذ يسعى من خلال ذلك المركز المتوسط الى تهديد بقية بلاد الشام والعراق ومصر والحجاز فضلاً عن بلاد المغرب والأندلس. ولعله من الواضح انه كان من الصعب على المسلمين وسط ذلك الخطر الذي أحدق بهم في صميم بلادهم أن يشتغلوا بالانشاء والتعمير والنشاط الحضاري ، صحيح ان بوادر الضعف والانحلال السياسي والتأخر الحضاري قد بدأت فعلاً قبل بدء الحروب الصليبية، حيث كثرة الثورات والخلافات المذهبية والطائفية والتي تسترعي الانتباه، مما ادى الى قيام دويلات في مشرق العالم الاسلامي ومغربه ، فضلاً عن خضوع الخلفاء العباسيين لسيطرة الاتراك والبويهيين والسلاجقة، والذي يشكل دلالة واضحة على ضعف

والحلال الخلافة التي تشكل القلب أو القيادة في ذلك المجتمع وقبل الخوض في الحروب الصلبية هنالك سؤال يواجهنا دائماً و ماهية الحروب الصليبية وما تعريفها، وما هو المقصود بها ؟ الواقع أن الاجابة على هذا التساؤل تختلف باختلاف وجهات النظر التي ينحدر منها هؤلاء المؤرخون ، فقسم نظر اليها على أنها ((حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب)) او ((هي حلقة اخيرة من سلسلة الهجرات الكبرى التي صحبت سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية)) او ((هي نتيجة عن عملية احياء ديني بدأت في غرب أوربا)) او ((هي وسيلة تحايل بها الغرب الأوربي للخروج من اوضاع العصور الوسطى والانطلاق الى حياة اوسع افقا) ((لكننا نستطيع اعطاء تعريف أقرب الى الواقع وهو ((حركة كبرى نبعت من الغرب الاوربي المسيحي في العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم استعماري على بلاد المسلمين ، وبخاصة في الشرق الادنى بقصد امتلاكها. وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب أوربا في القرن الحادي عشر ، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق))) . وفي اوربا لم يعرف المعاصرون لها هذه التسمية بل ان كل ما يعرفونه عنها هو أن

الفرسان كانوا يخيطون على البستهم وعلى اكتافهم شارة الصليب وباللون الاحمر ، وكان يشار لهذه الحرب باسماء مختلفة مثل : الترحل والتطوف التجوب الحملة الطريق الى الارض المقدسة، التجوب ماوراء البحار، السير على درب الرب) وهكذا سميت بالحروب الصليبية ، لأن الذين اشتركوا فيها لمحاربة المسلمين (الأتراك والعرب (كانوا يخيطون على البستهم على الصدر أو على الكتف علامة الصليب من قماش أحمر رمزا للدوافع والاهداف والنوايا الدينية

ج – اسباب الحروب الصليبية

من خلال التعاريف التي اطلقت على الحركة الصليبية نستنتج ان لهذه الحركة دواقع واسباباً مختلفة كل الاختلاف عن بعضها البعض، فلولا ان المجتمع الأوربي في تلك الفترة كان يعاني من أزمات كبيرة لما تطلق بكل تلك الحملات عبثا أو دونما جدوى أو فائدة صحيح أن الامبراطورية البيزنطية استغاثت بالغرب الأوربي جعلته بعدما تعرضت لضغوط السلاجقه ولو لم يكن للغرب الاوربي ما يحرك من اسباب قويه جعلته يدفع بكل تلك الحملات لما انطلقت حملة واحدة صوب الشرق الاسلامي ولم استجابت اوربا بسرعه لتلك النداءات الضغوط ولم استجابت اوربا بسرعة لتلك النداءات والآن نتساءل ما اهم الاسباب التي حركت تلك الحروب والتي استمرت قرابة القرنين من الزمان

١- الباعث الديني:

لقد عرف ريان Riant الحروب الصليبية بأنها ((حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام ((، أن المتتبع للحركة الصليبية يجد أن العامل الديني كان له دور أساسي فيها، لكنه ليس العامل الوحيد والذي ادى دورا مهما ومحركا مباشرا لقيامها، كما يتبين للمتتبع لبواعث الحركة الصليبية في بعض الاحيان فتور العامل الديني في كثير من الأوقات وسط التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وللوقوف على قيمة الباعث الديني في القرون الوسطى يجدر بنا ان نتأمل أوضاع الحياة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى وما اعترى تلك الاوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادي عشر وذلك حتى لا ننزلق في الطريق الذي انزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين ، وهم الذين اعتادوا أن يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة في سوء أحوال المسيحيين في البلاد الاسلامية وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ، وكيف ان كنائسهم وأديرتهم قد اغلقت فضلا عما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيين من عقبات وما تعرضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الاسلامية التي مروا بها ! وطقوسهم

عطلت من الواضح أن هذا المدخل مدخلاً مضللاً للحروب الصليبية بعيداً عن الحقيقة والواقع التاريخي ، ليس بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات معظمها لا اساس له من الصحة ، بل ان الدخول الى تاريخ الحركة الصلبية من هذا الباب الوهمي كفيل بأن يصرف الباحث عن المدير الحقيقي للموضوع. فالقول ان الحروب الصليبية أتت رد فعل للاضطهار الذي تعرض له المسيحيين الشرقيين والغربيين في البلدان الإسلامية انما هو ادعاء باطل لا يتفق وروح الاسلام وطبيعة الدعوة اليه وما احاط به القرآن الكريم من رعاية وعناية وما امر به سيدنا محمد دعوتهم إلى الدين الاسلامي بالحكمة والموعظة الحسنة ((فان حاجوك فقل اسلمت لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين وءاسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا ، وأن تولوا فائما عليك البلاغ والله بصير بالعباد)) ال عمران ٢٠وقال تعالى ((وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع أهواءهم وقل أمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير)) الشورى (١٤-١٥) ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الاسلامية عيشة هادئة هانئة تشهد عليه الرسالة التي بعثها بطريق بيت المقدس سنة ٨٦٩ / ٢٥٦هـ الى زميله إجناتيوس بطريق القسطنطينية والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق بحيث أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أي تدخل في شؤونهم الخاصة وذكر بطريق بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته : ((ان المسلمين قوم عادلون ، ونحن لاتلقى منهم أي أذى أو تعنت)) كما أن القياس على بعض الحالات الفردية لا يمكن ان يكون مقياساً والتي تنبعث في احيان كثيرة عن حالات قصر نظر ، مثلما قام به الحاكم بامر الله الفاطمي من تصرفات تجاه المسلمين أولاً وتجاه أهل الذمة لكي نقيس عليه حالة المسيحيين في الشرق ، لتؤجج نار حرباستمرت قرنين من الزمان طحنت أبناءاوربلقبل ان تطحن أبناءالمسلمين كما أن الاحداث التاريخية تؤكد أنه بعد وفاة الحاكم بأمر الله عادت الامور الى مجاريها الطبيعية وعقد صلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطينيه وعاد المسيحيون يحظون بما الفوه دائما من الفة ومحبة ورحابة صدر وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة في بيت المقدس كما وقد الحجاج كعادتهم يزورون الاماكن المقدسة في امن وسلام ولايجوز الاستشهاد بهذه الحال الفردية (عصر الحاكم بأمر الله) والتركيز عليها على أنها المحرك والمسبب الرئيس في الحروب الصليبية وتناسي من جهة اخرى ما قام به الحكام الأوربيون من مجازر واضطهادات صاحبت انتشار الديانة المسيحية والتي بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى فماقام به خلفاء الامبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والباڤاريين والآڤار بحد السيف حتى انه قتل من السكسون وحدهم أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة وما ارتكبه الفرسان التيتيون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولاتهم نشر المسيحية

في القرن الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطيء البحر البلطي هذا فضلاً عما قام به المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند واذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر قد دابوا على الدعاية لحركتهم في غرب أوربا عن طريق المناداة بأن احوال آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، بينما يؤكد المؤرخون الأوربيون المنصفون أن المسيحيين الذين خضعوا حكم السلاجقة كانوا اسعد حظاً من اخوانهم الذين عاشوا في المسيحيين في قلب استمرت قرنين من الزمان طحنت أبناءاوروباقبل ان تطحن أبناءالمسلمين كما أن الاحداث التاريخية تؤكد أنه بعد وفاة الحاكم بأمر الله عادت الامور الى مجاريها الطبيعية وعقد صلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطينيه وعاد المسيحيون يحظون بما الفوه دائما من الفة ومحبة ورحابة صدر وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة في بيت المقدس كما وقد الحجاج كعادتهم يزورون الاماكن المقدسة في امن وسلام ولايجوز الاستشهاد بهذه الحال الفردية (عصر الحاكم بأمر الله) والتركيز عليها على أنها المحرك والمسبب الرئيس في الحروب الصليبية وتناسي من جهة اخرى ما قام به الحكام الأوربيون من مجازر واضطهادات صاحبت انتشار الديانة المسيحية والتي بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى فماقام به خلفاء الامبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية وما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والباڤاريين والآڤار بحد السيف حتى انه قتل من السكسون وحدهم أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة وما ارتكبه الفرسان التيتيون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولاتهم نشر المسيحية في القرن الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطيء البحر البلطي هذا فضلاً عما قام به المبشرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند الامبراطورية البيزنطية ذاتها ((وان ما اعترى المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر أنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين ، لأنه لا يوجد أي دليل على قيام السلاجقة باضطهار المسيحيين الخاضعين لهم))ولكن هل معنى كل ذلك ان الباعث الديني ليس له اثر في تحريك الحروب الصليبية ؟ وهل يفهم من معنى كلامي السابق أن العامل الديني يصح موضوع اهماله تماماً عند الكلام عن القوى التي وجهت الحروب الصليبية منذ القرن الحادي عشر ؟ الواقع انني لم اقصد ذلك مطلقا وانما اردت ان اصحح اعتبارين طالما وقع فيهما كثيرون عند معالجة الحركة الصليبية اما الاعتبار الأول فهو انه ليس من الصواب اطلاق القول ان هناك اضطهاد فريد حل بالمسيحيين في البلدان الاسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادى عشر مما يصح أن يكون سبباً لإستثار الغرب الأوربي واذا كان بعض دعاة الحملة الصليبية وعلى رأسه البابا أوربان الثاني نفسه قد استغلوا فكرة الاضطهاد الديني هذا للاستهلاك المحلي في الدعاية لمشروعهم في غرب أوربا، فان عام الناس في

مختلف بلدان الغرب الاوربي لم يكن يهمهم كثيراً أمر أخوانهم المسيحيين الشرقيين في البلدان الاسلامية والاعتبار الثاني هو انه لاصحة إطلاقاً للفكرة الخيالية التي ظلت سائدة امداً طويلاً والتي صورت الصليبيين الذين اخذوا يفدون من غرب أوربا الى الشرق من نهاية القرن الحادي عشر في صورة المسيحيين المخلصين الذين جرفو الورع والتقوى الى هجرة الاوطان والاهل والاحباب في سبيل تحقيق رسالة دينية سامية وانهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من اجل غرض واحد هو خدمة الصليب والاستشهاد في سبيله حقيقة إن العصور الوسطى في الغرب الأوربي عرفت في التاريخ عصور الإيمان وحقيقة إننا نسمع كثيرا من سلطان الكنيسة ورجالها على قلوب الناس في غرب أوربا في تلك العصور وحقيقة إن التاريخ يثبت أن الكنيسة الغربية ممثلة فى شخص زعيمها البابا هي التي دعت الحرب الصليبية سنة ١٠٩٥م /٤٨٨ هـ وأن هذه الدعوة ترتب عليها ما حدث من خروج الناس أفواجاً في شكل حملات صليبية ضخمة الاراضي الى الشرق الأدنى ولكن فكرة شن حرب دينية على المسلمين واستخلاص المقدسة منهم، لم تكن الباعث الحقيقي الأول الذي دفع البابوية لى القيام بتلك الدعوة ودفع جموع الناس من امراء وعامة إلى تلبية نداء البابا في سهولة ويسر والخروج أفواجاً من غرب أوربا قاصدين الشرق الادنى اما عن البابويه فكانت قد بلغت في القرن الحادي عشر درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ والامكانات الاقتصادية ، ((فقد بلغت في سيطرتها على الأراضي وعلى واردات اوربا درجة عظيمة وكانت تستثمر الفلاحين الأفنان الذين يعملون تحت رحمتها استثمارا وحشيا)) مما فتح امامها افاقا واسعة لتجعل سلطاتها عالية بمعنى أن يكون البابا بوصفه خليفة المسيح (عليه السلام) والقديس بطرس الزعيم الروحي الجميع المسيحيين في الشرق والغرب، والمعروف ان البابوية ظلت دائماً ترغب في إخضاع الكنيسة الشرقية الارثودكسية لزعامتهاولكن النزاع الذي استحكمت حلقاته بين الأباطرة البيزنطيين من ناحية والبابوية من ناحية أخرى جعل من المتعذر حتى ذلك الوقت القيام بمحاولة جديدة لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية وإزالة ما بينهما من شقاق وأخيراً جاء استنجاد الاباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربي ضد السلاجقة في القرن الحادي عشر ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور في صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحي كافة في صراعه ضد المسلمين ولمحاولة دمج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية التي استقلت وانفصلت نهائيا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في سنة ١٠٥٤م/٤٤٦هـ تحت زعامة خليفة القديس بطرس على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الاراضي المقدسة في فلسطين هذا عن البابوية أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الادنى فلم يكن الهدف الديني هو الباعث الرئيس الذي دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة في الحركة الصليبية وقد اعترف كثير من المؤرخين الأوربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بإن غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية تركوا بلادهم إما بدافع الفضول أو تتحقيق أطماع سياسية وإما الخلاص من حياة الفقر التي كانوا يحبونها في بلادهم

في ظل النظام الاقطاعي واما للهرب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها وإما فراراً من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق. وأي وازع ديني كان عند الوف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الرابعة والذين اتجهوا نحو القسطنطينية وهو البلد المسيحي الكبير لينهبوا كنائسها ويسرقوا اديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب ،وهم جميعاً إخوانهم في الدين وهكذا يبدو انه اذا اردنا ان نعرف الاسباب الحقيقية للحركة الصليبية فعلينا البحث في الاوضاع السياسيةوالاجتماعية والاقتصادي في غرب أوربا في القرن الحادي عشر.

١ – اثبتت الابحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادي وأهميته في تحريك كثير من الهجرات والحروب المهمة في التاريخ ونحن مع إعترافنا بوجود بواعث عديدة للحركة الصليبية تميل الى تأكيد أهمية العامل الاقتصادي بالذات في تلك الحركة. ذلك أن جميع الوثائق المعاصرة تشير الى سوء الاحوال الاقتصادية في غرب أوربا، ولاسيما فرنسا في أواخر القرن الحادي عشر. فالمؤرخ المعاصر جيوبرت لوجات Gulbert Nogent يؤكد ان فرنسا نفسها كانت تعانى مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى فندر وجود الغلال وارتفعت أثمانها ارتفاعا فاحشا مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز. وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين في الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أي بلد اخر في غرب أوربا ومهما يقال من أن هذه الازمة كانت مفتعلة افتعلها التجار المستغلون ومعظمهم من اليهود فالذي يهمنا هو أنه كانت هناك أزمة اقتصادية فعلاً في الغرب الأوربي عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى وان هذه الازمة ألجأت الناس الى اكل الاعشاب والحشائش. وزاد من سوء الاحوال الاقتصادية في الغرب الأوربي في ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الامراء الاقطاعيين وهي الحروب التي لم تنجح الكنيسة أو الملوك في وقفها مما أضر بالتجارة وطرقها والزراعة وحقولها ابلغ الضرر. وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى في غرب اوربا باباً جديداً للهجرة وطريقاً للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي عاشوا فيها داخل أوطانهم فقد عانت اوربا من سوء المواسم الزراعية ومن شتى ضروب الكوارث كما كانت المجاعة تسود في كل المناطق وبلغت الامور حد أكل لحوم البشر فان الراهب المؤرخ رادولف غلابر مثلا يذكر حالات كانوا يأكلون فيها اجسام الموتى وأمسى الجوع يحل أكثر فاكثر في الريف في أواخر القرن الحادي عشر أي ذلك الزمن العصيب الذي سماه المؤرخون بالسنوات السبع العجاف وهذه السنوات سبقت الحروب الصليبية مباشرة في ومن سنة إلى أخرى أخذت المدونات والحوليات التاريخية تذكر بضن وشحة المعلومات ذاتها تقريبا وقد نعت الراهب سيغيرت من جاسر سنة ١٠٨٩م/٤٨٢ هـ بسنة الطاعون وفي هذه السنة ذاتها مراعت هزات ارضية في المانيا وفي برابان وفاضت الانهار في بعض الأنحاء الأمر الذي اشارت اليه حوليات دير القديس يعقوب وغيره من المنويات التاريخية وتذمر سيغبرت من جامبلو من ازدياد جدوبة التربة في سنة١٠٩٠م/٤٨٣هـ واعرب عن المخاوف

بصدد هم قزل (الجوع الراحل تدريجيا) وكتب المؤرخ الألماني إيكهارد من اوورا عن مرض رهب اصاب الناس والمواشي معا في سنة ١٠٩٢م/٤٨٥هـ ونجم عن الجوع وعن النقص في المنتوجات الغذائية والاعلاف اللذين تسبب بهما القحط الناشيء بدوره من برد الربيع ففي أول نيسان تساقط الثلج وكان الصقيع والجليد على حد قول برنولد سمان بليه . وفي سنة ١٠٩٣م/٤٨٩هـ تميز جو انكلترا بالعواصف وسوء الطقس ففي الربيع فيضانات وفي الشتاء صقيع قارص وقد تجمدت وهلكت جميع المبذورات وفي السنة ذاتها كانت الغلة ضئيلة وجاع الالمان وفي معرض الكلام عن الاحداث المشهورة ففي سنة ١٠٩٤م/٤٨٧هـ اشار المؤرخون الى الوفيات بالجملة من جراء الوباء الشامل الذي شمل بلدان مختلفة ففي رينسبورغ مات في ١٢ أسبوعا ٨٥٠٠ شخص وفي أحدى القرى مات في ستة أسابيع ١٥٠٠ شخص وفي قرية اخرى ٤٠٠٠ شخص وانتقل الوباء من المانيا الى فرنسا وبورغونيا وايطاليا ومن جديد تسببت الامطار الغزيرة بضرر فادح وفي أراضي هولندا استمرت الفيضانات من تشرين الأول ١٠٩٤م الى نيسان ١٠٩٥م/٤٨٧-٤٨٨هـ وفي فرنسا الجنوبية وجزئيا في المانيا كان الجوع قد خف ولكنه انفجر بقوة في فرنسا وفي انكلترا فقد كتب الراهب والمؤرخ النورماندي اورديريك فيتالي: (ان الجفاف الرهيب حرق العشب في المروج واباد السنابل والخضراوات وتسبب بالتالي في جوع فظيع). وفي سنة

١٠٩٥م ٤٨٨هـ كانت نورماندیا وفرنسا مرهقتين بنسبة عظيمة الوفيات التي أفرغت الكثير من البيوت ودفع الجوع البلايا إلى أقصى الحدود ويتحدث المؤرخينجميعهم تقريبا عن العوز الشديد الذي ساده في الغرب بسبب قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية والأوبئة الحدود ويتحدث المؤرخون جميعهم غربا عن العوز الشديد الذي ساد ولم يكن عجبا أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموع غفيرة من المعلمين والفقراء والمساكين وطريدي القانون وجميعهم كانوا يفكرون ببطونهم قبل أن يفكروا في دينهم بدليل ما أتوه طوال طريقهم الى القسطنطينية من أعمال العدوان والسلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التي مروا بأراضيها مما يتعارض مع أي وازع ديني أو اخلاقي يؤمنون به كما يدعون ثم أن الباحث في تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منقطعة النظير من جانب المدن التجارية في ايطاليا وفي غيرها من المدن في غرب اوربا للمساهمة في تلك الحركة سواء بعرض خدماتها لنقل الصليبيين عن طريق البحر الى الشرق أم في نقل المؤن والاسلحة وكافة الامدادات الى الصليبيين بالشام أو مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على الموانيء البحرية ببلاد الشام وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانيء ضد هجمات الاساطيل الاسلامية وهنا أيضاً تستطيع أن نقرر أن جميع جمهوريات ايطاليا البحرية،لم تكن مدفوعة تلك المساعدات للصليبيين بوازع ديني وإنما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة ورأت في الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين معاً. وسنرى فيما بعد كيف ان البندقية لم تتورع عن تضليل

حملة صليبية كبرى فوجهتها لغزو القسطنطينية وهي البلد المسيحي الأمن بدلا من أن تتركها في طريقها الطبيعي المرسوم ضد المسلمين وكان ذلك عندما رأت البندقية ان مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر والواقع إن الصليبيين باشام كان لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة اساطيل البندقية وجنوة وبيزا اذ ان هذه الاساطيل قامت بدور فعال في ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الأوربي . وإذا كانت هذه الجمهوريات الايطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين فأنها لم تفعل ذلك اكراما للكنيسه وابتغاء مرضاة الله وانما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبيه في الشام حصلت بموجبها على امتيازات اقتصادية هامة ففي معظم موانىء الشام ومدنه الكبرى التي استولى عليها الصليبيون تمتعت المدن الايطالية التجارية باعفاءات خاصة فضلاً عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدينة الايطالية التي قدمت خدماتها لحاكم الامارة الصليبية التي يتبعها الميناء ولم تلبث مرسيليا بجنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الايطالية فحصلت على امتيازات كبيرة لتجارها في عدد من المدن الصليبية في الشام اذ منح الملك بلدوبن الثاني ملك بيت المقدس تجار مرسيليا حياً خاصاً بهم في مدينة القدير ذاتها سنة ١١١٧م/ ٥١١هـ ولم يتأت هذا الاعفاء من فراغ فلابد من تقديم جهد مماثل للامارات الصليبية في بلاد الشام كما اعفى الملك فولك تجار مرسيليا من الضرائب والتي كانت تقدر بمبالغ كبيرة في ذلك الوقت ومنحهم الملك بلدوين الثالث امتيازات واعفاءات من الضرائب في كافة المدن والموانىء الصليبية في سنة ١١٥٢م/٥٤٧هـ. وهكذا اصطبغت الحركة الصليبية من أول امرها بصبغة اقتصادي استغلالية واضحة فكثير من المدن والجماعاتوالافراد الذين أبدوا تلا الحركة وشاركوا فيها ونزحوا الى الشرق لم يفعلوا ذلك خدمة للصليب وحرب المسلمين وانما جرياً وراء المال وجمع الثروات والقاء مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب العالم الاسلامي بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها والحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة حقيقة ان الاستعمار بمعناه الحديث لم تتضح معالمه إلا بعد الثورة الصناعية في أوربا ولكن ليس معنى ذلك ان العالم القديم لم يعرف الاستعمار منذ القدم وفي القرون الوسطى كانت الحروب الصليبية أول تجربة للاستعمار الغربي قامت بها الامم الأوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق على حد قول Thompson في كتابه Economic and the Social History voltip397 وليس أدل على سيطرة النزعة الاستعمارية الاستغلالية على عقول كثير ممن أسهموا في الحركة الصليبية مما نشأ من منازعات ومخاصمات بل حروب أهلية بين الصليبيين بعضهم مع بعض في بلاد الشام وقد استمرت هذه الحروب بين مدن البندقية وجنوة وبيزا في اشد الاوقات حرجاً بالنسبة للصليبيين أي في النصف الأخير من القرن الثالث عشر ، عندما أخذت البقايا الصليبية في الشام تتساقط في أيدي المسلمين واحدة بعد أخرى وعندما ذهبت صيحات العقلاء من البابوات ورجال الدين وملوك قبرص ليوحد الصليبيون

صفوفهم أمام الخطر الذي يوشك أن يعصف بهم جميعاً فقد كانت المنافسات التجارية والخصومات المادية بين الصليبيين الاستعماريين بعضهم مع بعض أعمق جذوراً وأقوى تأثيراً وأكثر نفعاً من شعور الولاء للدين والكنيسة.

٢- الباعث الاجتماعي : تألف المجتمع الأوربي في العصور الوسطى من ثلاث طبقات طبقة رجال الدين من الكنسيين والديريين وطبقة المحاربين – من النبلاء والفرسان وطبقة الفلاحين – من الأفنان ورقيق الأرض وكانت الطبقتان الاولتان اقلية تمثل في مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والارستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية في حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الغالبية العظمى المغلوبة على امرها والتي كان على أفرادها أن يعملوا ويشقوا ليسدوا حاجة الطبقتين الأولتين والواقع أن آلاف الفلاحين عاشوا في غرب أوربا عيشة منحطة في ظل نظام الضيعة حيث شيدوا لأنفسهم أكواخ قذرة من جذوع الاشجار وفروعها غطيت سقوفها وارضيتها بالطين والقش دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها آثاث ما عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الادوات الفخارية المعدنية البسيطة وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والافنان الذين ارتبطوا وراثيا بالأرض التي يعملون عليها وقضوا حياتهم محرومين من ابسط مبادىء الحرية الشخصية فكل ما يجمعه القن بعد ملكاً خاصاً للسيد الاقطاعي لأن القن محروم حتى من الملكية الشخصية ثم ان أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للاقطاعي مثل فلاحة أرضه الخاصة فضلاً عن تسخيرهم في اعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس التي يتعين على كل من دفعها سنوياً رمزاً لعبوديته هذا ماعدا الضرائب المفروضة على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضراوات فإذا اضفنا إلى ذلك الاحتكارات العديدة التي الزم بها الفلاح الطحن في مطحنة الاقطاعي العصر في معصرة الاقطاعي الشراء من دكان الاقطاعي أدركنا مدى الهوان والذلة التي عاش فيه غالبية الشعب الاوربي في القرن الحادي عشر فالسيد الاقطاعي صاحب الضيعة هو الذي يمتلك طاحونة ومعصرة وفرناً بل أحياناً البئر الوحيد في الضيعة كما ذكرنا مسبقاً وفي هذه الحالة يصبح كل قن ملزماً باحضار غلته الى طاحونة السيد الاقطاعي لطحنها يحمل خبزه الى فرن السيد لخبزه وكرومه وزيتونه وتفاحه الى معصرة السيد لعصرها كل ذلك مقابل اجور معينه يقدمها الاقنان والفلاحين لسيدهم الاقطاعي وهم صاغرون فاذا امتلك فلاح طاحونه يدويه او غير ذلك من الاجهزه التي من حق السيد الاقطاعي وحده ان يحتكرها صار ذلك جرما يحاكم عليه وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس في غرب أوربا يحيون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان وكان ذلك في الوقت الذي علت الدعوة للحرب الصليبية فوجدت تلك الألوف من البؤساء في الغرب الأوربي فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت تعيش فيه من ذل العيش ونكد الدنيا ومهما يكن في الدعوة الجديدة من أخطار فإن أخطارها هانت امام الفاقة والذل والهوان التي كتبت على طبقة العوام ان يعيشوا فيها في غرب اوربا دون امل في الخلاص فإذا ماتوا في تلك الحروب

الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب اليهم من حياة الجوع والذل والعبودية وان وصلوا إلى الأراضي المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة ، لن تكون بأي حال أسوأ من حياتهم التي يحيونها فعلا في بلادهم الاصلية ومن هنا يبدو جلياً أنه اذا كانت الوف العامة من غرب أوربا قد اسهموا في الحركة الصليبية فإنما دفعتهم الى ذلك عوامل اجتماعية واقتصادية مهمة فوجدوا في تلك الحركة متنفساً إلى حياة افضل وتستطيع أن نقرر أنه لو تيسرت لتلك الجموع في بلادهم الاصلية حياة حرة وكريمة وقدر مناسب من كرامة العيش لما غامروا بترك أوطانهم وزوجاتهم واطفالهم وأقاربهم الذين يشعرون بالطمانينة معهم وانجرفوا وراء وعود خيالية اسرفت الكنيسة في تقديمها

٣- الباعث السياسي ولكن اذا كانت العاقه والحرمان والذل والهوان هي التي دفعت الغالبيه العظمى من الصليبين الى الترحيب بالدعوه الجديده والمشاركه بالحمله الصليبيه بحثا عن حياه افضل فما الذي دفع عددا من ملوك اوربا وامرئها وفرسانها للمشاركه في تلك الحركه؟ أما عن ملوك الغرب الذين شاركوا في الحروب الصليبية فريديك بربوسا وريتشد قلب الاسد وفيلب او اوغسطيس وفريدريك الثاني فيثبت التاريخ أن معظمهم لم يخرج من بلاده لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابويه والحاحها بل تهديدها وربما كان هذا الحكم بعيدا عن الصحه في حالة واحده هي حاله لويس التاسع ملك فرنسا الذي استهر بورعه وتقواه وتدينه حتى لقبه معاصروه بالقديس والذي أراد أن يعبر عن حماسته الدينية تعبيرا عمليا بالمشاركة في الحركة الصليبية مشاركة فعاله اما من عداه فان تاريخ البابويه وتاريخ غرب اوربا وتاريخ الحركه الصليبيه يشهد على السفارات العديده التي دأب البابوات على ارسالها بين حين واخر الى ملوك اوربا يلحون عليهم في الخروج على رأس جيوشهم الى الشرق لمحاربه المسلمين وإن من يدرس تاريخ الغرب الاوربي في الفترة من العصور الوسطى يعرف جيداً مدى قوة البابوية و عالم اسهاعر ان ملكاً من ملوك اوربا كان لا يستطيع أن يعصي لها امرا او يرد لها طلبا و تعرض للحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها من يستطيع الاحتفاظ بعرشه او بولاء شعبه له وأبرز مثل لدينا الامبراطور فردريك الثاني الذي أخذ البابوات واحد بعد آخر يلحدون عليه بالخروج على رأس حمله صليبية الى الشرق ضد المسامين ولم يجد الامبراطور دافعا يدفعه للقيام بتلك الخطوة فظل يماطل مرة بعد أخرى والبابوية تتوعد وتتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان وعندئذ خرج الامبراطور مكر لابطل على رأس فئة قليلة من جنده قاصداً الشام وبادر بمجرد وصوله الى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي ليشرح له موقفه وانه ماله (ماله غرض في القدس ولا في غيره انما حفظ ناموسه عند الفرنج !) هذا عن الملوك أما الامراء الذين أسهموا في الحرب الصليبية فمعظمهم على يجري وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم الى الشام وبعد استقرارهم فيها والمعروف أن النظام الاقطاعي ارتبط دائماً بالأرض وبقدر ما يكون الاقطاع كبيراً والأرض واسعة بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع. وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة التي يمكن ان تواجه

الأمير أو الفارس هي عدم وجود اقطاع أو ارض له مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ وقد ادت طبيعة النظام الاقطاعي في الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون ارض لأنه من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاعي فاذا مات صاحب الاقطاع انتقل الاقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه ومن الواضح أن هذا المبدأ يعني بقاء بقية الابناء بدون ارض، وهو وضع ممقوت في المجتمع الاقطاعي وهنا تتبين عظمة الدين الاسلامي في توزيع الميراث وهو المساواة بين الابناء من جهة والبنات من جهة أخرى، فالأولاد متساوون في حصصهم والبنات متساويات في حصصهن فسبحان من خلق وهو اللطيف الخبير ونتيجة لما سبق فقد لجا الأمراء المحرومون من الاقطاع الى الزواج من بنت الاقطاعي الذي ليس لديه ولد للحصول على مال ابيها بعد موته وهكذا كما سعى هؤلاء الأمراء ايضا إلى اشعال نار الحروب والفتن والقلاقل للحصول على الإقطاع وكان ان ظهرت الحركة الصليبية لتفتح بابا جدا امام اولئك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين من الأرض في غرب أوربا فلبوا نداء البابوية وأسرعوا إلى المساهمه في تلك لعلهم ينجحون ي في تأسيس امارات لأنفسهم في الشرق تعويظا عما فاتهم في الغرب وحتى أولئك الأمراء الذين كانت لديهم امارات القطاعية في بلادهم الاصلية وجدوا فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الامراء الغربيين الذين اسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيرا ما دبت بينهم وبين بعض مما انزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي حتى أن أمراء الحملة الأولى أخذوا يقتسمون الغنيمة حتى قبل الحصول عليها وهم في طريقهم إلى الشام قبل ان يستولوا على الغنيمة فعلا وكيف استحكم النزاع بينهم أمام انطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسبا في الطريق قنع بذلك الكسب وتخلى عن مشاركة إخوانه الصليبيين في الزحف على بيت المقدس وهو الهدف الأساسي للحملة كما تستطيع ان تلاحظ كيف ان الخلافات كثيراً ما كانت تدب بين الامراء الصليبيين في بلاد الشام بسبب نزاعات اقليمية ضيقة من اجل الفوز بحكم امارة او توسيع مناطق النفوذ وقد كانت البابوية تتدخل من أجل فض هذه النزاعات وتذكر البابوية الامراء الصليبيين بأن المسلمين يحيطون بهم ويتربصون بهم الدوائر ولكن دون جدوى لأن هدف الامراء كان ذاتياً سياسياً ولم يكن يهمهم رضاء البابا أو سخطه ،كما أن بعض الامراء الصليبيين لم يحجموا عن التحالف مع القوى الاسلامية في المناطق المجاورة لهم ضد اخوانيهم الصلبيين مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولته الامراء امام مصالحهم السياسية الشخصية.فضلاً عن ذلك كله هناك عامل آخر شجع كثيراً من فرسان الغرب الأوربي على المشاركة فى الحركة الصليبية ذلك أنه من المعرف ان النظام الاقطاعي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفروسية والحرب واظهار الشجاعة وأن حياة السلم كانت تعني البطالة عند هؤلاء الفرسان الذي لا عمل لهم إلا الحرب والقتال وعندما كثرت الحروب الاقطاعية وهددت المجتمع الأوربي تهديداً خطيراً

تدخلت البابوية ونادت بما يعرف باسم ((هدنة الله)) وهي اوقات معلومة يحرم فيها القتال. وعندئذ بحث الفرسان الأوربيون عن ميادين جديدة يستعرضون فيها عضلاتهم فابتكروا المبارزة ولكن المبارزات بين الفرسان كانت تتم بطريقة تمثيلية استعراضية استهدفت اظهار أكبر قدر من المهارة باقل قدر من الاصابات واراقة الدماء لذلك لم يقنع الفرسان بتلك الوسيلة حتى اذا ما ظهرت الدعوة الصليبية فتحت امامها باباً واسعاً لإظهار شجاعتهم والتعبير عن مواهبهم الحربية بغض النظر عما في المشاركة في تلك الحركة الجديدة من سعي مشكور وذنب مغفور

د . الحملات الصليبية :

١- الحملة الصليبية الأولى واحتلال بيت المقدس وتأسيس الامارات الصليبية في بلاد الشام :

بعد نداءات الإستغاثة التي قدمتها الدولة البيزنطية ، ممثلة في طلب الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (١٠٧١-١٠٧٩م /٤٦٤- ٤٧٢ هـ) الذي الح على البابا جريجوري السابع (١٠٨٥-١٠٧٣م /٤٦٦ ٤٧٨هـ)، بارسال نجدة سريعة لإنقاذ الامبراطورية البيزنطية ووعد ميخائيل ان يرد جميلاً للبابوية بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية وقد عمل البابا بكل ما أوتي من جهد وقوة ان يحض ملوك اوربا على مساعدة الدولة البيزنطية . ثم حدثت سلسلة انقلابات اطاحت بـ ميخائيل السابع ،حيث اعقبه نقفور الثالث (١٠٧٩ ١٠٨١م/٤٧٢-٤٧٤هـ) واطاح بنقفور ثورة قادها الجيش وعين الكسيوس كومنين امبراطوراً بدلاً عنه سنة (١٠٨١-١١١٨م /٤٧٤- ٥١٢هـ) وكان الامبراطور الكسيوس كومنين رجلا قديرا، حاول أن يعالج مختلف المشاكل الداخلية والخارجية التي تعرض لها ، ولاسيما ما يتعلق بالتحدي السلجوقي في آسيا الصغرى وعدم استطاعته مواجهة ذلك التحدي وحده ، فاستنجد بالبابوية وبالبابا اوربان الثاني (١٠٨٨- ١٠٩٩م/٤٨١-٤٩٣هـ)، الذي وجد في هذه الدعوة فرصة طيبة لتحقيق حلمه بطرد المسلمين من آسيا الصغرى ، فضلاً عن طردهم من اسبانيا ، فضلاً عما يتمتع به هذا البابا من قوة الشخصية والتاثير ، وارتفعت مكانة البابوية في عهده ، فاراد هذا البابا أن يستعيد سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الارثودوكسية من خلال هذا الاستنجاد ، وقد جرى تبادل للوفود مع القسطنطينية ، ورفع البابا اوربان الثاني قرار الطرد والحرمان ضد هذا الامبراطور البيزنطي، كما وعد الامبراطور البيزنطي بمنح قدر اكبر من الحرية للكنائس الكاثوليكية في ادارة شؤونها في المناطق الخاضعة لسيطرة الدولة البيزنطية . كما عقد مجمع ديني في مدينة بياكنزا شمال ايطاليا حضره ممثل عن الامبراطور البيزنطي فطلب المساعدة من الكنيسة ضد المسلمين في آسيا الصغرى. وقد نجح مبعوث

الامبراطور من اقناع البابا من ان السلاجقة لا يهددون الدولة البيزنطية فحسب وانما المسيحية جمعاء ، وأن قوة السلاجقة اخذت تضعف ، ويجب استغلال تلك الفرصة وتوجيه ضربة قوية لهم ، ولولا ان الدو البيزنطية منشغلة بحماية حدودها على نهر الدانوب لقضيق عليهم ، ولهذا جاءت لطلب المساعدة وقد رحب رجال المجمع بتلك الآراء وايدوها ، وقرروا القيام بدعوة صليبية تعزز الامبراطورية البيزنطية فكر البابا مليا في نتائج المؤتمر وعقدت اجتماعات كثيرة اعقبه الاجتماع المهم في كليمونت فيران في فرنسا ،حيث القى البابا خطاب حماسياً استثار به همم الملوك والقسس في ذلك المجمع ليؤدوا دوراً مهم في تلك الحملة ، كما سائد البابا عدد من الرهبان والقسس ومنهم على سبيل المثال أدهمار اسقف بوي Puy وبطرس الناسك الذي كان ممثلاً في طريقة أدائه ، بملابسه الرثة وقدميه العاريتين وحماره الاعرج ، والذي طاف به في مختلف ارجاء اوربا يدعو الى تلك الجملة مدعياً انه اراد الحج فمنع من قبل السلاجقة ، وعلى الأوربيين مساعدته بتحقيق هذا الحلم الذي طالما حلم به ، أو قد يموت ولا تتحقق له زيارة بيت المقدس وكذلك والتر المفلس ، الذي قاد جموع الصليبيين عبر هنغاريا صوب المنظمة الدولة البيزنطية ، وقد تناسى اتباعه وهم يدخلون اراضي الدولة البيزنطية أنهم في بلد مسيحي ، فقاموا بنهب كل ما صادفوه من اشياء ثمينة من البيوت والكنائس والأديرة ولاسيما في القسطنطينية توجهت جموع الصليبيين غير صوب الامبراطورية القسطنطينية يقودهم بطرس الناسك ووالتر المفلس ، وقد أحسن الامبراطور البيزنطي استقبالهم ، وأبقاهم خارج القسطنطينية ، خوفاً من تصرفاتهم التي اخذوا يمارسونها ان لم يكن سلما فبالسلب والنهب والقوة والاكراه، وكما ذكرنا فان الكنائس والأديرة لم تسلم من اعتداءاتهم وبخاصة فان فيها كنوز اوربا ، وما جمعه وقدمه الاباطرة لها، وقد قدم الامبراطور البيزنطي الكيسوس كومنين النصح والارشاد، وأوصاهم بان لا يتعجلوا الحرب مع المسلمين ، ولا يشتبكوا معهم حتى تصل جيوش الامراء، لكن انفلاتهم وعدم قدرتهم على ضبط نفسهم، فضلاً عن عدم تدريبهم ، مما أخاف الامبراطور منهم ، وارسل رسالة للبابا يطلب فيها ارسال جيوش نظامية وليس رعاعا ودهماء غير منضبطين ، اذ اننا نعرف ان الجيش النظامي فيه ضبط وربط وقيادة وأوامر وتوجيهات وزيادة في حرص الامبراطور البيزنطي على عاصمته ، فقد حسن لهم العبور الى البر الآسيوي ، فعبروا مضيق البسفور، لكن الصليبيين لم يتوقفوا عن اعمال السلب والنهب ، وتعرض سكان المناطق التي مروا بها الى كل ما لا يتصوره العقل من اعمال واعتداءات ، وهذه الاعتداءات لم تقع الا على المسيحيين من رعايا الامبراطورية البيزنطية . كما لم يعنوا بما يحيط بهم ولم يعرفوا أن مدينة قونية (عاصفة سلاجقة آسيا الصغرى بقربهم ، وكان السلاجقة يراقبون عن كتب ما يجري حواليهم وعندما وجدوا أن الفرصة سانحة انقضوا على هذه الجموع غير المدربة وابادوها عن بكرة أبيها ، على الرغم من محاولة الامبراطور البيزنطي مساعدتها ، وذلك بارسال سفن حربية رست على الشاطيء الآسيوي، ولكن بعد فوات الأوان. كما اخفت ايضا حملات اخرى قادها عدد من Gottschalk واميخ هو (١) الرهبان مثل فولكمار

Volmar وجوتشوك Emich. وهناك ملاحظة أود أن أشير اليها أن اليهود في اوربا لم يدعموا المشروع الصليبي لأسباب عدة من بينها خوفهم على مصالحهم التجارية ، ولهذا سعوا الى عرقلة المشروع الصليبي وقدموا الأموال لذلك ، والهدف الحفاظ على مصالحهم واستمرارهم في ممارسة الربا واقراض المسيحيين ، وقد جرت مشاكل عديدة بين اليهود والصليبيين اسيء فهم بعضها ودخل التحريض جانبا منها وسادت روح الانتقام ضد اليهود ا تعرضوا في كثير من المناطق الى القتل والمصادرة والتشريد اجتمع قرابة ١٥٠٠٠٠ رجل على الساحل البري قبالة القسطنطيني من الصليبيين وكانت نيتهم تتجه نحو بلاد آسيا الصغرى وبلاد الشام التي مزقتها الحروب الاسرية والمنازعات ، ولهذا قدر للصليبيين أن يفعلوا . يشاءون في المناطق التي مروا بها ما دامت هذه الجبهة ممزقة ،وكار الأمل الوحيد للمسلمين هو موقف سلاجقة آسيا الصغرى من هذا الهجو الصليبي الجارف ، الذين لم يكونوا مهينين تماماً للحدث الكبير الذي قد لهم أن يواجهوه ، وكان على سلطان سلاجقة آسيا الصغرى اتخاذ القرارالملائم والحازم في الوقت المناسب بعد الانتصار الذي احرزه السلاجقةعلى جموع الصليبيين غير المدربة كما مر بنا قبل قليل كانت سياسة السلاجقة الاحتفاظ بعدد من الحاميات العسكرية البسيطة في المدن الواقعة على الطريق العسكري المنطلق من القسطنطينية ، فيما خلت مناطق اخرى من الجند السلجوقي تماماً مما اعطى منفذاً للقوات الصليبية لإجتياز هذه المناطق دون عناء، وكانت مدينة نيقية عاصمة سلاجقة آسيا الصغرى، محصنة بشكل جيد ، لكن لا تستطيع المقاومة الى ما لا نهاية ، وقد ترك السلطان السلجوقي قلج ارسلان فيها حامية عسكرية لتدافع عنها ، وحاصرت القوات الصليبية مدينة قونية ، واستمات اهلها في الدفاع عنها ، على امل قيام السلطان السلجوقي بمحاصرة الصليبيين ، لكن هذا لم يحدث اذ، ترك قلج ارسلان المدينة لقمة سائغة امام الصليبيين الذين لم يرحموا احدا من سكانها ، بعد استسلام حاميتها بموجب اتفاقية عقدت بين القوات الموجودة فيها وبين القوات الصليبية لكن هذا لم يحدث ، اذ نكث الصليبيون بوعودهم كعادتهم . في حين اكتفى قلج ارسلان بالاشتباك مع الصلبيين في معركة دوريليوم حزيران ١٠٩٧م/٤٩٠هـ ، ثم توالى تقدم الصايبيين في الاراضي السلجوقية في وأخذت المدن الواحدة بعد الاخرى تسقط بيد آسيا الصغرى الصليبيين، حتى وصلت قواتهم الى اسوار الرها التي حاصروها ، والتي سقطت بعد حصار لم يستمر طويلا ، واسست اول إمارة صليبية فيها عرفت بامارة الرها ، وهي الإمارة الصليبية الأولى التي نجمت عن هذه الحملة الصليبية. وقد أدى الارمن دورا رئيسا في تسهيل وصول القوات الصليبية الى كل مناطق آسيا الصغرى نظراً انهم من سكان المنطقة ويعرفون طرقها ومزاغلها ونقاط الضعف والقوة فيها ، كما أدى الارمن دوراً آخر وهو قيامهم باضعاف السلاجقة في آسيا الصغرى باعلان الثورات تلو الثورات ضد الحاميات السلجوقية التي كانت تحميه في السابق وتسمح لهم بممارسة اعمالهم وتجاراتهم و وعباداتهم تنبه الأرمن على الخطأ الذي ارتكبوه ضد الملاحقة بالرغم من محاولات بلدوين التقريب وجهات النظر بين الأرمن واللاتين وذلك بزواجه من ابنة احد

زعماء الأرمن الأميرة أرادا Arada فحاولوا الاتصال بالارائقة لكنهم فشلوا وكشفت المؤامرة وعوقب مرتكبوها وبذلك دفع الأرمن الثمن غالياً الخيانتهم السادتهم السلاجقة ثم توجهت القوات الصليبية الأخرى الى حصار مدينة أنطاكية ، التي كان يحكمها باغي سيان، وحاصروها لمدة تقرب من تسعة اشهر ، وأدى بوهيمد دوراً في منع وصول الامدادات الى المدينة، فضلاً عن جهوده في الاستفادة من الأساطيل الايطالية في حصار المدينة بحراً ونقل الامدادات للصليبيين عبر البحر ، وتم الاستيلاء على المدينة بعد خيانة فيروز أحد قادة ياغي سيان ، ولم تفلح امدادات كربوقا أمير الموصل في منع سقوط المدينة ، والتي كانت قواته على بعد ثلاثة أيام قبل سقوطها بيد الصليبيين . وجاءت قوات كربوقا وفرضت الحصار على الصليبيين فيها إلا از القوات الصليبية ما لبثت أن انتصرت على قوات كربوقا ، بعد معانا شديدة في داخل انطاكية وبهذا الانتصار اسس الصليبيون الامار الصليبية الثانية في مدينة انطاكية لقد أثار سقوط أنطاكية موجه من الذعر والخوف في مختلف البلا الاسلامية القريبة منها ، وذلك لكونها تشرف على عقدة مواصلات لل الجهات مع بقية ارجاء العالم الاسلامي ، وقد هرب من كان بها مو المسلمين وتسلمها الارمن ((، كما أن سقوط انطاكية بيد الصليبيين) منقطع النظير في البلاد الأوربية لم يماثله الا حماس احتلا بيت المقدس ، فانطاكية مدينة قديمة لها تاريخ حافل ، فهي ملتة آثار حماساً .الحضارات اليونانية والعربية، ومركز تجاري مهم بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية. وتوجهت القوات الصليبية إلى مختلف المدن المهمة على طريق القدس فاحتلوها وهذا ما حدث في مدن عديدة فابادوا اهلها وخربوا بساتينها وحرقوا أسواقها بعد النهب وهذ ما حدث فى كل مدن بلاد الشام ونتيجة لما ومنها معرة النعمان مسقط رأس ابو العلاء المعري حدث فقد استنجد الخليفة بالسلطان السلجوقي ٤٩١هـ / ١٠٩٧م برسالة يدعوه فيها الى الجهاد (٣) ، ولكن السلطان السلجوقي كان منشغلا بمشاغله ومشاكله الداخلية لتثبيت حكمه ، وكانت هذه الرسالة بمثابة انذار اطلقه الخليفة ليحمل السلطان المسؤولية الكاملة امام الله وامام الناس ثم توجهت القوات الصليبية جنوباً نحو بيت المقدس الهدف الاكبر للصليبيين ولتلك الحملات العديدة وحاصروا المدينة حتى سقطت في ١٥ تموز ١٠٩٩م/٤٩٣هـ ، وتم ارتكاب ما لا يمكن وصفه او ذكره من قبل الصليبيين في بيت المقدس من اعمال وحشية يندى لها جبين الانسانية وبتأسيس امارة بيت المقدس انتهت الحملة الصليبية الأولى، والتي نجم عنها تأسيس ثلاث إمارات صليبية هي الرها وانطاكية وبيت المقدس . وقد أشار باركر وهو مؤرخ مسيحي الى ما حدث في بيت المقدس من مجازر يؤكد ما ذهبنا اليه ((وأجرى الصليبيون مذبحة ، اذ ان الدماء بلغت من شدة التدفق في الشوارع ، ان خاص مريعة الناس بخيولهم فيها ، ولما انزل الليل ،استاره، اقبل الصليبيون آخر الامر الى كنيسة القيامة ، وقد بكوا من شدة الفرح ، وفي الكنيسة رفعوا أيديهم المخضبة بالدماء ، وصاروا يجهرون بصلاتهم ومن هذه الاشعار الصريحة والخشنة في مسحتها الطبيعية والمفعمة بالعداء ((لشعب الكفار يقصد المسلمون ((يحكي مؤرخو القرون الوسطى نقلا عن اقوال شهود عيان عن المآثم والفضائع

التي اقترفها الصليبيون في القدس العربية حين احتلوها في ١٥ تموز ١٠٩٩م/٤٩٤هـ :الافرنج يجوسون المدينة شاهري السيوف لا يشفقون على احد حتى على الذين يتوسلون الرحمة سقط شعب الكفار تحت ضرباتهم مثلما تسقط جوزات البلوط المهترئة من شجرة البلوط حين يهزون اغصانها ويتساءل زابوروف لأية اهداف ابدوا القساوة وعدم الرحمة؟ اية مثل عليا كانت تلهمهم وتشجعهم؟ وهل تطابقت مع هذه المثل العليا النتائج العملية لحروب الفرنجة التي استمرت حتى بعد الاستيلاء على القدس، على امتداد قرنين في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط ؟وقد اثار سقوط بيت المقدس أشجان المسلمين في كل مكان ،ومر يتتبع كتاب الفتح القسي يجد مصداق هذا الكلام. وقد قال الشاعر الابيوردي في هذا الباب مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للمراحم وشر سلاح المرء دمع يفيضه اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

آثار الاحتلال الصليبي في العالم الاسلامي :

لم تكن الحملة الصليبية الأولى مجرد غزوة عابرة قامت بها الدول الأوربية بدعم من الكنيسة فحسب بل هي حملة منظمة استهدفت فيما استهدفته السيطرة على مناطق خارج اوربا ، لأهداف معلنة واخرى غير معلنة ، غلفت بغلاف الدين وحماية الاراضي المقدسة في فلسطين ،قادتها ووجهتها الكنيسة الغربية الكاثوليكية لأهداف معروفة لدينا ، وهي قيادة العالم المسيحي تحت قيادة مسيحية موحدة ، وقد حاولت الكنيسة الغربية رأب الصدع الذي ما لبث أن ظهر بين قادة تلك الجيوش الصليبية اكثر من مرة مما يوضح الانقسام الذي كان دائماً ما يحدث بين الامراء المتنازعين على السلطة والمتنافسين للسيطرة على المناطق المختلفة طبقاً لما يراه هؤلاء الامراء من مصالحهم الخاصة ، دون الالتفات الى مصالح الكنيسة التي هيأت لهم هذه الظروف ، فتنافسوا فيما بينهم بحروب وتحالفات كثيرة . اما اثر هذه الحملات في مختلف مناطق العالم الاسلامي فكثيرة ، فقد مزقت هذه الحملات البلاد الاسلامية بسيطرتها على قلب العالم الاسلامي مقطعة أوصاله ومعرقلة لخطوط مواصلاته وتجارته ، فانعدمت الزراعة نتيجة للحروب الكثيرة التي خاضها الصليبيون فيما بينهم، أو الحروب التي قام المسلمون بشنها عليهم لإسترداد اراضيهم ومناطقهم كما مارس الصليبيون. اقسى انواع الظلم على من بقي من المسلمين تحت سيطرتهم وفرضوا عليهم نظام المجتمع الاوربي الذي كان سائداً في اوربا (نظام القنانة) وهدموا المساجد والجوامع ، ومما يدل على ذلك قيامهم بتدمير المسجد الاقصى وقتل الناس الموجدين فيه، اثناء دخولهم الى بيت المقدس، تماماً كما يفعله الصهاينة اليوم ، كما لم تقف اطماع الصليبيين بتأسيس الامارات الثلاث ، بل حاول كل امير منهم ان يوسع من ممتلكاته على حساب المناطق المجاورة ، ونحن نعرف ان بلاد الشام ، مركز الثقل الصليبي في هذه الامارات ، كان من أخصب وانشط

وارقى بقاع العالم أنذاك من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلمية لكن الغزو الصليبي لبلاد الشام حولها الى مناطق مدمرة ومجزأة، فقطعت طرق المواصلات واهملت الزراعة ، وتأخرت الحركة العلمية و انقطعت طرق الحج والتجارة ورحلات العلم، الا ما يقوم به الصليبيون من نشاطات في هذا الجانب يدعمهم التجار الايطاليون . فضلا عن الحروب التي نشأت بين القوى الصليبية والمسلمين والتي أدت بدورها الى القضاء على كل العناصر الحضارية في هذه المنطقة ،فخربت المدن وانهدمت الاسوار والتحصينات واندثرت الجداول ومشاريع الري في المنطقة، فضلاً عما تخلفه تلك الحروب من مشاكل اجتماعية خطيرة فالحرب تعد مطحنة للرجال من كلا الطرفين ، وتنعكس آثارها في المجتمعين الاسلامي والأوربي -٢- تحرير الرها والحملة الصليبية الثانية: تولى إمارة الموصل قائد قدير يعرف بعماد الدين زنكي ، والذي وسع حدود إمارته فسيطر على حلب وضمها الى اتابكيته ، وقام بسلسلة كبير من الاجراءات الطويلة والمدروسة ، لكي يثبت اقدامه في الموص وحلب ، ومن ثم يتوجه صوب احدى الامارات الصليبية ، وقام عماد الدين زنكي بسلسلة من الاجراءات التي اعطت جيشه دفعاً جديداً معنوية عالية عبر قيامه بسلسلة من المعارك ان صحت تسمية بالاستطلاعية لغرض جس قوة العدو وتدريب قواته على الأرض التي ستجري عليها المعارك مستقبلاً ، وتحرير ما يمكن تحريره من الموصل والحصون التي كان الصليبيون مسيطرين عليها ، فلما اكمل زنكي الاستعدادات العسكرية توكل على الله سبحانه واتجه بكل ثقله العسكر متبعاً كل أساليب الخداع والتمويه من اجل ان يضيع الهدف الحقبة المتجه له ، ولمنع أي تقارب صليبي صليبي او صليبي بيزنطي ، كما كان يحدث من قبل فتوجه الى منطقة ديار بكر أولاً حتى لايشك الصليبيون بانه يقصدهم ، ومن ثم القيام بحركة سريعة جدا للوصول الى الهدف وهو تحرير مدينة الرها من يد الصلبيين ، وهذا ما تم فعلاً فحررها في ٢٦ جمادي الثاني ٥٣٩هـ /٢٣/ كانون الأول ١١٤٤م ،وهذه اول إمارة صليبية تسقط بيد المسلمين ، وكانت هذه المعركة انطلاقة جديدة لتحرير كل الأراضي الخاضعة لحكم الصليبيين في بلاد الشام وفي غيرها من المناطق ، إذ تحرك عماد الدين زنكي بكل ثقله الى المدن التابعة الإمارة الرها وسيطر عليها مثل مدينة سروج وغيرها من المدن القريبة والقلاع الحصينة التي كان يحتمي بها الصلبيون فيما سبق ولكن يد الغدر امتدت الى عماد الدين زنكي وهو يجاهد عندما كان يحاصر قلعة جعبر ليتقوى بها على الصليبيين ، ولكن أمر الله سبحانه وتعالى قدرا مقدورا ، فرحم الله عماد الدين زنكي وقد انقسمت اتابكية زنكي الى قسمين رئيسين هما اتابكية حلب التي اصبحت من نصيب نور الدين واتابكية الموصل التي اصبحت من ممتلكات سيف الدين غازي . ان سقوط إمارة الرها افقد الصليبيين صوابهم وضيع النشوة التي كانوا يتمتعون بها بعد احتلال تلك المدينة ، التي كانت تشكل بموقعها أكبر معوق لأي جهد اسلامي في اعادة ترتيبات المنطقة بعد الاحتلال الصليبي، وقد اصطدمت كل الجهود الاسلامية بصخرة الرها ، التي كانت تتصدئ لأية محاولة لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين ، حيث حطمت بوجودها كل جسور

الاتصال بين المسلمين في اسيا الصغرى – والشام والعراق لقد اثار سقوط امارة الرها حفيظة البابا يوجين الثاني، فالتفت إلى فرنسا مركز انطلاق الحملة الصليبية الأولى واصدر منشوراً بابوياً دعا فيه فرنسا ممثلة بملكها لويس التاسع يحضه فيها على الاسهام والانضمام الى هذه الحملة الصليبية الجديدة فلبي لويس التاسع نداء البابا واقسم ان يشترك في هذه الحملة في يوم عيد الميلاد (ان) ان الرها قد سقطت بيد المسلمين في يوم عيد الميلاد من سنة ١١٤٤م) من سنة ١١٤٥م ، لكن جهود فرنسا لم تكن كافية فحث البابا القديس برنارد ، وقد استطاع هذا الأخير ان يجتذب اليه ملك المانيا كنراد الثالث، وتكتسب هذه الحملة اهميتها من اشتراك ملكين من ملوك أوربا بها وهما لويس التاسع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك المانيا. اد انطلقت الحملة الصليبية الثانية) هناك ملاحظة اود ان اشير اليها وهو أن تسمية الحملات وتعدادها هو امر غير دقيق ، وذلك أن الحملات الصليبية لم تنقطع ولا لسنة واحدة بل كانت مستمرة ، وحتى ان كنا دقيقين في اطلاق التسمية لم تنقطع شهرا واحدا) ، بعد جدال طويل الى الشرق متخذة الطريق البري المار بالقسطنطينية ، وقد سار كل جيش بعيداً عن الآخر خشية التصادم ، كما انهم واجهوا السلاجقة في آسيا الصغرى متفرقين ، وبسبب تقدم الألمان على الفرنسيين فقد أصطدموا مع قونية في معركة دوريليوم ١١٤٧م وعادوا خائبين بعد ان هلك معظم جندهم، كما لم يستفيدوا من الجيش الفرنسي الذي صحبه لويس التاسع والذي وصل بعد انتهاء المعركة اما لويس التاسع فقد اتخذ الطريق الطويل الساحلي الموصل الى بلاد الشام فعانى ما عانى من مشاكل وملاحقات السلاجقة على طول الطريق الساحلي البعيد جدا فوصلها في سنة ١١٤٨م ، وقرروا مهاجمة دمشق الحليف الوحيد للصليبيين في بلاد الشام ، بعد وصول كنراد من القسطنطينية بحراً، وحاصروا دمشق لمدة أربعة ايام . استطاع وزير دمشق معين الدين انر أن يبذر الشقاق بين الصليبيين القدامى والجدد وبدل الرشاوي فرفع الحصار عن دمشق في حزيران من سنة ١١٤٨ اخفقت الحملة الصليبية الثانية ، وبينت مدى الضعف الذي تعاني منه اوربا حتى ولو اشتركت في حملات عسكرية يقودها البابا بنفسه وادت المصالح الشخصية دورا كبيرا في أفشالها ، كما أن فشل هذه الحملة اثار حفيظة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، من توسع سلطة الصليبيين في المستقبل فبدأ بتحرير المناطق التي قد تقف حجر عثرة امام جهوده في طرد الصليبيين من بلاد الشام ، أو تلك التي قد يتخذها الصليبيون مستقبلا قاعدة انطلاق لهم في المستقبل ، فحرر تل باشر ومناطق اخرى كانت تتخذ قاعدة انطلاق وهجوم ، وقد اثارت اعمال نور الدين محمود ، حفيظة الامراء الصليبيين في بلاد الشام فجددوا تحالفهم مع دمشق وتحالفوا فيما بينهم وعقدت مصاهرات تزوج مانويل من ماريا ملكة انطاكية ، وتزوج بلدوين و املريك من بيت كوسنين) هدفت الى توحيد الصليبيين في بلاد الشام ضد نور الدين محمود الأوضاع في مصر : لقد حرر عماد الدين زنكى امارة الرها وسعى الى تحرير مناطق أخرى ومنها قلعة جعبر التي كان يسيطر عليها سالم بن مالك العقيلي وحاصرها فى صيف ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، لكن يد الخيانة امتدت الى عماد الدين زنكى

واغتالته وهو نائم في خيمته ، وربما قام امير جعبر أو التحالفات الصليبية دورا فى هذا الاغتيال وبعد وفاة عماد الدين زنكي انقسمت دولته على قسمين امارة الموصل اصبحت تحت قيادة سيف الدين

لبلغازي وإمارة حلب وهي المهمة وفي صدر الاحداث تحت المارة نور الدين محمود فالاول كان صاحب سياسة وأناة يزينها اقدام يكف عنه الطامع)) ((والثاني جياش القلب بالايمان يرى نفسه مجاهدا لم يخلقه الله الا لجمع كلمة المسلمين واخراج الاعداد من ديارهم، وكا في طبعه رقة كسبت له نفرا من أعدائه كانوا قد نفروا من عنف أبيه عماد الدين زنكي وكان إلى ذلك عنيفاً قنوعاً اذا قرأت سيرته حسبت انك أمام مرابط مجاهد بسيط ، لا امام سلطان له جاه وجيوش التحق بخدمة الأمير نور الدين محمود احد القادة الاكراد واسمه اسد الدين شيركوه، وقد صحبته أسرته حيث انتقلت من قلعة تكريت التي كانت يوما ما تابعة لأتابكية الموصل في ظل عماد الدين زنكي ، وكان من بين افراد اسرته صلاح الدين الأيوبي ذلك الفتى اليتيم الذي تربى وترعرع بين احضان عمه اسد الدين شيركوه وبعد انتصار عماد الدين زنكي على الصليبيين واستعادة الرها فكر الصليبيون باحتلال مصر بوصف انها المكان الأفضل بالنسبة لهم ولكي يستفيدوا من امكانات مصر الاقتصادية ومن موقعها المطل على البحر المتوسط والبحر الأحمر، وقد خططوا وقاسوا المسافات والمراحل اليها ، ونقلت اليهم ضعف أوضاعها السياسية وانشغال حكامها وقادتها بمشاكلهم الداخلية وتناحرهم على المناصب والاستئثار بالسلطة وضعف الخلفاء المتأخرين من الفاطميين وقد كان الصراع في مصر متأججاً بين الوزيرين ضرغام الذي التجأ إلى الصليبيين) وشاور (وهما من وزرا الدولة الفاطمية) فالتجأ شاور إلى نور الدين محمود في بلاد الشام وطلب منه المساعدة لإرجاعه الى منصبه بوصفه وزيراً للخليفة الفاطمي ، مقابل الاعتراف بتبعيته للأمير نور الدين محمود ولقاء مبلغ من المال يؤدي له فارسل نور الدين محمود معه جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه ، بحيد اعاده الى منصبه ، وحدث خلاف بعد ذلك أطاح بالوزير شاور بعد تنكر لمن اعاده الى الوزارة وتحالف مع الصليبيين، وتولى الوزارة أسد الدين شيركوه ، ثم اعقبه ابن اخيه صلاح الدين الأيوبي الذي اصبح وزيرا ، ثم قلب الحكم لصالح الخلافة العباسية، وقضى على الخلافة الفاطمية في مصر . واصبحت مصر تابعة بشكل رسمي الى أمارة نور الدين محمود في بلاد الشام وكان عليه أن يسخر جهود مصر لخدمة القضية الكبرى وهي القضاء على المعاقل الصليبية في بلاد الشام ، وهذا لم يحققه نور الدين محمود في حياته بل حققه خليفته وولي نعمته صلاح الدين الأيوبي . بدأ صلاح الدين الايوبي من حيث انتهى سيده نور الدين محمود في الاعداد لتكوين جيش قوي يخضع له بالولاء ويدين اليه بالطاعة ،وقد واجه بعض المصاعب من سكان مصر أولا ومن سيده نور الدين محمود وخلفاء نور الدين محمود الدين وقفوا في بعض المرات ضد سياسته ، حرصاً على مصالحهم الخاصة ، ودون الالتفات الى مصلحة المسلمين التي هي من مصلحتهم أيضاً ، أو في نهاية الأمر . واخذ صلاح الدين الايوبي يسعى الى توحيد الجبهة الاسلامية مما اقتضى السيطرة على حلب الى السيطرة

على اتابكية الموصل والمناطق التابعة لها ، مما اثار ضده بعض المشاكل هو لم يهدف فيما كان يهدف الى السيطرة على هذه المناطق واتخاذها عمقاً استراتيجيا له في ساعات الضرورة ، ولاسيما ان نتيجة المعارك لم تكن دائماً . مضمونة النتائج لصالح صلاح الدين الايوبي اخذ صلاح الدين الايوبي يعد العدة امواجهة حاسمة مع الصليبيين واخذ يتحرك بعدة استراتيجيات فى وقت واحد فهو يعد العدة لإسترجاع حصن معين ، وفي الطريق يؤدب بعض المتمردين عليه كما يسعى الى عقد تحالف جديد يهدف فيما يهدف اليه مستقبلاً تحقيق هدف جديد يعينه في الحرب القادمة وهذا لا يتحقق بدون جهد عسكري كبير ، فاقتضى هذا اعداد جيش مدرب على كل انواع الاسلحة ومستغلا طاقات المتطوعين الذين يشكلون قوة لابأس بها في حماية الاجنحة والقدمات الادارية والمناطق الساقطة عسكرياً، حتى لا تتمكن قوات العدو من استغلالها لضرب المسلمين من الخلف او من الاجنحة او اشغال الجيش الايوبي بالهجوم على عدد من المناطق اثناء الهجوم على قوة العدو الرئيسة ،كما ان اعداد الجيش يقتضي توفير الاموال الضخمة لتلبية متطلبات الجيش واهمها دفع رواتب الجند في اوقاتها المحددة وتهيئة متطلبات الجند من ملابس وغذاء للجند وعلف للخيول والدواب الأخرى ولم يغفل صلاح الدين الايوبي عن الاسطول ، فكما نعلم ان الاسطول الفاطمي قد تعرض الى التدمير على يد الصليبيين ، كما ناله الاهمال في أواخر العهد الفاطمي ،ولذلك عني صلاح الدين الأيوبي بالاسطول ، وقد حضه الخليفة العباسي على ذلك (وقد علمت ان العدو ها جارك الادنى، والذي يبلغك وتبلغه عيناً واذناً، ولا عذر لك في ترك جهاد بنفسك ومالك اذا قامت لغيرك الاعذار، فلا بد له من اسطلول يكثر عدده ويقوى مدده، فانه العمدة الذي تستعين بها على كشة . الظلماء، والاستكثار من سبايا العبيد والاماء ، وجيشه اخو الجيش..... فذلك يسري على متن الريح ، وهذا يجري على متن الماء)) على رفع رواتب رجال الاسطول بنسبة ٢٠% على الرغم من ، وعمل صلاح الدين الأيوبي على رفع رواتب رجال الاسطول بنسبة ٢٠% على الرغم من ضعف إمكاناته في هذا الوقت بالذات كما كاتب امراء المغرب لدعم أسطوله فقد كتب اليه) فأن كانت الاساطيل بالجانب الغربي ميسرة ، والعدة فيها متوافرة ، والرجال في اللقاء فارهة وللمسير غير كارهة، فالبدار البدار . كما لم يغفل صلاح الدين الايوبي عن العناية بالمدن الساحلية وتحصينها ضد هجمات الصليبيين لإتخاذها قواعد دفاع وامداد للجيش الاسلامي ومحطات تعويق ومشاغلة للعدو في حالات الهجوم ، حتى لاتكون متفرغة لإمداد الصليبيين اثناء الهجوم الاساس الذي كان يخطط له صلاح الدين الايوبي ، وهو استعادة بيت المقدس من يد الصليبيين كما شرع صلاح الدين الايوبي بمهاجمة الحصون المهمة التي تشكل خطراً عليه وعلى المسلمين واخذ يحاصر الحصون ذات الاهمية السوقية ويفتتها او يهدمها حتى لا يستفيد منها الصليبيون مستقبلاً ، وكان ملك ارناط قد أتعب المسلمين وصلاح الدين الايوبي معا ، وعلى الرغم من الهدنة الموقعة بين ارناط وصلاح الدين الا ان ارناط لم يلتزم بشيء ولم يمتثل لأوامر ملك بيت المقدس ، فنذر صلاح الدين دمه وعاهد الله سبحانه وتعالى أن

أمسك به ليقتله بيده وكانت قسم من قوات صلاح الدين قد اشتبكت مع الصليبيين عند صفورية بقيادة مظفر الدين كوكوبوري ،وكبدت الداوية والاسبتارية خسائر فادحة شجعت صلاح الدين على التوجه لقتال الصليبيين.

معركة حطين وتحرير بيت المقدس

ارسل صلاح الدين الأيوبي رسائل الى مختلف مناطق البلاد الاسلامية ، يحضها على المشاركة في حملة كبيرة لتحرير بيت المقدس من يد الصليبيين، وجاءته الجيوش من مختلف أرجاء العالم الاسلامي وقد اتخذ صلاح الدين الأيوبي الاجراءات المناسبة لحماية الجيش المصري اثناء توجهه الى بلاد الشام فقام هو بحماية ميمنة الجيش المصري من غارات الصليبيين في منطقة الكرك والشوبك ووادي عربة ، وهذا قد أمن وصول القوات المصرية الى بلاد الشام بسلام فعله وفي مطلع عام ٥٨٣هـ وصلت القوات الاسلامية من مختلف أرجاء البلاد الاسلامية من الموصل وحلب ومصر وغيرها من المناطق الاسلامية ، كما اجتمعت القوات الصليبية في مدينة صفورية ، وقد استشار صلاح الدين الايوبي كبار قادته ومستشاريه فيما يجب ، فأشاروا عليه بعدم التعرض لهم والاكتفاء بالنهب والغارة والتخريب وقد رد عليهم صلاح الدين علينا ان نلقى بجميع المسلمين جميع الصليبيين، فان الامور لاتجري بحكم الانسان ولا نعلم قدر الباقي في اعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد فلما رأى الأفرنج وجهة صلاح الدين الى طبرية اجتمعوا للتشاور فقال : علينا بمقاتلة المسلمين ومنعهم من اجتياح مدينة طبرية ، وفي هذه الاثناء وصلت الصليبيين انباء عن فتح مدينة طبرية دون قلعتها ،فاختلفوا ، ((فقال لهم القمص ان طبرية لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين جميع بعضهم بالمدينة ما فعل، وبقي القلعة، وفيها زوجتي وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديث ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة، واذا اخذ طبرية لا يكمنه المقام بها، فمتى فارقها وعاد ،اخذناها، وان اقام لا يقدر على المقام بها الا بجميع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم واهليهم ، فيضطر الى تركها ، ونفتك من أسر منا)) ، وقد عارضه ارناط صاحب الكرك ، وجرت المعركة ،حيث سحب صلاح الدين قواته من طبرية ، وكان هدف صلاح الدين من محاصرة طبرية هو الإجبار الصليبيين على القتال في مناطق مختارة بدقة وعناية ،حيث اختار صلاح الدين مكانا يوفر للمسلمين الحماية والماء ويحرم الصليبيين منهما، وتقدم المسلمون واشتبكوا مع الصليبيين وهم يحاولون ان يصلوا الى الماء في طبرية فصدهم صلاح الدين عن هدفهم ،وقام بعض المسلمين بحرق الأحراش فاصبح الصليبيين بين نار صلاح الدين وخطته وبين نار القصب وقد قاتل كلا الفريقيين قتال اليائس ، حتى كتب الله النصر للمسلمين في معركة حطين، وكان أشد شيء في المعركة هو نصب الصليبيين لصليب الصلبوت الذي يدعي الصليبيون ان السيد المسيح عليه السلام قد صلب عليه حيث عمل هذا العمل فعله في استمرار القتال الصليبيين وتم هذا النصر في

العشرين من ربيع الآخر من سنة ٥٨٣هـ / ٤ تموز ١١٨٧م . اسفرت معركة حطين عن هزيمة كبرى للقوات الصليبية ((ومن عاين القتلى ذلك اليوم :قال ماهنالك اسير ومن عاين الاسرى قال : ما هنالك قتيل)) ، وكان صاحب الكرك ارناط من بين الأسرى فذكره صلاح الدين بما قام به من نكث المواعيد والمعاهدات ثم قتله بيده الكريمة وعفى عن بقية الملوك بعد معركة حطين كان على صلاح الدين الايوبي خياران لاثالث لهما ، هي اما ان يتجه بقواته الى بيت المقدس ويحررها من يد الصليبيين او ان يتجه الى الساحل لتحرير المدن الساحلية وقطع الصلة بين أوربا وبين الصليبيين ومن ثم ترك الحصون الصليبية في الداخل دون اسناد او نجدة وذلك لسيطرة المسلمين على المدن الساحلية ، ولكن صلاح الدين سلك الخيار الأول وهو مهاجمة مدن الساحل ، فوصلت قواته إلى أسوار عكا ففتحها وفتح أغلب مدن الساحل مثل صرفند وصيدا وبيروت وجبيل وبقيت صور و عسقلان وطرابلس وبيت المقدس بيد الصليبيين. بعد هذا اتجه صلاح الدين الأيوبي الى مدينة القدس وحاصرها بعد ان حررمدينة عسقلان ، وابلى كلا الطرفين ضروباً من البسالة فقال ابن الاثير)) وقوتلوا اشد قتال راه احد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً، وحتماً واجباً، فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ، ويزجرون ولا ينزجرون)) . بعدها ادرك الصليبيون أن لا قبل لهم بالمقاومة فأذعنوا الى الاستسلام بعد أن رفض طلبهم أول الأمر فوافق صلاح الدين على ذلك ففتحت بيت المقدس ابوابها للمسلمين في ٢٧ رجب من سنة ٥٨٣هـ /٢/ تشرين الأول من سنة ١١٨٧م ، وقد سمح صلاح الدين للافرنج بمغادرة المدينة المقدسة يعكسر ما فعلوه من مجازر عندما احتل الصليبيون مدينة القدس واود هنا از انقل نصاً ذكره أحد المؤرخين الغربيين لنذكر به صغار النفوس من الغربيين ومن يركض وراءهم : ((الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهرو بالاستقامة والانسانية، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضور دماء ضحاياهم لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل باحد الاشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة بناءً على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين)) كما وصف صلاح الدين بانه كان بعيدا عن روح الانتقام ((والواقع ان رحمته وعطفه كانا على نقيض افعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى... وهو في نضاله كان بعيدا كل البعد عن التأثر بأي عداء شخصي او الرضوخ لشهوة الانتقام ، وعلى العكس من ذلك كان الكثيرون من زعماء الصليبيون بمن فيهم رجال الدين لا يعرفون الا مصلحتهم الشخصية .)) وبعد تحرير بيت المقدس تجمعت كل القوات الصليبية في مدينة صور ، واصاب الجند الاسلامي التعب جراء المعارك التي خاضوها ولكون الشتاء على الابواب قرر صلاح الدين رفع الحصار عن صور ، ريثما تتحقق له فرصة اخرى بعد، ان ادى دوره على أفضل ما يجب، للدفاع عن حدود المسلمين وتحرير اراضيهم

آثار تحرير بيت المقدس على الوضع الأوربي

تلقت اوربا كنيسة وملوكاً نبأ تحرير بيت المقدس بأسى كبير وشعرت الكنيسة وملوك اوربا بانهم قد اهملوا اخوانهم في بلاد الشام وتركوهم لقمة سائغة امام المسلمين ، لذا قرروا القيام بالدعوة لحملة صليبية اخرى ، عرفت بالحملة الصليبية الثالثة فقد أثارت انتصارات صلاح الدين الايوبي في تحرير بيت المقدس ومعظم مدن ساحل بلاد الشام من ايدي الصليبيين ، حفيظة ملوك اوربا مما دفع بعضهم الى تناسي خلافاتهم واحقادهم وتوحدوا لإعداد حملة صليبية جديدة عرفت بالحملة الصليبية الثالثة وحدث تحالف بين اطراف مختلفة فكرياً وعقائدياً من اجل هدف واحد وهو محاربة صلاح الدين الأيوبي والمسلمين في بلادالشام وضرورة استعادة السيطرة على بيت المقدس من يد المسلمين، فقد تحالف ملك صقلية النورماندي وليم الثاني مع امبراطور الدولة البيزنطية هذه الدولة وعقد صلحا مع هذه الدولة التي حاربها سنين طوال ، وارسل الباب جريجوري الثامن كتيبة من الدعاة الى مختلف اقطار أوربا يدعوهم فيه للاشتراك في حملة صليبية جديدة ومهدداً من لم يشارك فيها بالحرمان والطرد من الكنيسة واعداً اياهم بغفران الذنوب ، كما لعب البابا التالي دوراً مهماً في مخاطبة ملكي فرنسا وبريطانيا للاشتراك في الحملة ، وقد تناسى هذان الملكان ما بينهما من منازعات وحروب وقررا الذهاب الى الشام ودعيا جميع رعاياهما للانخراط في الحملة ،وان من لا يشترك فيه عليه بان يدفع ضريبة العشر والتي سميت بـ (عشور صلاح لدين.) كه شاركهم ملك المانيا الذي اعد حملة كبيرة عبرت القسطنطينية الى البـ ، لكنها فشلت في تحقيق هدفها بسبب تحالف امبراطور الدولة البيزنطية مع صلاح الدين الايوبي فتعرضت حملة ملك المانيا الـ الآسيوي الابادة.

٣- الحملة الصليبية الثالثة :

اما عن الحملة الصليبية الثالثة (حملة ملك انكلترا وفرنسا) فجاءت لمسانده الملك جي لوزجان الذي اسره صلاح الدين الأيوبي بـ سوف لن يحاربه ابدا إذا اطلق سراحه وعفا عنه بعد أن أعدم أمامه مـ الكراك ورأى الموت امام عينيه ، الا أن الصليبيين غالباً ما ينسون قطعوه على انفسهم من عهود وينكثون بما عاهدوا الله اولاً وما عاهد من عفا عنهم فجمع هذا الملك الصليبي ما يقرب من ٢٠٠٠٠ من صليبي من الذين اطلق صلاح الدين الايوبي سراحهم وجندهم لمحاصره مدينة عكا استنجد صلاح الدين الايوبي بالعساكر من مختلف المناطق كتب الى امراء الموصل والجزيرة ومصر وسنجار وحلب فجاء العساكر من كل حدب وصوب ولو ان بعضها وصل متأخرا واثر بعضها الانسحاب عن عسكر صلاح الدين وهو يدافع عن عكا بلغت القوات الصليبية قرابة ال ٣٠٠٠٠ مقاتل وحدثت خروقات في تطبيق خطة صلاح الدين الايوبي وذلك بعدم اطاعة بعض قادة جنده له وإهمالهم متابعة الصليبيين الخارجين من صور من الالتحاق بالعسكر الصليبي المحاصر

لعكا، كما استخدم الصليبيون الجنس في محاربة المسلمين فقد روى صاحب كتاب الفتح القسي ، قد وصلت في هذه المدة عن طريق البحر سفينة صليبية فيها ثلاثمائة امراة ((متزينة قد إجتمعن وأنتدبن للجزائر .. وتأهبن لإسعاد الاشقياء وتلهين على السفاح والفساد من كل زينة .. فاجرة نجلاء كحلاء ، فوصلن وقد سلبن انفسهن .. وذكرن انهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن ...وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب)) وهذا النص يشير الى ان الصليبيين قد استخدموا الجنس كسلاح في حربهم ضد المسلمين ، وبخاصة اذا ما علمنا ان هؤلاء النسوة قد نصبن خيامهن قرب المعسكر الإسلامي

تظافرت عوامل داخلية وخارجية (الداخلية تواطؤ سكان عكا من المسيحيين مع الصليبيين ومراسلتهم ونقلهم صورة حقيقية عما يجري داخل المدينة، والخارجية عدم معرفة خطط الصليبيين فعندما يقع أسير صليبي بيد المسلمين كانوا لا يعرفون كيف يحصلون منه على المعلومات الاستخبارية، ولو تكلم ما عرفوا أو فهموا لغته) ، على افشال الدفاع عن عكا رغم استماتة حاميتها في الدفاع عنها لمدة سنتين ، لكن طول فترة الحصار وتواصل الامدادات الاوربية من البحر تساعده سفن البندقية وبيزا وجنوة ومرسيليا ونابولي وغيرها ، فضلاً عن دعم الكنيسة المستمر لتلك الحملة وعدم قدرة القوات الاسلامية على التواصل مع المعركة وخيانة اطراف وانسحاب أطراف أخرى ، عجل بسقوط مدينة عكا ،وقد قتل كل من وجد في عكا من المسلمين نساء ورجالا وأطفالاً وهذا هو حال الصليبيين في كل مدينة يدخلوها فلو ان صلاح الدين الأبوبي قتل الصليبيين الخارجين من بيت المقدس وحدها لما سقطت عكا مهما جاءت من امدادات فكيف بتركه لكثير من سكان المدن الأخرى من الصليبيين والتي حررها وتركهم يخرجون منها بموجب اتفاقات ومعاهدات احترمها المسلمون وصلاح الدين الايوبي وطالب فيها الصليبيون بالسماح لهم بالرجوع الى أوطانهم، فيم، كان النكث والغدر من الجانب الصليبي واضحاً جداً

٤ تعداد الحملات الصليبية الأخرى:

أ – الحملة الصليبية الرابعة : ١٢٠٢-١٢٠٤م/٥٩٩-٦٠١هـ

نظرا لفشل الحملة الصليبية الثالثة في استرجاع بيت المقدس من المسلمين اعدت البابوية حملة أخرى في فرنسا ولعب البابا أنوست دورا مهما في اعدادها وكان هدف الحملة مصر ولا يمكن احتلال مصر إلا بالاستعانة بالاساطيل الايطالية وتم ابرام اتفاقات من المدن الايطالية تحصل بموجبه هذه المدن على ٨٥٠٠٠ مارا

والاستيلاء على ما يحتله الصليبيون مناصفة الا ان هذه الحملة لم تتم : اتجهت نحو مدينة القسطنطينية وذلك للاسباب التالية :

١- العداء الذي يكنه الصليبيون للامبراطورية البيزنطية الشرقية وذلك لاعتقادهم بانهم لم يساعدوا الصليبيين المساعدة الكافية لإحتلال بلاد الشام في الحملات السابقة.

٢- رغبة المدن الايطالية بالحصول على امتيازات جديدة بعد هدم البندقية في القسطنطينية حيث خسرت الكثير جراء هذا العمل الذي يرض به التجار الايطاليون.

٣- وجود ثارات قديمة بين الامبراطورية البيزنطية والنورمان ، حول بعض المصالح المتبادلة

٤- رغبة البابوية في السيطرة على الكنيسة الشرقية بعد احتلالها.

٥- تبين للصليبيين عدم قدرتهم على جمع المال المتفق عليه مع التجار الايطاليين فهاجموا القسطنطينية .

توجهت الحملة الصليبية الرابعة الى مدينة القسطنطينية بدلاً من التوجه الاحتلال القدس فوصلتها في نيسان من سنة ١٢٠٤م/٦٠١هـ . واصبحت هذه الحملة ((كارثة على البابوية والحركة الصليبية إذ ارغم لبابا على أن يشهد أن دفة الحروب الصليبية جرى انتزاعها من قبضة يده وان الحرب الصليبية ... اصبحت مجرد حركة سياسية)) . وفي هذه الحملة تناسى الصليبيون أنهم هاجموا بلداً مسيحياً رغم الاختلاف المذهبي ، حيث قتلوا النساء والرجال ونهبوا كل ما وقع بأيديهم حتى أن الكنائس والأديرة لم تسلم منهم حتى ان احد شهود العيان تمنى لو ان القسطنطينية قد سقطت بيد المسلمين بدلا من سقوطها بيد الصليبيين . بعدما ذكر النتائج الايجابية التي حصلت عليها القدس بعد تحريرها بيد صلاح الدين الايوبي . وأود هنا ان اشير الى حملة صليبية سبقت الحملة الصليبية الخامسة وهي حملة الاطفال الصليبيين التي ابتدأها صبي فرنسي في الثانية عشر من عمره يدعى ستيفن حيث ادعى بأن السيد المسيح عليه السلام قد امره باصطحاب الاطفال لتحرير بيت المقدس . وان الرب سيعينهم وسينفتح البحر امامهم فغادرت هذه الحملة ميناء مرسيليا ولم يسمع شيء عن هذه الحملة بعد ذلك ويقال ان الحملة انتهت ببيع هؤلاء الاطفال عبيدا في شمال افريقيا .

ب – الحملة الصليبية الخامسة :

بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة وانحرافها عن هدفها الأصلي وهو التوجه الى مصر لم تيأس البابوية من ذلك بل أعدت حملة صليبية جديدة، أعد لها البابوات مثل انوست الثالث وهونريوس الثالث ، ومنذ نهاية سنة ١٢١٧-١٢١٨م بدأت جموع الصليبيين تتجمع لدى الملك حنا الذي كان يتخذ من مدينة عكا مقراً رمزياً لمملكة بيت المقدس فاتجه الملك حنا الى مصر قاصدا مدينة دمياط وقد راسل الملك حنا ، نجاشي الحبشة ، واتفق معه

على مهاجمة المسلمين في بلاد الحجاز وهدم الكعبة المشرفة توجهت الحملة الصليبية الى دمياط التي حاصرتها القوات الصليبية، وقد بذل الملك العادل وابنه الملك الكامل كل ما يمكن عمله لحماية مدينة دمياط من هجوم الصليبيين، وتحشيد الامكانات العسكرية والمعنوية والنفسية الا أن كثرة المهاجمين الصليبيين وكثرة الإمدادات التي كانت تصل من الغرب وطول فترة الحصار التي استمرت اكثر من تسعة أشهر ، فتمكن الصليبيين من احتلال دمياط، وقاموا بنفس ما قام به الصليبيون في الحملات السابقة من قتل كل من وجدوه في المدينة ونهبوا اسواقها وحرقوا ما لم يستطيعوا حمله منها .. كما حولوا جامع المدينة الى كنيسة ، وبثوا سراياهم في القرى المجاورة يقتلون ويأسرون. ويمكن أن نجمل الأسباب التي أدت إلى سقوط مدينة دمياط الى:

١_الاضطرابات الداخلية التي أثارها العرب القاطنين في الدلتا المصرية فقد قطعوا الطرق ونهدوا القوافل والأسواق قبل أن يتوجه الصليبيون الى مدينة دمياط، وكان خطرهم على المسلمين أشد من خطر الصليبيين. ٢_كثرة الصليبيين المهاجمين لمدينة دمياط وكثرة الامدادات البشرية لهم من الغرب. ٣_وفاة الملك العادل، وما أعقب وفاته من إنقسامات داخل البيت الايوبي فتشتت طاقات الاسرة في المنازعات مبدل من أن يكونوا يداً واحدة في مواجهة الاعداء. ٤_محاولة اغتيال الملك العادل أثناء التصدي للصليبيين في دمياط من قبل احد القادة العسكريين ، وهو عماد الدين أحمد بن على المسمى بابن المشطوب.ولم يكتف الصليبيون بما حققوه من انتصار على المسلمين في مصر واكتفوا بميناء دمياط كمركز تجاري لهم بل أعدوا العدة لإحتلال القاهرة عاصمة الدولة الايوبية وحاول الملك الكامل أن يراسلهم في عقد الصلح ، لقاء عدد من الامتيازات التي بذلها لهم، لكنهم رفضوا هذا العرض وقرروا المسير إلى القاهرة بعد ان وصلتهم اعداد غفيرة من الصليبيين من الغرب ومن سوء حظ الصليبيين أنهم نزلوا في منطقة يحيطها الماء ثلاث جهات ، وهذه الأرض تقيض بالماء أثناء فيضان نهر النيل بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً) وقد فرح المسلمون باختيار الصليبيين لهذا الموقع اذ وصلوه في الأول من آب ١٢٢١م/ ٦١٨هـ أي في وقت فيضان النيل وشدة الحر التي لا يتحملها الصليبيون .حشد الملك الكامل كل الامكانات المتاحة لديه لحصر الصليبيين وعدم السماح لهم بالعودة الى دمياط ثم أمر بقطع كل السدود، فغرقت اكثر الارض المحيطة بهم وأيقنوا بالهلاك فعرضوا الصلح مقابل الانسحاب من كل الأرض المصرية والعودة الى اوربا مقابل السماح لهم) بالخروج من المأزق الذي أوقعوا انفسهم فيه وقد قبل الملك الكامل هذا العرض خوفاً من قدوم حملة صليبية جديدة وحاربهم لأبادهم عن بكرة أبيهم واوقع معظمهم أسرى بين يديه ولكن كان أمر الله قدرا مقدوراً وتم عقد الصلح واخذ منهم الرهائن ومن بينهم الملك حنا بريين نفسه حتى تم توقيع الصلح وعادت الحملة الصليبية الخامسة خائبة مدحورة الى اوربا

.

ج – الحملة الصليبية السادسة: بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة في احتلال القاهرة ورغم ان – الذي وقع على الاتفاق كان ملك عكا حنا بريين والذي تعهد بعدم محاربة المسلمين بموجب هذه الاتفاقية حفاظا على أرواح الصليبيين) الذين قد غرر بهم البابا كما قال حنا بريين للملك الكامل الأيوبي وحتى يرجع هؤلاء المغرر بهم الى أوطانهم التي تركوها، الا انه بعد توقيع – المعاهدة سافر إلى ايطاليا مرة أخرى طالبا الدعم من البابوية لحرب المسلمين مرة أخرى، مما يكشف لنا دائما زيف الدعوات والمعاهدات التي يقدمها الغرب لنا دائما فمتى ما وجد الغربيون أنفسهم مهددين رضخوا للسلام ، ومتى كانت الكفة لهم رفضوا كل العقود والمواثيق وهذا هو ديدن الغرب دائماً ، فلينتبه ذوو الرأي والحكمة لما يراد بامتنان الإسلامية من شر. وقبل انطلاق هذه الحملة حدث خلاف كبير بين ابرز قياديها البابا جريجوري التاسع، والامبراطور الألماني فردريك، الثاني وقد اصدر البابا المذكور قرار طرد وحرمان للامبراطور فردريك الثاني وشجع على عدم الانخراط في حملته فما كان من الامبراطور الا ان انطلق صوب بلاد الشام وكانت تربطه بالملك الايوبي علاقات صداقة وجرت بين الاثنين مراسلات علمية كثيرة وكان الامبراطور يتقن اللغة العربية مع ست لغات يعرفها وكان هذا الامبرطور يتذوق الشعر العربي ويسمعه . وكان كلاهما ممن يشجع العلماء والادباء، كما جمعت ظروف عديدة الامبراطور والملك الكامل الأيوبي، من أن كلا منهم مهدد في بلاده فالامبراطور مهدد بسبب طرد البابا له والملك الكامل مهدد من قبل اخيه الملك المعظم وجرت بين الاثنين سفارات بهذا الخصوص كما ان كلا منهما كان يرى في السلم طريقاً للخلاص مما دعت اليه البابوية عن طريق الحملات ، وعدم التوصل الى حل لإنهاء ما يعرف بالحروب الصليبية التي لم تجلب الا الدمار لكلا الشعبين الأوربي والاسلامي وصل الامبراطور الألماني الى بلاد الشام فوجد الأمر قد تغير فقد توفي الملك المعظم ولم يعد هنالك ما يدعو الملك الكامل للاستجاد بالامبراطور فردريك الثاني، كما أن حلم الامبراطور باستلام القدس من غير حرب قد تبدد موكان يحلم أن يتوج في كنيسة القيامة في بيت المقدس، وارسل البابا رسالة الى الملك العادل يطلب منه فيها عدم تسليم مدينة القدس للامبراطور الألماني فردريك الثاني ، وكان البابا يتمنى أن تفشل حملة الامبراطور باي ،ثمن كما ارسل البابا حملة أحتل جزيرة صقلية ، وراح وكلاء البابا يذيعون بيانا بموت الامبراطور الألماني.فلم يكن امام الامبراطور بعد أن سدت بوجهه الابواب الا ان يلتمس المساعدة من الملك الكامل الأيوبي، وأرسل له هدايا ثمينة جداً وطلب تسليمه مدينة القدس، وأوضح له أنه ليس له طمع لافي القدس ولا في غيره ، وانما جاء الى بلاد الشام حفاظاً على الناموس ، وطلب منه ان يتفضل عليه وأن يكرمه بمدينة القدس حتى لا يعود مكسورا إلى أوربا التي لن تستقبله بالترحاب وبخاصة البابا ، لكن الكامل اجابه جواباً لطيفاً فيه من الدبلوماسية الشيء الكثير ورفض تسليمه مدينة القدس . ازداد موقف الامبراطور الألماني سوءا في بلاد الشام بعد أن هبت عاصفة بحرية قوية اغرقت معظم سفن التموين الراسية في البحر واصبح غذاء الصليبيين غذاءاً للسمك والحيتان والله غالب على

امره ولكن أكثر الناس لا يعلمون فضلا عن تدهور الأوضاع في اوربا في غير صالحه فلجأ إلى استعطاف الملك الكامل لعله يجد عنده شيئا يبيض وجهه به امام الرأي العام في اوربا ويكسب رضا البابا الساخط عليه فكتب اليه : (أنا مملوكك وعتيقك ، وليس لي عما تأمره ،خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر وقد علم البابا والملك باهتمامي وطلوعي فان رجعت خائبا انكسرت حرمتي بينهم... وها القدس فهي اهل اعتقادهم وضجرهم ... فان | رأى السلطان ان ينعم علي بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه)) وقد استجاب الملك الكامل لنداءالامبراطور فردريك وأراد أن ينهي سلسلة الحروب بين الشرق والغرب ، وأن يجعل هذا الامبراطور الى جانب المسلمين في اوربا مصدر هذا القلق الصليبيي ، فتم عقد صلح بين الطرفين آمده عشر سنوات ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، نص على تسلم الصليبيين مدينة القدس من اقامة أية تحصينات فيها ويبقي مسجد عمر بن الخطاب على وضعه ، كما ويتسلم الصليبيون الناصرة ويسمح للمسلمين بالدخول الى مدينة بيت لحم، وتعاد بعض المدن الساحلية الى الصليبيين ، وقد شكل هذا الاتفاق خيبة امل لكل من المسلمين والصليبيين على حد سواء) فكل منهم اتهم صاحبه بالخيانة.وفي يوم السبت ١٧/٥/١٢٢٩م/٦٢٦هـ دخل الامبراطور القدس وتوج ملكا وزار المسجد الاقصى، وتصرف بتصرفات أثارت دهشة المسلمين قبل غيرهم، قد اراد احد القس الدخول الى المسجد الأقصى فزجره الامبراطور وقال له : ((إنما نحن مماليك السلطان الكامل وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس فلا يتعدى أحد منكم طوره ، ، وعندما علم ان مؤذن بيت المقدس لم يرفع أذان الصبح إحتراماً لمشاعر الإمبراطور ولم يقرأ القرآن الكريم في تلك الليلة في المسجد الاقصى انزعج من ذلك وسأل عن السبب ، فقيل له : إحتراماً لمشاعرك فقال للقاضي: ((لقد أخطأت بمسلكك هذا ، إن غرضنا الاساسي من البقاء في بيت المقدس هو سماع المؤذن وذكره الله، فهل يجوز أن تغيروا شعائركم ... لمجرد إرضائي؟ هل تظن انك لو حضرت الى بلدي سأمنع الكنائس من قرع أجراسها إرضاء لك؟ لا والله)) ثم أكرم المؤذن بمبلغ من المال تشجيعاً له لأداء عمله، ثم زار بقية المواقع الاسلامية وأبدى من الاحترام الشيء الكثير، ثم عاد الامبراطور الى عكا ومن ثم الى ايطاليا ، التي لم يكن أمام البابا إلا الإعتراف بما حدث ورفع قرار الحرمان عنه.وبعد انتهاء امد الصلح في سنة ١٢٣٩م/٦٣٧هـ ، استعدت البابوية لحملة جديدة واخذ الصليبيون في القدس باجراء التحصينات وبناء الابراج فما كان من المسلمين الا ان أعادوا السيطرة على بيت المقدس وطرد الصليبيين منه وقد جمع الصليبيون جيوشهم واستعدوا لمهاجلة مصر وسيطروا على قافلة اسلامية ، لكنهم منوا بهزيمة كبيرة افقدتهم ، والسبب الذي جعلهم يهاجمون ،مصر، أنهم أرادوا الضغط على المسلمين باحتلال مصر حتى يعود المسلمون ويسلموهم بيت المقدس مرة اخرى

هـ – الحملة الصليبية السابعة(حملة لويس التاسع على مصر) :

بعد طرد الصليبيين من بيت المقدس، ارسل بطريرك القدس رسالة الى ملوك اوربا يدعوهم فيها الى اعداد حملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس من المسلمين وقد سارع الإجابة الدعوة لويس التاسع ملك فرنسا الذي بيت أصابته حمى الملاريا الشديدة ونذر ان شفاه الله من المرض أن يقود حملة صليبية الى المشرق لإسترداد بيت المقدس من المسلمين موقد سانده البابا أنوست الرابع ودعا ملوك اوربا الى مساندة لويس في حملته هذه، ووعدهم بغفران الذنوب ومنحهم صكوك الغفران وقد استغرق اعداد هذه الحملة ثلاث سنوات انطلق بعدها سنة ١٢٤٨م/٦٤٦هـ ، وقد في سبقته انباء الحملة الى مصر فاستعد الملك الصالح أيوب لها وقد اتصل سرا بالملك الصالح ايوب ، الملك الألماني فردريك الثاني صديق الملك الكامل الأيوبي الذي مر ذكره من قبل يعرف الملك الصالح أيوب بنية الصليبيين وضرورة الاستعداد لها لأنه لا يستطيع ان يعارض حملة لويس التاسع علانية فارسل له وفدا بزي تجار مسلمين يخبره بخطط الصليبيين بمهاجمة مصر. استعد الملك الصالح أيوب للحملة واتخذ كل الاحتياطات الممكنة لديه، على الرغم من مرضه الشديد ونزل الصليبيون بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا قبالة دمياط حيث قابله المسلمون ، وأشتبكوا معه بمعركة حامية أعاقت تقدم الجيش الصليبي ثم انسحبت القطعات إلى دمياط ثم غادرت القطعات المصرية دمياط ، حيث غادرها اهلها وحملوا ما خف وزنه وغلا ثمنه خوفاً من الصليبيين فسيطر الصليبيون على مدينة دمياط ، وحولوا مسجدها الجامع الى كنيسة ، وهنا كتب لويس التاسع الملك الصالح ايوب رسالة يطلب منه الاستسلام والخضوع له جاء فيها : ((نحن نسوقهم سوق البقر – أي المسلمين في الاندلس – ونقتل منهم الرجال ونرمل منهم النساء ونستأسر البنات والصبيان.. فلو حلفت لي بكل الايمان ...ما ردني عن الوصول اليك ... ((وقد وصل كتاب الملك لويس التاسع الى الملك الصالح في القاهرة وهو يعاني المرض شديد وآلام الموت ، فكتب اليه: ((أما بعد فقد وصل كتابك وفهمنا لفظك وخطابك وها هنا قد أتيتك بالخيل والرجال... والقيود والأغلال. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون...)) انتقل الملك الصالح الى المنصورة حيث تقابل الجيشان الاسلامي والصليبي واشتبكا فيما بينهم ؛ وقد توفي الملك الصالح أثناء المعركة، وكان قائد الجيش الاسلامي بيبرس البندقداري ، وقد أوقع الجيش الصليبي نفسة في فخ كما حدث في المعركة السابقة حيث حصر نفسه بين المياه ، ودارت الدائرة عليه واراد الرجوع الى دمياط فقطع الجيش الاسلامي الطريق عليه ووقع الملك لويس التاسع ملك فرنسا أسيراً. القوات الاسلامية ، حيث أكرم وهو لا يستحق الاكرام وهذه عادة المسلمين في معاملة الاسرى . وطالق السلطان تورانشاه سراحه بعد ان تعهد للمسلمين بعدم حربهم وبعهد ان دفع الفدية عن نفسه وجيشه المأسور، عاد الى فرنسا بعد ان ذهب الى تونس ، حيث توفي والألم يعتصره من ذل اء عدد الحرب الخامرة مع السنامين والتي تحمس الهزيمة التي لها ونذر نفسه لخدمتها ، ولم يفعل كسابقه السلك فردريك الثاني امبراطور المانيا الذي ادرك بحدسه العميق عدم قدرة هذه الحملات على مجابهة المسلمين في عقر دارهم ، صحيح انها حققت الشيء الكثير في بداية الامر ، لكنها في

النهاية ستفشل وهذا ما حدث بعد ذلك بوقت قصير . اما بقية المواقع الصليبية على الساحل فقد تم تحريرها في عهد دولة المماليك الأولى ، وبذلك تم القضاء على آخر أمل للبابوية في الوصول الى الشرق بحجة تحرير بيت المقدس من يد المسلمين ، وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية في كنيسة واحدة ، وانكفأ ملوك اوربا في معالجة مشاكل بلادهم بدلاً من زجهم في حروب خاسرة وقد خسرت البابوية كذلك مكانتها التي كانت قد حصلت عليها في بداية الحروب الصليبية.

انعكاسات الحروب الصليبية وتأثيراتها على الوضعين العربي والاوربي :

استمرت الحروب الصليبية لمدة قرنين من الزمان وكانت لي تأثيراتها الايجابية والسلبية على الوضعين العربي والأوربي أما تأثيرها على الوضع الأوربي فيمكن إجماله بما يلي :

1- النتائج الحضارية

أ –عاشت اوربا في دياجير الظلام لسنين طويلة ولم يعرف الاوربي د بلاده الشيء الكثير فكيف يعرف بلاد الشرق الاسلامي ،وهو لا يعرف عن محيطه او ما يدور حوله،وكانوا اميين لا يعرفون القراءة والكتاب وكانوا في أوربا مجرد عمال زراعيين كالبهائم ولا يعرفون الا الشجاعه،وقد ذكرهم الكاتب الذي عاصرهم وخبرهم عن قرب وهو اسامه بن منذر بقوله)) :لايرى فيهم سوى بهائم،إمتازوا بصفة الشجاعة والقتال لا غيرهما في البهائم فضيلة القوة والحمل ((،أما معلوماتهم عن الشرق فكانت كلها غير صحيحة وكل ما يعرفونه عن الشرق هو ما أشاعه رجال الكنيسة من وصف المسلمين بالجهل والكفر فجاءت الحروب الصليبية لتكشف لسكان اوربا من الصليبيين الخطأ الذي أوقعتهم به الكنيسة ورجال الدين الأوربيين ودعاة الحروب الصليبية ،فكانت المشاهدة والخبرة والمعاينة ثم الاقتباس هو السبيل الذي نقل منه الأوربيين حضارة الشرق الى بلادهم حيث وجدوا المسلمين قوم متحضرون ولديهم مباديء والتزامات اخلاقية وانهم افضل من الصليبيين في معاملة اعدائهم،حيث لم يسجل الصليبيون حالة خرق واحدة قام بها المسلمون ضدهم بعد الانتصارات التي حققها المسلمون على الصليبيين مقارنة بما قام به الصليبيون بعد احتلالهم للمدن الاسلامية من قتل وسفك دماء السكان الذين اعطوهم الامان واصبحوا في ذمتهم .كما أن الصليبيين بطول بقائهم في الشرق احتلوا مدناًكبيرة كانت الغالبية فيها للمسلمين فقام الصليبيون بأخذ نصف المساجد وجعلوها كنائس ،أي أصبحوا مجاورين للمسلمين ،ومن الطبيعي أن يتأثر الشخص بجاره مهما كان بينهما من عداء،فاقتبسوا الكثير من عاداتهم وتقاليدهم في الطعام والشراب واللباس وطريقة الحديث وتنظيم المدن ونظافتها وغير ذلك كثير مما لا يسع المجال لذكره في هذه العجالة .كما في قسم من الصليبيين في بلاد الشام بعد ذهاب الحملات الصليبية يسكنوا في بلاد المسلمين واعتبرهم المسلمين من بين مواطنيهم ونسي اكثير منهم أوطانهم التي جازا منها .وقد ذكر المؤرخ الفرنسي فوشيه وشارتر في

حوادث سنة 1120م514/هـ ما نصه)) :فمن كان منا ايطالياًأو فرنسياًبالامس قد اصبح اليوم في وطنه الجديد جليلياًفلسطينياً ...فقد نسي كل منا وطنه الأول ....وغدا الواحد منا يملك بيتاًوحشاً ...وان نستعمل من أن لأخر اللغات المحلية المختلفة ...وفي كل يوم يغدو علينا الاقرباء والاصدقاء واصبح بفضل الله الفقير منا غنياً ...( )

ب نقل الصليبيون الى اوربا انواعاًمن النباتات الجديدة والصناعات الملحقة بها ،مثل زراعة البنجر وقصب السكر ،وصناعة السكر ،وكذلك نقلوا زراعة البطيخ والقطن وتصنيعه وتربية دود القز وصناعة الحرير وصناعة الدمقس والمرايا الزجاجية وانتقلت هذه المواد باسمائها العربية الى اوربا)مثل السكر القطن،الموزلين،نسبة الى مدينة الموصل في شمال العراق وحكيم بمعنى طبيب وغيرها كثير في علوم الأرض والفلك والرياضيات والجبر والهندسة مما يطول شرحه في هذا المقال القصير

ج –في مجال الفن الحربي تأثر الصليبيون بالفن العسكري الاسلامي بدءا ببناء القلاع والحصون واستعمال المنجنيقات الكبيرة،واستعمال القوس والقذاف)المقلاع وهي قطعة من القماش المنسوج من الصوف،يكون عريضاًفي الوسط وله طرفان رفيعان ،احدهما مربوط بيد الرامي،وتوضع به الحجارة المهشمة الحادة الجوانب،ثم يدور الرامي يده عدة دورات ثم يطلق احدى النهايتين فتنطلق الحجر باتجاه الاعداء لتضرب به المشاة او الفرسان ،ولقوة هذه الاداة فقد تؤدي الى قتل العدو او فقأ عينه أو تعطيله عن الاشتراك في المعركة،ولدينا في قصة سيدنا)داؤود (خير مثال . (كما نقلوا طريقة استخدام الحمام الزاجل في البريد ونقل المعلومات ،ونقلوا استخدام الشارات ولبس الدروع واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع حتى لا يتأذى الجندي أثناء لبس الدروعفتؤثر على جسده .كما تعلموا من العرب طريقة صب الزيت على المهاجمين من على الاسوار واستخدام البارود وطريقة بناء القلاع الحربية الدائرية بدل القلاع ذات الفناء في الوسط .كما تأثر الأوربيون بفن البناء العربي في الاسوار وبنوا خلالها البروج ،وبنوا الابواب ذات الزوايا الحادة والقائمة والتي لا تتيح رؤيا واضحة من خلالها وتأثر الصليبيون بفن تطعيم المرمر بما يعرف بتكفيت القرميد)وهي وضع قطع ملونة داخل القرميد وفق طريقة هندسية بارعة ،فيراها المشاهد وكأنها قطعة واحدة بينما هي في الحقيقة تتكون من قطع عديدة .كما نقلوا طريقة الاناره عند العرب واستخدام الشموع في اثارة القصور والكنائس ونقلوا طريقة اللباس ايضاً) استخدام الاردية ذات الأكمام الواسعة ذات الألوان الزاهية واستخدام السجاد والطنافس هذا فضلاًعن الأطعمة العربية وطريقة صناعتها واستخدام التوابل والاقاويه في طبخها

د .تأثر الصليبيون بآداب الشرق كالقصص والادب وحفظ بعضهم الشعر العربي وكان يتذوقه،فعلى سبيل المثال كان ريموند حاكم مدينة صيدا ،)) يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ ((و))كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه ((وكذلك حاكم حصن تبنين المدعو همفري يعرفاللغة العربية وعمل ترجمانا لريتشارد قلب الاسد

في المفاوضات التي كانت بينه وبين الملك العادل اخي صلاح الدين الايوبي .كما تأثر بعض الصليبيين بالشعر العربي مثل كودفروا و تانكرد اللذين كتبا قصص للشعراء الجوالين كما انتقلت قصص الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة الى الادب الأوربي،كما ظهرت بعض القصص ذات الأصول الشامية في اوربا مما يدل على تأثر الادب الأوربي بأدب بلاد الشام ،هذا فضلاًعن دخول القصة الشعرية التي دخلت ايضاًفي الأدب الأوربي فقد نظم الشاعر امبوز قصائد شعرية في تاريخ الحروب الصليبية)الحملة الثالثة (وفي التغني بمدينة أنطاكية

.هـ –تأثر الأوربيون بالجغرافيا والتاريخ نتيجة لما حدث في الحروب الصليبية ففتح المناطق وتسجيل الحملات على المدن والمسافات بينها هو فرع من فروع الجغرافيا)وضع اطلس عرف باطلسبيتروفيكوني الذي ضم تسع خرائط عن حوض البحر المتوسط وجزره ،وقد ألف سنة 1318م718/هكما ان تسجيل بطولات الصليبيين يعني التحدث عن امور تاريخية وتم وضع كتب عديدة في هذا المجال التاريخي الخصب ،مثل كتاب حركة الفرنج لمؤلف مجهولو تاريخ مملكة بيت المقدس لفوشيهدوشارتروتاريخ ماوراء البحار لمؤلفه وليم الصوريو تاريخ الامراء المسلمين منذ ظهور النبي،وقد ترجم هذا الكتاب لأهميته الى اللغة الفرنسيةو كتاب بحث في حالة العرب ل وليم الطرابلسي

٢–النتائج السياسية والاجتماعية:

أ–شكل النظام الاقطاعي النظام الاساس للحكم في اوربا مع ما يلحق

هذا النظام من علاقات بين الامارات والمدن،وكما من بنا عند التحدث عن الأوضاع السياسية في اوربا قبيل الحملات الصليبية نجد ان اغلب دول اوربا قد عانت من صراع مرير بينها وعجزت البابوية عن حسم تلك النزاعات فيما بين الدول الأوربية المسيحية في الغرب الأوربي .كما ولد النظام الاقطاعي مشاكل كثيرة لمن لايملك او من يملك اقطاعات صغيرة فلجأ هؤلاء الضعاف الى الممالك القوية أو إلى الكنائس ورجال الدين الذين استغلوهم افضل استغلال لصالحهم،فسجلوا أراضيهم الصغيرة او ملكياتهم باسم الكنيسة او كبار الامراء الاقطاعيين واخذوا يعملون تحت حمايتهم،كما ارتبط الفلاح وفق هذا النظام بالأرض))نظام القنانة ((واصبح عبداًللارض التي ولد وعاش فيها .

ب _وعندما جاءت الحروب الصليبية كانت هذه الحرب خلاصاًلهم من الاوضاع التي كانوا يعيشون فيها ،والحرب كما نعلم محرقة للرجال من كلا الطرفين فغادر عدد كبير من الفلاحين وصغار ملاك الارض اوربا والذين يشكلون أساس النظام الاقطاعي فتركت الاراضي بدون رعاية كما كانت في السابق،كما عملت الحروب الصليبية على ظهور الملكية القوية في الغرب الأوربي في أواخر العصور الوسطى فعملت الكنيسة بشكل غير مقصود الى تقوية ملوك اوربابابعاد هؤلاء الأمراء الاقطاعيين الذين يعدون منافسين اشداء لاولئك الملوك.

ج–اما المشاكل الاجتماعية التي تركتها الحروب الصليبية فهي بالدرجة الاساس ترك آلاف النساء والاطفال

بدون معيل او مساعد وتحملت المرأة في الغرب مسؤولية اسرة هي غير قادرة على اعالتها ولا مهيأة لها،فحملت المرأة في اوربا ما لا تطيق وليس عندها أي ادخار لتعيل به عائلتها ،هذا فضلاًعن المشاكل الاجتماعية والانحرافاتالسلوكية التي حدثت في اوربا))مثل قيام المحاربين المشتركين بالحروب الصليبية بالباس نسائهم حزام العفة ((،فكان أن نشأ جيل مشرد تمرد على كل شيء في ذلك الوقت وظل الاطفال والنساء ولو في فترة لاحقة مادة دسمة لأصحاب المعامل والمصانع ابان الثورة الصناعية،حيث قضى على الكثير منهم في تلك الفترة .

-3النتائج الاقتصادية

أ -كثرة الطلب على النقود لتمويل المحاربين الذاهبين الى الحروب الصليبية وقد استغل اليهود هذا الأمر احسن استغلال حيث اقرضوا من يريد المال بفوائد عالية وانتزعوا منهم أملاكهم وعقاراتهم

ب-تطور النظام المالي في اوربا وذلك بفرض ضريبة على من لم يشترك في الحروب الصليبية عرفت بـ))عشر صلاح الدين ((حيث فرضت في انكلترا وفرنسا ،وقد ساعدت الكنيسة ملوك اوربا في دعمهم لجمع هذه الضريبة .

ج انتش النشاط التجاري بين الشرق والغرب ابان الحروب الصليبية وبعدها ،و انتعشت لذلك مدن ايطاليا مثل جنوة والبندقية وبيز وبرشلونة،وتحول الاقتصاد من اقتصاد اقطاعي زراعي إلى اقتصاد تجاري ونشأت المدن التجارية الكبرى في أواخر القرون الوسطى

ولعبت دوراًمهماًفي رسم السياسة المستقبلية لأوربا فيما بعد.د -ادى النشاط التجاري الى تنشيط المصارف واتساع نطاق اعمالها وتحسين طرق التجارة وانشاء طرق جديدة فازدهرت الاسواق التجارية ثم حدثت حملات استكشاف فيما بعد ادت الأساطيل التجارية دوراًمهماًفيها .

نتائج الحروب الصليبية على البلاد الإسلامية :

كانت للحروب الصليبية نتائج سلبية وايجابية على البلاد الاسلامية

منها:

ا -بعد الغزو الصليبي للبلاد الاسلامية رفع شعار الجهاد في سبيل الله وهذه الدعوة التي أهملت لسنين طويلة كانت السبب وراء نجاح الغزو الصليبي للبلاد الإسلامية وقد ناقش هذا الموضوع احد المؤرخين الفرنسيين وهو شامبدور اذ ناقش اسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى وفشل الحملة الصليبية الثانية كان سبب فشلها هو دعوة الجهاد التي رفعها المسلمون في مختلف أرجاء البلاد الإسلامية،حيث اتحد المسلمون تحت راية نور الدين محمود في حين كانوا متفرقين ابان الحملة الصليبية الأولى

ب–لقد اثار احتلال القدس اشجان المسلمين لما تمثله من مكانة مقدسة لدى المسلمين فهي مسرى ومعراج الرسول الكريم محمد الى السماء،وقد عبروا عن هذا الاستياء بخطب وقصائد شعرية و باحتجاجات شهدتها مختلف المدن الاسلامية مثل حلب ودمشقوبغداد والقاهرة مما دعاهم فيما بعد الى التوحد وتحرير المدينة في عهد صلاح الدين الأيوبي

ج–ظهرت بعد احتلال القدس احاديث نبوية وتفسيرات للقرآن الكريم لم تكن موجودة من قبل ،ودعت هذه التفسيرات الى تحرير المسجد الاقصى من يد الصليبيين،وظلت القدس تشغل بال القادة وعامة الناس حتى تحررت

د برهنت الحروب الصليبية على نبوغ عدد من القادة المسلمين في ميدان المعارك ووضع الخطط الحربية فعلى الرغم من التفوق العددي للصليبيين الا ان النصر كان في اغلب المعارك للمسلمين وذلك لكفاءة الخطط التي وضعها هؤلاء القادة ومدى خبرتهم الحربية وتحمسهم لتحقيق النصر بأقل الخسائر بعكس الصليبيين الذين اعتقدوا بدقة خططهم وكثرة عددهم،فوقعوا في اخطاء قاتلة وقع فيها عدد كبير من ملوكهم وامرائهم اسرى بيد المسلمين فضلا عن التضليل الذي وقع به قادة الحملات الصليبية والسبب هو الخطأ في المعلومات التي قدمتها لهم الكنيسة والبابوية ،فوضعوا خططاًتتلائم والمعلومات التي اعطيت لهم ،فكانت النتيجة عكسية عليهم ولنا في معركة دمياط والمنصورة خير دليل

هـ –بينت الحروب الصليبية حسن معاملة المسلمين للاسرى الصليبيين فقد عاملوهم كما امرتهم به الشريعة الاسلامية وعلى وفق ماجاء بهالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في مثل هذه الحالات وعلى العكس من ذلك فقد لطخ الصليبيون شرفهم العسكري عندما قتلوا الاسرى ومن استسلم عليهم من المسلمين من النساء والاطفال والشيوخ)حصار عكا ،احتلال القدس (مما حفز هؤلاء فيما بعد إلى تفضيل الموت على الاستسلام ،دافعوا عن مدنهم وقراهم وحصونهم دفاعاًمستميتاًلأنهم مقتولون لامحالة ان هم استسلموا للصليبيين فالافضل لهم ان يقاتلوا حتى الموت وبهذه الاعمال خسر الصليبيون الكثير من رجالهم جراء الاستبسال في الدفاع عن المسلمين،لأن جزاء من يستسلم من المسلمين للصليبيين هو الموت

و –حققت الحروب الصليبية للمسلمين الوحدة السياسية فتوحدت بلاد الجزيرة وبلاد الشام ثم تبعتها مصر فضلا عن التعاون بين بلاد اليمن والحجاز وديار بكر ،وحققت هذه الوحدة السياسية ،تحرير الاراضي الاسلامية من يد الصليبيين

ز–اضعفت الحروب الصليبية الدولة البيزنطية نتيجة للتجاوزات التي تعرضت لها تلك الدولة عبر اكثر من حملة صليبية فضلاًعن احتلالها في الحملة الصليبية الرابعة مما ولد لدى سكانها وجيشها نوعاًمن الاحباط انعكس على مستقبلها حيث خربت هذه الحملات تحصيناتها الدفاعية وزرعت الشك في نفوس سكانها من

الاستعانة بالغرب مرة اخرى فسقطت بيد الاتراك العثمانيين في عام 857/1453

ح–اضعفت الحروب الصليبية الحياة الاقتصادية في البلاد الإسلامية كما اضعفت الانتاج الزراعي وذلك لكثرة من استشهد من المسلمين فيها ،فضلاًعن اشتراك عدد كبير منهم في الحملات المتلاحقة ،مما اضعف الجبهة الاسلامية فيما بعد ،وجعلها تتراجع امام الهجوم المغولي القادم من الشرق

عصر قوة الخلافة العباسية عصر لعل سائل يسأل لماذا تناولت هذا الموضوع من هذه النقطة، أي من خلافة الخليفة الناصر لدين الله، واطلقت عليه. قوة الخلافة العباسية، ولم تلحقه بالفترات السابقة فأقول وبالله التوفيق؟. يعد هذا العصر بحق عصر قوة الخلافة العباسية ، اذ تمتع الخلفاء العباسيين فيه بكامل نفوذهم، وسيادتهم على معظم ارض العراق ولعبوا دوراً مهما في الاحداث الداخلية والخارجية، وأصدروا المراسيم المتعلقة بتولية ولاة العهد، وتولية أمراء الأطراف التابعين للخليفة بشكل مباشر، أو غير مباشر، كما سكوا النقود بأسمائهم الخاصة مع القابهم، وألقيت الخطب باسمهم فقط، وخلت بغداد من الجند الاجنبي، ويعد الخليفة الناصر لدين الله من أوائل هؤلاء الخلفاء الذي جنى ثمار من سبقه من الخلفاء الذين تصدوا بشكل حازم للسيطرة السلجوقية، ودفعوا حياتهم ثمنا لهذا التحدي .

١- الخليفة العباسي الناصر لدين الله وزوال النفوذ السلجوقي.

٢- حركة الفتوة

٣- الخليفة الظاهر بامر الله

٤- الخليفة المستنصر بالله

٥- الخليفة المستعصم بالله .

١- الخليفة الناصر لدين الله ٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٧٩-١٢٢٥م

هو أبو العباس احمد بن الحسن المستضيء بالله ولد يوم الثلاثاء : العاشر من رجب من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وامه ام ولد تركية اسمها زمرد ،خاتون ادركت خلافته وعاشت في ايامه اربعا وعشرين سنة، وكانت راغبة في الخير والصدقات، ولها من الصدقات والوقوف ببغداد وغيرها الشيء الكثير، بويع بالخلافة يوم الاحد غرة ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة وبايعة الحجاج من اهل خراسان ، الذين كانوا في طريقهم الى اداء فريضة الحج من تلك السنة . ولم يل الخلافة احد اطول من مدة خلافته، فانه اقام فيها سبعة واربعين سنة، ولم تزل مدة حياته في عز وجلالة ، وقمع الأعداء ، واستظهار على الأعداء، ولم يجد ضيما، ولا خرج عليه خارجي الا قمعه ولا مخالف إلا دفعه، وكل من أضمر له سوءا رماه الله بالخذلان وكان شديد الاهتمام بمصالح الناس، ولا يخفى عليه شيء من احوال رعيته كبارهم وصغارهم، وله اصحاب اخبار في اقطار البلاد، يوصلون اليه احوال الملوك الظاهرة والباطنة وكانت له حيل ظاهرة ومكايد غامضة وخدع لا يفطن لها احد، يوقع الصداقة بين ملوك متعادين وهم لايشعرون ويوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لا يفطنون. ولما دخل رسول صاحب مازندران بغداد كانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل، واختلى هذا الرجل بامراة دخلت اليه من باب السر ليلا، فجاءته الورقة :صباحا : كان عليكم دواج فيه صورة الفيلة، فتحير هذا الرجل وخرج من بغداد، وفي قرارة نفسه ان الخليفة يعلم الغيب وفق مفهومهم وجاءه رسول خوارزمشاه فقيل له ارجع فقد عرفنا ما جئت

له فرجع وهو يظن ان الخليفة العباسي يعلم الأسرار، وهو لا يعرف ان الأخبار تصله عن طريق المخبرين . وكان الناصر لدين الله اذا اطعم أشبع واذا ضرب أوجع وله مواطن يعطي فيها عطاء من لايخاف الفقر . جاءه رجل من الهند يحمل ببغاء تقرأ (قل هو الله احد) فاستقبل في القصر ،وفي الليل ماتت الببغاء، فجلس الرجل يبكي لسوء حظه، حيث لم يشاهد الخليفة الببغاء تقرأ القرآن فقال له الفراش اين الببغاء: قال الرجل لقد ماتت، قال الفراش كم كنت تطمع أن يعطيك الخليفة ؟ قال :الرجل خمسمائة دينار، وكان الخليفة قد اعد له خمسمائة دينار، وهذا من عجيب ما اتفق للناصر لدين الله وكان الملوك والأكابر إذا جرى ذكر الخليفة الناصر خفضوا أصواتهم اجلالا له واحترما لمكانته وخوفا منه. كما كان يجمع المعلومات عمن يريد قصده ويفاجئه بها، قال عنه ابن النجار دانت السلاطين الناصر، ودخل في طاعته من كان من المخالفين، وذلت له العتاة والطغاة، وانقهرت بسيفه الجبابرة واندحض اعداؤه، وكثر انصاره، وفتح البلاد العديدة، وملك من الممالك ما لم يملكه احد ممن تقدمه من الملوك، وخطب لـه ببلاد الأندلس والصين، وكان اشد بني العباس، تتصدع لهيبته الجبال وكان حسن الخلق لطيف الخلق، كامل الظرف فصيح اللسان بليغ البيان لسه التوقيعات المسددة، والكلمات المؤيدة وكانت أيامه غرة في وجه الدهر، ودرة في تاج الفخر)). وكان نقش خاتمه (رجائي من الله عفوة) ، وصادف توليه الخلافة بركة للناس بشكل عام، إذ أن الناس قبل توليه الخلافة قد أصابهم الجدب وغلو الأسعار وقلة المعاش وكثرة الأمراض والوباء فلما بويع بالخلافة زال ذلك ببركة بيعته حتى درت الأمطار وتراخت الأسعار، وهنا بعضاً ببركته، فكان كما قال الشاعر أبو جعفر محمد بن العلوي : فجدت وجاد الغيث وانقشع المحل لها حاسب إلا إذا حسب الرمل وكم من نعماء ليس بمدرك فجمع الله شمل الإسلام والمسلمين ببره وجوده، ثم أنه عمر المساجد وجدد المشاهد، وبنى الأربطة والمدارس ، وأثر الآثار الجميلة، واشتغل في رواية الحديث في بداية حكمه، واستناب نوايا له في الإجازة عنه و التسميع، واجرى عليهم الجرايات، وكتب للملوك والعلماء إجازات ثم انه جمع كتابا في الاحاديث النبوية الشريفة سماه (روح العارفين) جمع فيه سبعين حديثا، وقد وصل هذا الكتاب إلى حلب حيث سمع بها، وقد أجاز سماع هذا الكتاب لعدد من الرواة . وسعى وقد جدّ هذا الخليفة في التخلص من سيطرة السلاجقة لتوسيع سيادة الخليفة على مناطق لم تكن خاضعة له، بل كانت خاضعة الأمراء الأطراف مثل تكريت و همدان والاحواز وداقوقا غيرها، كما أنه حارب السلاجقة وقتل طغرل السلجوقي وحمل رأسه إلى مدينة بغداد، كما عمر دار المضيف للصادر والوارد من الحاج وغيرهم للفطور في شهر رمضان، ووقف الكتب المفيدة الفقهية وغيرها في خزائن الكتب وجعلها لطلبة العلم . وعندما تسمى السلطان صلاح الدين بلقب الناصر بعث الناصر إليه مبعوثا يعاتبه وقال له : كيف تتلقب بلقبي؟ وأنا الناصر . وهذا من قبيل المعاتبة لا الانكار ، لأن الخليفة الناصر لدين الله كان يعرف مدى احترام صلاح الدين الأيوبي له. ولما تولى الخليفة الناصر لدين الله بعث التقليد بولاية البلدان لكل من أيد الخليفة العباسي ومنهم صلاح الدين الأيوبي، وكتب إليه صلاح الدين

كتابا جاء فيه : (والخادم وللہ الحمد – يعدد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى ولا آخرية طغرل بيك لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها – يقصد الفاطميين وأساغ الغصة التي ادخر الله للاساغة في سيفه ماءها، فرجل الأسماء الكاذبة على المنابر ، واعز بتأييد إبراهيمي، فكسر الاصنام الباطنة بسيفة الطاهر) وعندما فتحت بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، نقش الخليفة الناصر لدين الله لوحا بيده وانفذه ليعلق على باب بيت المقدس كتب فيه: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده .....) وأنشأ الرباط الذي بمشرعة الكرخ والتربة المجاورة له. وقد أصيب في بصره في آخر عمره وقيل فقده كله، ولم يشعر بذلك احد حتى الوزير، فقد كانت له جارية علمها الخط، وكانت تخرج التوقيعات بخطه، ولا يعرف احد انها ليست بتوقيعات الخليفة الناصر لدين الله ، وعندما توفي السلطان الناصر لدين الله صلاح الدين الأيوبي، في سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م بعث بلامة حربه وسيفه وعدة حربه وفرسه وماله وهو دينار واحد وستة وثلاثون درهما حيث لم يخلف من المال سواها إلى الخليفة الناصر لدين الله، وهذا من سبيل الوفاء للخليفة ومكانته لدى صلاح الدين الأيوبي، باعتبار أن الخليفة العباسي هو زعيم المسلمين الديني والسياسي في ذلك الوقت، ولهذا حتى ترك له كل ما يملك، وان لم أخطيء فقد عد صلاح الدين الخليفة الناصر لدين الله انه هو وارثه وهو ابوه وهو احق بارثه من اولاده وبناته وأقاربه، وهذا هو منتهى الشهامة عند صلاح الدين الأيوبي، فقلد الخليفة أبناء صلاح الدين الولايات التي طلبوها منه، فولى مصر لإبنه عماد الدين عثمان الملك العزيز) ودمشق لإبنه الافضل (نورالدين) علي وحلب لإبنه الملك الظاهر غياث الدين) ، وفي عهده قضي على آخر نفوذ للسلاجقة حيث مات السلطان طغرلبيك شاه بن ارسلان بن طغربيك بن محمد بن ملك شاه وهو آخر ملوك السلجوقية إذ توفي في رمضان من سنة ستمائة واثنان وعشرون للهجرة)

حركة الفتوة :

الفتوة في اللغة تعني الكرم والفتى هو الشخص الكريم ، وكما مر بنا عند الحديث عن العيارين والشطار في العصر البويهي، وكيف كان يطلق عليهم الفتيان، وما لعبوا من دور بارز في مقاومة الوجود البويهي في العراق، فقد ظلت هذه الحركة تأخذ طابعا مختلفا ، فهذا يتهمهم بالصفات الجيدة، وهذا يتهمهم بالصفات القبيحة وهكذا ففي سنة ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م زاد امر العيارين بالجانب الغربي من بغداد، فأمر الخليفة كمال الدولة بتهذيب البلد، فأخذ جماعة من اعيانهم، وطلب الباقين وفي سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ازداد خطر العيارين بالجانب الغربي من بغداد فعبر اليهم نائب الشحنة في خمسين غلاما تركيا فقاتلهم، فانهزم منهم، ثم عبر اليهم في اليوم التالي بمائتي غلام، فلم يظفر بهم، وقاموا بنهب محلة قطفتا ، وظهر العيارين ببغداد سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م، وقتلوا من

قدروا عليه، ولما دخل العيارون دار الرقيق تبعهم الشحنة ودار بين أهل الحي والشحنة قتال وأحرقت عدد من الدور وتعاون مع العيارين بعض المسؤولين من امثال ابن الوزير و ابن قاروت اخو زوجة السلطان السلجوقي، فتأذى الناس بسببهم، فأرسل الشحنة إيلدكز الى السلطان فقال له السلطان: ان السياسة قاصرة والناس قد هلكوا، فقال ياسلطان العالم اذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخ امرأتك فأي قدرة لي على المفسدين؟ وشرح له الحال فقال له السلطان الساعة تخرج وتضرب اعناقهم، وإلا ضربت عنقك، فخرج وكبس بعضهم وضرب اعناقهم، وكانا هذين الشخصين لهما حصة فيما يسلبه العيارين من الناس ، وظهر العيارون مرة أخرى في سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، حيث عظم امر ابن بكران العيار بالعراق، وكثر اتباعه وصار يركب ظاهرا في جمع من المفسدين، وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد، فأمر ابا القاسم ابن اخيه حامي باب الازج ان يشتد عليه ليأمن شره. وكان ابن بكران يكثر المقام في السواد، ومعه رفيق يعرف بابن البزاز، فانتهى أمرهما إلى انهما ارادا ان يضربا باسمهما سكة فى الانبار ، وقد هدد الشحنة والوزير شرف الدين والي بغداد بالقتل ٦ ان لم يقتل ابن بكران فدبر له مقتلة وتخلص منه وظل الأمر هكذا حتى جاء الخليفة الناصر لدين الله وهذب حركة العيارين والشطار أو حركة الفتيان وربطها بشخصه وجعل لها نظاماً خاصاً، وفق تقاليد معروفة منها لبس سراويل الفتوة وتناول الماء الممزوج بشيء من الملح وشد حزام في الوسط . فضلا عن اضفاء الطابع الديني عليها من خلال شخص الخليفة العباسي الهاشمي، وكونه قائدا لهذا التنظيم الشعبي ان صحت تسميته وتوجيهه الوجهة التي يريدها الخليفة ضد أعدائه او الطامعين في العراق من امثال السلاجقة واتباعهم وصل الخليفة الناصر لدين الله الى الحكم والسلاجقة لازالوا متنفذين في حكم العراق، ويعملون ما يشاؤون وفق اهوائهم، ضاربين عرض الحائط أي مظهر من مظاهر احترام الناس، فضلا عن الخليفة العباسي الذي يستمدون منه شرعية حكمهم، كما حجر السلاجقة على الخلفاء وحددوا لهم خروجهم ونفقاتهم وعدد الأفراد الذين يحمون الخليفة ورواتبهم، كما مر بنا في الفصل الثاني، فمساحة العراق محدودة و امكاناته الاقتصادية محدودة أيضا، والخليفة يريد ان يفعل شيئا ما تجاه السلاجقة، الذين لم يدعوا شيئا من الإهانة إلا فعلوه تجاه الخلفاء بالذات، وتجاه عامة الناس بشكل عام، ومنع السلاجقة أيضا أي مظهر من مظاهر التجنيد لدى الخلفاء، لابل خلعوا من حاول أن يجند الجند ضدهم، واجبروا الفقهاء على إصدار فتاوي تجيز خلع الخلفاء، وبخاصة من أخذ بعد الجند للاطاحة بهم، والأمثلة كثيرة كما مر بنا قبل قليل ية ارجاع ناصر تول ناطق – تونه خ العلاقات كيف نارج داخل أراد الخليفة الناصر لدين الله أن يعد قوة عسكرية من أهل العراق الذين هم على تماس باحداثه يعانون ضغط السلاجقة، ويشاهدون ما يفعلوه بالناس قوة عسكرية لا تتحمل الدولة تكاليفها من حيث الرواتب والملابس والتدريب والسلاح، فضلا عن تخليص البلاد من شقاوة بعض الغير منضبطين من هؤلاء الفتيان .

اذن اصبح الهدف والأسلوب واضحا لدى الخليفة الناصر لدين الله، فالسلاجقة لديهم الجيش النظامي والسلاح والمال والخبرة القتالية، والخليفة الناصر لدين الله لديه هؤلاء الناس الذين ربطهم بنفسه وجعلهم تابعين له جاهزين لصد أي طاريء في العراق، وحاول الخليفة الناصر لدين الله أن يجند كل الأمراء التابعين له أو الذين يتبعونه بالولاء، ليجعلهم ضمن قوة الفتوة كشهاب الدين الغوري، وصلاح الدين الايوبي وغيرهم من امراء الاطراف. وكان الفتيان يظهرون للعيان وهم حاملي السيوف ويرمون بالبندق او المقاليع واصبحوا جندا غير نظامي في العراق عامة وبغداد خاصة، ونحن نعرف أن بغداد كانت مستهدفة من كل الطامعين للحصول على التقليد من الخليفة العباسي، وفرض سيادة من يسيطر على بغداد على بقية أرجاء العالم الإسلامي من خلال الخليفة العباسي الموجود في بغداد.

الناصر لدين الله وتوحيد جبهة العراق:

تولى الخلافة الناصر لدين الله وحدود العراق الإدارية لاتتجاوز مناطق وسط العراق، فعمل على تكوين تحالفات وعلاقات من خلال ونه خليفة وتهمه مصلحة المسلمين، صحيح أنه فشل في بعض هذه لعلاقات، وأخطأ في بعض، إلا أنه بذل جهده، والعامل قد يخطأ أو صيب ولا يمكن لكل واحد منا أن يتخذ قرارا صائبا على طول الوقت، كيف الحال في ذلك الوقت، وكثير من الأمور معقدة، وتخضع لعوامل خارجة عن ارادة الفرد والدولة معاً، فضلا عن وجود تحالفات خارجية داخلية كبيرة، فالناصر لدين الله تولى الخلافة ومعظم بلاد الشام تحت سيطرة الصليبية تدعمها البابوية بكل ما تملك من امكانات مادية بشرية ومسخرة كل السفن الأوربية التجارية لنقل المؤن والذخيرة الرجال، لتحقيق حلم البابوية بتوحيد مسيحيي العالم تحت زعامة البابا في وما، هذا على الطرف الغربي من بلاد الشام، اما في بلاد الاندلس فقد اخذت المدن الاندلسية تتهاوى أمام تحالفات الغرب الأوربي، وبدأت خسر المدن والمواقع الواحدة تلو الأخرى، وفي مشرق البلاد الإسلامية نهرت في هذا الوقت قوة جديدة هي الدولة الخوارزمية التي أرادت ان حل محل السلاجقة، وحلت محلها فيما بعد، وقاومت الدولة القره خانية ب بلاد ماوراء النهر، ودخلت في صراعات مع الدولة الغورية التي هرت في بلاد الغور، ولم تنته تلك المشاكل بين الدولتين، حتى متطاعت الدولة الخوارزمية من اسقاطها سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م، وقضت دولة الخوارزمية كما مر بنا على الدولة القره خانية في بلاد ماوراء النهر.كما تطلعت الدولة الخوارزمية إلى السيطرة على العراق، وأرادت ان تحل محل محلها في بغداد وتسير الخليفة العباسي وفق مشيئتها ، وتفرض على الخليفة العباسي ارادتها كما فعل من قبلها البويهيين والسلاجقة اما المناطق المحيطة بالعراق، فقد كانت مقسمة فاربيل اتابكية والموصل اتابكية وحلب اتابكية ودمشق اتابكية والأيوبيين في بلاد الشام ومصر قد قنعوا بدول صغيرة لاتتعدى دويلات المدن التي لا تستطيع ان تلبي ابسط احتياجاتها من أي شيء من الغذاء او الدواء أو الطعام

او العلف، أو تستطيع حتى ان تدافع عن نفسها ضد اية دولة تهاجمها، بل اخذت تقيم لها علاقات وتحالفات هزيلة، ولا مانع ان يكون بعض من هذه التحلفات مع القوى الصليبية في المنطقة. فبالله عليك ياخي القاريء الكريم كيف يمكن ان يفكر هذا الخليفة بطريقة قويمة، الإنسان منا عندما يقع في مشكلة أو عمل غير جيد، نقول ان الظروف المحيطة به أجبرته على هذا للسلوك دون ذلك. الكل يتطلع إلى الخليفة الناصر لدين الله، وكأنه البلسم الشافي لحل جراح الأمة الإسلامية، فعليه ان يحرر بلاد الشام من الصليبيين، ويطردهم خارج حدود بلاد الشام، وان يعيد الصاع صاعين للدولة البيزنطية، التي كانت وراء مشاكل بلاد الشام، ودخول الصليبيين إلى المنطقة، وعليه أن يجهز الجيوش ويعيد السيادة الإسلامية على بلاد الأندلس، ويوصل النفوذ الإسلامي إلى حدود بلاد الغال وعليه ان يوقف زحف وتطلعات الدولا الخوارزمية، ويعيدها إلى رشدها كدولة تأتمر بأمر الخليفة الناصر لدين الله .لكي يكون جوابنا صحيحا ومنطقيا علينا معرفة امكانات الخلافه وقدراتها المادية والبشرية، كانت ارض الخلافة العباسية على عهد الخليفه الناصر لدين الله محدودة بشكل لا يتصوره العقل، مناطق نفوذ الخليفة تمت من تكريت شمالا إلى البصرة جنوبا، ومن طريق خراسان شرقا الى الانبار غربا، هذه دولة الخلافة، فما هي امكاناتها المالية والبشريه والعسكرية، قياسا الى اية دولة من دول العالم الاسلامي (الخوارزمية او الغورية او الأيوبية) ستكون نتيجة المقارنة ان الخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر لدين الله كانت تفتقر إلى كل شيء فضلا عن العمق الاستراتيجي من الناحية العسكرية والاقتصادية والبشرية، فالدولة التي لديها عمق استراتيجي، اذا اندحرت في موقعة تنسحب الى العمق، واذا خسرت في معركة مكانة اقتصادية تستعيض عنها بمنطقة أخرى، واذا خسرت أعداد من جيشها تستطيع سحب قوات من مناطق اخرى. ما هو الحل برأيك عزيزي القاريء الكريم؟ ! الجواب لاقدرة عسكرية بدون همة والهمة لاتأتي من فراغ، فلا بد من برنامج والبرنامج لا ينفذ الا من خلال بذل الاموال، والجيش لا يبني من دون عقيدة عسكرية وتدريب يؤكد هذه العقيدة العسكرية والمال اهم شيء في أي تحرك، فمن لديه المال يستطيع ان يجند الجند للقتال، فلا يمكن أن تعد جيشا دون رواتب واذا اعددت جيشا بدون تدريب وامكانات ورواتب، فالنتيجة ستكون واضحة وهي خذلان الدولة في احرج حظاتها والامثلة على ذلك كثيرة من واقع العراق الحالي وواقع العالم لمعاصر، فكم من قائد تبجح بقوة جيشه ثم خذل، لأنه هو قد خَذَل جيشه بل ان يهزمه الأعداء . لقد سعى الخليفة الناصر لدين الله بكل ما أوتي من قوة وهيبة ونفوذ اى اثبات وجوده كخليفة في بغداد، وفي مختلف أرجاء العالم الإسلامي، لقد معى لم يترك فرصة الا واستغلها لصالح الخلافة العباسية، فقد ارسل الجيوش و الجيوش، لمحاربة بقايا السلاجقة او الدولة الخوارزمية، فعلى سبيل مثال لا الحصر فقد جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشا لمحاربة بقايا سلاجقة ففي سنة ٥٨٤هـ /١١٨٨م ، فكان يؤيد طرفا دون آخر بهدف ضعاف السلاجقة، فقد ساند الخليفة السلطان قزل ضد السلطان طغرل عين على رئاسة الجيش العباسي وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس صل

الجيش العباسي الى ،همدان لم يلحق بالجيش العباسي قزل، فانفرد طغرل بالجيش العباسي، وهزمة واسر ،قائده، وهذه احدى اخطاء الخليفة الناصر لدين الله، فكيف يولي قيادة الجيش لوزير، ونحن نعرف أن من يحسن قيادة الجيش هو القائد العسكري، وقد قال بعض الشعرا شيرة والخدام الضيافة في هذه المناسبة :

اتركونا من جانحات الجريمه .... طلعة طلعة تكون وخيمة
بركات الوزير قد شملتنا .... فلهذا امورنا مستقيمة
خرجت جندنا تريد خراسان.... جميعا بابهات عظيمة
واتونا ولا بخفي حنين .... بوجوه سود قباح دميمة

وفي سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م سيطر الخليفة الناصر لدين الله على مدينة تكريت ونواحيها، إذ حدثت منافسات بين الأخوة الحاكمين لمدين تكريت ولم ينجحوا في تسوية خلافاتهم، فقتل بعضهم، وقد استغل الخلي الناصر لدين الله هذه الفرصة، فأرسل جيشا إلى مدينة تكريت وحاصر وسيطر على قلعتها ، وأعادها إلى سيادة الدولة العباسية مباشرة، وحد نفس الشيء في حديثة وعنه، إذ أرسل الخليفة الناصر لدين الله جيشا سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م، وظل الحصار مفروضا على حديثة حتى نفذ الاقوات واستسلمت حاميتها وعادت حديثة تحت حكم الخليفة مباشرة.وعندما وجد الخليفة الناصر لدين الله المجال مناسبا للسيطرة على احد القلاع في الاحواز ارسل اليها جيشا في سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م، بعد أن أساء واليها السابق معاملة الجند العباسي في هذه القلعة . وفي اواخر حكم الخليفة الناصر لدين الله اصابه الشلل النصفي في ثلاثة سنين، لايقدر على شيء، وربما كان يفعل الشيء وضده، ولم تعجب تصرفات الخليفة الناصر لدين الله مؤرخنا ابن الاثير فقال عنه: ((يطلق في طول مرضه شيئا كان احدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالما فخرب في ايامه العراق وتفرق اهله في البلاد، واخذ أموالهم وأملاكهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة ثم بطلها، واطلق بعض المكوس التي جددها في بغداد خاصة ثم اعادها، وجعل جل همه في رمي البندق والطيور والمناسيب، وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها، الا من يلبس منه سراويل يدعى اليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة))

ب الظاهر بأمر الله :

هو ابو نصر محمد بن الناصر، ولد في المحرم من سنة خمس مائة واحدى وسبعين للهجرة، وامه ام ولد تركية تعرف بـ اخشو او بقجة تولى الخلافة بعد وفاة والده الناصر لدين الله سنة ستمائة واثنين وعشرين للهجرة، وكان قد عين وليا للعهد ثم عزل واعيد بعد ذلك في عهد والده (عين وليا للعهد سنة ٥٨٥هـ وعزل سنة احدى وستمائة واعيدت الخطبة له سنة ستمائة وثمانية عشر). تولى الخلافة وعمره اثنان وخمسون سنة، فقيل له ألا تتفسح ؟ قال : لقد يبس الزرع، فقيل: يبارك الله في عنرك اقال: من فتح دكانه بعد العصر ايش يكسب ونقش خاتمه ((راقب العواقب))، كان حليما محبا للعلم وأهله، امر برد المظالم التي حدثت اثناء مرض والده الناصر، روى

الحديث و اجازه لعدد من العلماء والمشايخ اعتق الكثير من الجواري واخرجهن بما كن يملكن، وزاد في عطاء المماليك، وتقدم إلى أرباب الدولة بالعدل والأنصاف، والى ولاة السواد بتخفيف الوطأة وأنصاف المتعاملين والإحسان إليهم والرفق بهم، وكان كثير التردد إلى المارستان والتطلع على أحوالهم والوصاة في حقهم رفقا بهم ،ورحمة ولما ولي الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين، فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان صادقا واعاد الناس الى الخراج القديم وخفف عنهم، فمن ذلك أن اهل باعقوبا تظلموا من أبيه الناصر لدين الله حول قيامه بزيادة خراجهم ثمان مرات أي كانوا يدفعون للدولة ثمانون الف دينار، وكانت باعقوبا تدفع في أول الأمر عشرة آلاف دينار في كل سنة، فأمر بإعادتها إلى خراجها الأول تخفيفا عن الرعية وترفيها لهم على العيش بكرامة ورفاه ، ولما أعاد الخراج الى الخراج الأول، اجتمع قسم من الناس، وطالبوا الخليفة بأخذ خراج الاشجار على كل شجرة حية منتجة، فوافقهم على هذا لما فيه مصلحة الناس ولم يضجر أو يتألم لنقصر الخراج. كما رفع الظاهر كذلك ضريبة الذهب عن الناس ومن عدل ان صاحب ديوان واسط جاءه ومعه أزيد من مائة الف دينار من ظلم فردها على اربابها، وقال: ما لنا بها حاجة، ورخصت الأسعار في عهده وكان اذا غلا السعر امر باطلاق ما في مخازن الدولة لتباع حتى يرخصر السعر، ومنع الناس من التجسس على بعضهم ومنع حراس الليل مر الكتابة الى الديوان بما تحدث من زيارات ليلا في المحلات واسما الاشخاص، الناس يلقون من ذلك مشقة عظيمة، إذ قد تؤدي كلم باطلة بحياتهم. كما اخرج من السجون من لم يكن مذنبا، ووجد في بيت مو داره الوف رقاع كلها مختومة، فقيل له: لم لا تفتحها؟ قال؟ لاحاجة لنا فيه كلها ١ ٤٦ وامر قاضيه بتوزيع مبلغ قدره عشرة آلاف دينار في اه السجون ممن لم يكن معه مال، فوزعها القاضي. كما فرق بين العلماء واه الدين في ليلة عيد الفطر مائة الف دينار . له صاحب المخزن: كانت في ايام ابائك تمتليء، فقال: ما جعلت الخزائن لتمشيء، بل تفرغ وتنفق في سبيل الله، فان الجمع شغل التجار وكتب إلى وزيره عند توليه الخلافة بعد البسملة رسالة جاء فيها: اعلموا أنه ليس امهاتنا إهمالا، ولا إضاؤنا إغفالا ، ولكن لنبلوكم أيكم احسن عملا، وقد عفونا لكم ما سلف من اخراب البلاد، وتشريد الرعايا ... يأمركم سلطانكم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله، فيخوفكم مكره، ويبدي ابن الاثير تأسفه على الظاهر بامر الله فيقول: ((ولم ازل علم الله سبحانه من تولى الخلافة، أخاف قصر المدة، لخبث الزمان وفساد اهله واقول لكثير من اصدقائنا ما اخوفني أن تقصر مدة خلافته، لأن زماننا واهله لا يستحقون خلافته، فكان (كذلك)) ، كما عالج مشكلة ارتفاع الاسعار في الموصل، فأمر بحمل الغلات اليها حتى انخفضت الاسعار بها، واطلاق ما في مخازن الدولة من مواد تموينية للتخفيف عن الرعية في الجزيرة والموصل كما امر القاضي بان يحل مشاكل الناس مباشرة من غير مراجعته اذا قدم المشتكي البيئة الصحيحة والشهود، كما اقام رجلا صالحا في ولاية الحشرية (وهم الاقارب الأباعد من الاسرة العباسية وبيت المال وقال

له: اعط كل ذي حق حقه، واتق الله ولا تتقي سواه. وقد روى الحديث عن ابيه الناصر لدين الله وروى عنه ابو صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي (الكيلاني قدس الله سره ، توفي في سنة ثلاث وعشرين وستمائة وكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة . . ولما توفي جاء المعزون من بلاد عديدة لتعزية ولده المستنصر بالله، فجاء وفد الموصل برئاسة ابن الأثير نصر الله رسولا من صاحب الموصل برسالة في التعزية أولها: ماالليل والنهار لا يعتذران وقد عظم حدثهما، وما للشمس والقمر لا ينكسفان وقد فقد ثالثهما: فيا وحشة الدنيا وكانت أنيسة ووَحْدَةً مِّنْ فيها لمصرع واحد

ج المستنصر بالله : هو أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله، تولى الخلافة بعد وفاة والده سنة ثلاث وعشرين وستمائة ولد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ليه ام ولد رومية اسمها .شيرين وكان نقش خاتمه ((العفو بك أولى)). كان من الخطاطين المجيدين ميالا إلى العلم وأهله). سار على سيرة والده الظاهر بأمر الله، وسلك في الخير والإحسان، ونشر العدل في الرعايا وبذل الانصاف في القضايا، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والربط والمدارس والمارستانات، وأقام منار الدين وقمع المتمردين، ونشر السنن، وكف الفتن، وحمل الناس على أقوم السنن، وقام بأمر الجهاد وجمع الجيوش لنصرة الإسلام، وحفظ الثغور وافتتح الحصون ، وقال الموفق عبد اللطيف: (بويع ابو جعفر ، فسار السيرة الجميلة، وعمر طرق المعروف الدائرة، وأقام شعائر الدين، ومنار الإسلام، واجتمعت القلوب على محبته ، والالسن على مدحه، ولم يجد أحد من المتعنته في معيبا). وكان جده الناصر يقربه ويسميه القاضى لهداه وعقله وانكار ما يجد من المذكر وقال عنه الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري كان ستنصر راغبا في فعل الخير مجتهدا في تكثير البر، وله في ذلك آثار جميلة، وأنشأ المدرسة المستنصرية، ورتب فيها الرواتب الحسنة لأهل العلم وأمر فنودي في بغداد بالعدل والاحسان وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها، تقضى حاجته وتكشف مظلمته، وكان السعر قد ارتفع بوفاة أبيه، فأمر أن تباع غلات الدولة بارخص من سعر السوق بمقدار الثلث) . وكان الخليفة المستنصر بالله ذا همة عالية وشجاعة واقدام عظيم وقصدت التتار البلد، فلقيهم عسكره، فهزموا التتار هزيمة مذكرة، وكان له اخ يقال له الخفاجي فيه شهامة زائدة، وكان يقول: لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون، وأخذ البلاد من أيدي التتار واستأصلهم، فلما مات المستنصر، لم ير الدويدار ولا الشرابي تقليد الخفاجي خوفا منه، واقاما المستعصم بالله. وكان المستنصر بالله قد استكثر من الجند جدا، وكان مع ذلك يصانع التتار ويهاديهم ويرضيهم . واستعاد بهذا الجيش القوي اتابكية اربيل بعد وفاة واليها مظفر الدين كوكوبوري، فاصبحت تابعة للخلافة العباسية مباشرة. وحرصا من الخليفة المستنصر بالله على الرعية، ومعاملاتهم اليومية ورواتبهم فقد أمر بمسك نقود مضبوطة تتقيد بها الدولة والناس في التعامل، فقد أمر سنة ٦٣٢هـ /١٢٣٤م بضرب الدراهم الفضية ليتعامل بها بدلا من قراضة الذهب، فجلس الوزير وأحضر الولاة والتجار والصيارفة، وفرشت الأنطاع، وأفرغ عليها الدراهم، وقال

الوزير: قد رسم مولانا أمير المؤمنين لمعاملتكم بهذه الدراهم عوضا عن قراضة الذهب رفقا بكم وإنقاذا لكم من التعامل بالحرام من الصرف الربوي فأعلنوا بالدعاء، ثم أديرت بالعراق وسعرت كل عشرة بدينار قراضة فقال الموفق أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد لا عدمنا جميل رأيك فينا ورسمت اللجين حتى الفنا. وما كان قبل بالمألوف ليس للجمع كان منعك للصر انت باعدتنا عن التطفيف ف ولكن للغدل والتعريف ومن مناقب الخليفة المستنصر بالله انه في أحد المجالس مدحه أحد الشعراء بقصيدة جاء فيها:لو كنت يوم السقيفة حاضرا كنت المقدم والامام الأورعا فرد احد الحاضرين فقال: قد كان جده العباس رضي الله عنه حاضرا، فخلع الخليفة على الشخص الذي ردّ ونفى قائل الشعر الى مصر. وقد حفل عصره بخيرة الادباء والعلماء والمحدثين والجغرافيين من امثال ياقوت الحموي، صاحب كتاب معجم الادباء ومعجم البلدان، ويحي بن معطي بن نقطة والحافظ عز الدين ابن الأثير، صاحب كتاب الكامل في التاريخ وغيره، وبن فضلان والشاعر الصوفي عمر بن الفارض المعروف بقصيدته الثانية، والمتصوف الكبير عمر السهروردي، مؤلف كتاب عوارف المعارف والمؤرخ المشهور ابن شداد، والبضياء ابن الاثير صاحب كتب الادب ومنها المثل السائر.وكان المستنصر بالله إلى ذلك سمحا جوادا كثير النفقات في وجوه البر، روي عن الخليفة الناصر لدين الله عندما نظر إلى بركة ماء في دار الخلافة وقال: ترى اعيش حتى أملأها ذهبا؟ ولما تولى المستنصر بالله الخلافة قال: ترى اعيش حتى افرغها، لأن المستنصر بالله كان يرى أن تصرف هذه الأموال في وجه الخير بدلا من اكتناز المال والناس في أمس الحاجة له) كما اهتم الخليفة بالفتوة ولبس سراويلها، واعتبر نفسه حاميا النظام الفتوة ونتيجة لهذه السمعة الحسنة فقد أرسل والي اليمن إلى الخليفة المستنصر بالله يطلب منه تقليدا بحكم بلاد اليمن بعد موت الملك المسعود بن الملك الكامل، فبعث إليه التقليد بولاية اليمن أما عن دور الخليفة المستنصر بالله في توحيد الجبهة الإسلامية ضد المغول، فقد سعى بشكل حثيث لتحقيق تحالفات إسلامية مع الدول والأقاليم المجاورة للعراق، محاولا أن يخفف من هذه الصراعات التي تحدث بين مختلف الإمارات ولعب دورا في حل كثير من هذه الإشكالات، ومن بين هؤلاء الحكام كان الأيوبيين أمراء الشام والجزيرة ومصر، كما حاول تشكيل جبهة موحدة المجابهة التحدي المغولي، وقد استجاب له الملك الكامل، وارسل له قوة عسكرية قوامها ١٠٠٠٠ رجل لمساعدة الخليفة في مواجهة المغول ووصلت إلى الخليفة قوة عسكرية اخرى من حاكم شهرزور نور الدين ارسلان ابن زنكي قوة عسكرية اخرى تقدر ب ٨٨ جندي، اما دمشق فقد ساندت الخلافة العباسية وارسلت لها ثلة من جنودها للدفاع عنها ضد المغول، وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على الترابط المصيري الذي ربط هؤلاء الأمراء بالخليفة العباسي . كما حاولت الأندلس الحصول على التقليد من الخليفة العباسي المستنصر بالله، فقد أرسل بنو هود مبعوثهم إلى بغداد، حيث استقبل بحفاوة من قبل الخليفة، وقد أجاب الخليفة إلى طلب تقليد بني هود حكم جزيرة الأندلس، وحين وصل التقليد إلى بني هود، فرحوا فرحا شديدا، وتم قراءة منشور الخليفة على أهل الأندلس أما

عن علاقة الخليفة العباسي المستنصر بالله بالدولة الخوارزمية فقد تحسنت مقارنة مع فترة الخليفة الناصر لدين الله، وترددت الرسل بين الطرفين لإعادة الخطبة في أرجاء الدولة الخوارزمية، وتم الاتفاق على إعادة الخطبة، وقد أعطى الخليفة المستنصر بالله تقليد خراسان وبلاد ماوراء النهر لجلال الدين منكبرتي في سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م، وبدأ عهد جديد من التحلفات بين الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية، وبخاصة وان العالم الإسلامي كان يهدده الخطر المغولي القادم من الشرق، وقد أرسل الخليفة المستنصر بالله التقليد في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م مع وفد إتمام الصلح بين الاثنين، وقد أجاب السلطان الخوارزمي إلى ذلك، وأرسل مبعوثا إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، حيث تم الاتفاق وارسل له التقليد، وبدأت العلاقة تتحسن بين الاثنين، وسادت الرسائل المتبادلة بين الدولة الخوارزمية والخليفة العباسي تحمل طابع الاحترام والتبجيل للخليفة العباسي، ففي رسائل الخليفة نلمس (خادمه المطوع متكبرتي بن سلطان سنجر ورسائل جلال الدين منكبرتي تحمل ((سيدنا ومولانا امير المؤمنين وامام المسلمين وخليفة رب العالمين، امام المشارق والمغارب، والمديف على الذرة العليا من لؤي بن غالب)) توفي المستنصر في يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة مئنة اربعين وستمائة

د. المستعصم بالله

هو ابو احمد عبد الله بن أبي جعفر المنصور المستنصر بالله ولد سنة تسع وستمائة وامه ام ولد اسمها هاجر كانت صالحة دينة كثيرة الخير والبر والعطاء، بويع له بالخلافة في جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة كان جميل الوجه حسن الصورة ونقش خاتمة اعتصمت بالله روى كجده وابيه الحديث ووجد بخطه اربعين حديثا، وكان كريما متدينا سليم الباطن، حسن الديانة، قال عنه الشيخ قطب الدين: كان متدينا متمسكا بالسنة كأبيه وجده ، ولكنه لم يكن مثلهما في الشجاعة والحزم وعلو الهمة . وبدلا من أن يسير على خطة والده المستنصر بالله في تدريب الجند، كان خليا من الرأي والتدبير، فأشار عليه الوزير بقطع أكثر الجند، وان مصانعة التتار واكرامهم يحصل به المقصود وهو النجاة منهم، وهو عكس مما كان ، وفي عهده أحتل الصليبيون مدينة دمياط، في سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، وكان على ملك مصر آنذاك الملك الصاح يصارع الموت، فأخفت زوجته شجرة الدر موته لمدة ثمانين يوما، وأرسلت إلى ولده تور انشاه بالمجيء ثم قتلته، وأصبحت هي الحاكمة، وقد علق الخليفة المستعصم بالله على ذلك فأرسل رسالة إلى أهل مصر: ان عدمت الرجال عندكم حتى تولوا النساء، فاكتبوا إلينا نرسل لكم برجل من قبلنا يليكم يصلح شأنكم ، ثم استعاد المصريون دمياط، وأسر قائد الحملة الملك ويس التاسع . وقتل على يد المغول، حيث جعلوه في غرارة (كيس) رفس إلى ان مات.

الفصل الخامس :-

ظهور المغول وزوال الخلافة العباسية

يتضمن هذا الفصل ظهور المغول قوة كبيرة ومؤثرة في العالم في ذلك الوقت وهو القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد قيامهم بحملات منظمة و ذكية وسريعة ومفاجأة ضد مختلف مناطق العالم المتحضر أنذاك ومنها البلاد الإسلامية متناولين ظهورهم ودورهم في تخريبي العالم وأسباب نجاحهم و أسباب فشل الدول في مقاومتهم مقاومتهم

– ظهور المغول

المغول هم مجموعة من القبائل البدوية التي كانت تسكن في صحراء منغوليا وتمارس هذه القبائل تربية المواشي والخيول اللي تبيع منتجاتهاإلى المناطق المتحضر وتشتري بدلها ما تحتاجه من احتياجات،منطقة منغوليا من بين المناطق الأقصى مناخاً في العالم المعروف أنذاك تتفاوت درجة الحرارة فيها بشكل كبير بين الليل والنهار وبين الصيف و الشتاء ويتطلب من سكانها تحمل شظف في العيش وقسوة الطبيعة التي لا تمنحهم الا القليل من مواردها وتعيش هذه القبائل عيشة ترحل الماء والكلاَ وتتقاتل فيما بينها من اجل ذلك، وتحكم المغول عادات وتقاليد غريبة فرضها عليهم زعماؤهم ، اصبحت مجرى العادات والتقاليد ، كان المغول الالتزام بها، وغالبا ما تتقاتل هذه القبائل المغولية سوة متناهية فبيد ، بعضهم بعضا ويستعبدهم كما حدث مع التتار الذين قسى عليهم المغول واستعبدوهم قبل خروجهم من منغوليا ، واما نوع الحياة التي يحياها المغول ، فإنه يمكن تقسيم القبائل المغوليه إلى قسمين في أواخر القرن السادس للهجرة الثاني عشر للميلاد إلى قبائل روعاة في المراعي والى قبائل صيادين يصيدون السمك من الانهار ويصيدون الحيونات في الغابات والمناطق الثلجية ذات الفراء وفئه ثالثة تصيد الظباء بواسطة الحبال او النبال ، وفي المناطق الثلجية يستخدمون العربات الخشبية التي تجرها الكلاب الصيد وينتقلون تعباً لوجود صيدهم .لقد شكل سكان منغوليا مشكلة كبيرة للدول المجاورة لهم في حيثما ضعفة الدول المجاورة لهم والتقوى سكان منغوليا ووجد أن الفرصة السائحة لهم للخروج إلى المناطق الحضرية ونهبها وتخريبها، خرجو واذقو سكان البلاد المتحضره زراعياً وصناعياً وعلمياً الذل والهوان ، وهذه الحضارة في نظر المغولي ليست إلا وسيلة لخدمته ،وتقديم العون والاتاوة له والتلذذ بتعذيب الاخرين ، وقتلهم وسلب حريتهم، وقد رأينا في تاريخ الصين ذلك البلد الذي ابتلي بشر المغول منذ القدم، بحيث اضطرت إمبراطورية التانغ الى بناء سور الصين العظيم الذي يمتد على طول الحدود مع منغوليا والمناطق المحاذية لها، وانشأت على طول هذا السور المستوطنات العسكرية وحشدت لها الاف الجنود من اجل ان يقف هذا السور بوجه سكان الصحاري الذين اذا ماوجدوا الفرصة الملائمة هجمو على الصين ومزارعها وسهولها ومصانعها

واستعبدوا سكانها واذلوهم وجعلوهم عبيدا لهم كما لعب سكان منغوليا على الحبلين في بعض الاحيان اذ وقفوا الى جانب حكومة صينية ضد اخرى كما فعلوا مع سلالة الكين وكما ذكرنا فقد جرت محاولات عديدة من اجل توحيد القبائل المغولية في منغوليا، لكنها كانت تبوء بالفشل حتى تمكن جنكيز خان(تموجين) من توحيد هذه القبائل المتناحرة والمختلفة في بينها ، وقادها لتغزو وتدمر العالم المعروف انذاك ، وسبب قولي تدمير العالم لان المغول المحاربين والشيوخ والنساء والاطفال والمرضى ولم تسلم منهم الجسور والقناطر والمزارع والحقول والجبال والاشجار ، إلا لعنة الله على المغول وعلى من سار على دربهم من الامم حتى تقوم الساعة ويرث الله الارض ومن عليها .بدأت قوة المغول تظهر على الوجود على يد جنكيزخان الذي استطاع ان يوحد القبائل المغولية ويقضي على المناوئين له ، ولاسيما ان والده قد قضى على البقية الباقية من قوة التتار ، وقد عانى الامرين في بداية حياته حتى تمكن من ضم المغول تحت لوائه واعلنلوه زعيما على المغول بحدود سنة١١٨٨م/٥٨٤هـ ، بعد عقد مجلس القبيلة (القوريلتاي)وبحدود سنة ١٢٠٦م/٦٠٣هـ سيطر جنكيزخان على معظم الشطر الغربي من منغوليا واتخذ لقب الخان الاعظم وارتدى رداء السلطنة، واتخذ لواء لجيشة يتكون من علم يتدلى منه اذيال تسعة افراس بيضاء، ورسم على هذا اللواء القمر في المحاق . كما نظم الجيش والوحدات العسكرية واصدر قوانين الياسا والتي حددت القانون الذي يلتزم به الجندي المغولي في تعامله مع المغول ومع اعداء المغول، واقتطف منه بعض الفقرات لتدل على مدى ضحالة تفكير المغول وتخلفهم في ذلك الوقت قياسا الى الامم المجاورة لهم كالبلاد الاسلامية التي بلغت الرقي في نظمها الدينية والاقتصادية والاجتماعية ،او بالمقارنة مع بلاد الصين او حتى بلاد الهند:-الزمهم ان لايتعصبوا لشيء من المذاهب .من اطعم اسير قوم او كساه بغير اذنهم قتل .منعهم من غسل ثيابهم، بل يلبسونها حتى تبلى.منعهم من ان يقال لشيء نجس، فان جميع الاشياء طاهرة.وغيرها من الوصيا البالية التي تدل على سطحية تفكيرهم

بعد ذلك اخذ جنكيز خان يعد العدة للتوجه صوب البلاد المجاورة ، واتخذ من مدينة قراقورم عاصمة للمغول، وتوجه الى بلاد الصين التي ساندت المغول وامدتهم بالجند والسلاح وكجزء من رد الجميل للصين قام المغول بمهاجمة مملكة هسيا Hsiaالتي تقع الى الغرب من النهر الاصفر (هوانغ هو) . كانت الصين اول هدف لحملات جنكيزخان الحربية كما ذكرنا ذلك قبل قليل، وكما هوه معروف فان بلاد الصين كانت مقسمة الى دولتين الصين الشمالية وعاصمتها ينكين (قرب بكين) وتحكمها إمبراطورية الكين، والصين الجنوبية وتحكمها اسرة سونج، وكانت اسرة الكين هي التي يخضع المغول لها فيما مضى ، وقد استطاع جنكيزخان ان ينزل هزيمة ساحقة بجيش دولة الكين، وبهذا فقد خضعت لجنكيزخان كل الاراضي الواقعة جنوب سور الصين العظيم وذلك سنة ١٢١١م/٦٠٨هـ . ولما كانت لدى جنكيزخان معلومات مهمه عن الصين وأوضاعها وثرواتها، خرج بنفسة على رأس القوات المغولية واحتل شمال الصين . وقد مهدت هذه الانتصارات لجنكيزخان الطريق لتوجية جيوش

أخرى الى مختلف مناطق العالم الاخرى ، وأنا اخالف كل من يقول انه لم يكن في نية جنكيزخان غزو البلاد الاسلامية ، اذ بنيت كلمات جنكيزخان خططه المستقبلية ولو قرأنا رسالته الى امبروطور الصين لفهمنا أهداف المغول الاخرى .وقد شجعت انتصارات جنكيزخان هذه على اعداد ثلاثة جيوش كبيرة بما انضم الية من القبائل المغولية، قاد هوه وابنه تولي الجيش الاول وقاد الجيش الثاني ابناه جغتاي واوكتاي حيث كانوا على ميمنة ابيهم واتجهوا نحو الجنوب ، أما الجيش الثالث فقد قاده أخوة جنكيز خان واتجهوا نحو المحيط الهادي وقد مكنت هذه القوة الكبيرة من تسهيل انتصار جنكيز خان الا ان المقاومة الشديدة التي ابداها الصينيون للدفاع عن بلدهم اوقفت مؤقتا تحركات المغول في مرتفعات شانتونغ . ثم استغل المغول الاوضاع في الصين وسيطروا على مدينة بكين سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م وسقوط هذه المدينة التاريخية المهمة بيد المغول اعطى دفعا للمغول وولد احباطا لدى الصينيين ، كما افاد احتلال هذه المدينة المغول اذ سيطروا على مصانع البارود وتعرفوا على كيفية استخدامه في الحروب . كما كان لسقوط بكين صدى كبير جداً لدى المسلمين لما تشكله إمبراطورية الصين لديهم من مكانة واهمية ، فمعظم شأن المغول لدى المسلمين ولاسيما المناطق المحاذية للصين فيما يعرف ببلاد التركستان. وبعد احتلال جنكيزخان لبلاد الصين توجه الى منغوليا لترتيب واوضاعها الداخلية ، ثم انطلق باتجاه الغرب حيث قضى على قبائل النايمان واسقط مملكتهم ، وقتل ملكهم ((تايانك خان)) ، وفر ابنه ((كوجلك خان))مع جمع كبير من اتباعه الى الدولة القرخطائية حيث اعتقل من قبل الجيش القراخطائي وصار محتجزا عند ملكهم فترة من الزمن . وفي هذه الاثناء حدث خلاف بين محمد خوارزم شاه وبين كوجلك خان رئيس الدولة القرخطائية بسبب عدم دفع الاول الجزية المتفق عليها ، وقد استغل هذه الفرصة كوجلك خان ووجدها فرصة مواتية له لإستعادة مركزه وتجميع قواتة من جديد فقال لكوجلك خان انه يتوجب عليه ان يساعده ويعيد اليه قواته ويمده بالمال اللازم لمساعدته في القضاء على الدولة الخوارزمية ، فصادفت هذه الفكرة هوى لدى رئيس القراخطائيين، فامده بايمكن ان يمد حليف حليفه ، فجمع اتباعه وكون منهم جيشاً كبيراً، ولكن بدل من ان يحارب الدولة الخوارزمية كما تم الاتفاق عليه ، انقلب على ولي نعمته وتحالفت مع محمد خوارزمشاه على اقتسام املاك الدولة القرخطائية ، وقتل كورك خان وتزوج من ابنته التي كانت تدين بالبوذية ، واقنعته بترك النصرانية واعتناق البوذية التي كانت تدين بها ، وقد التحق به احد الزعماء الفاريين من جنكيزخان وهو(توق خان) زعيم قبيلة المركبت الذي سبق وان فر من امام جنكيزخان ، وكون دولة قوية واخضع كثيراً من القبائل المجاورة له ، ومد سلطانه الى بلاد التبت فامتدت مملكته من حدود التبت حتى املاك الدولة الخوارزمية الاسلامية وقد وقع جراء قيام هذه الدولة كل المسلمين في بلاد ماوراء النهر تحت سيطرتها، ولما كان هذا يدين بالنصرانية ، ثم التنقل الى البوذية ، فقد عامل المسلمين الذين كانو يشكلون اغلب سكان بلاد ماوراء النهر معاملة قاسية جداً ، واجبر بعضهم على ترك ديانته والتحول الى النصرانية او البوذية او ارتداء الزي الخطائي ،

ففضل المسلمون الحل الاخير وهو اهون الشرور الثلاثة ، وانقطع رفع الاذان في بلاد ماوراء النهر وهدمت المساجد والجوامع وحولت هذه الجوامع الى اديرة للبوذيين وعبدة البقر، وكان هذا اول اضطهاد ديني تعرض له المسلمين في بلاد ماوراء النهر. والادهى والامر من كل ذلك هو انه اخرج العلماء المسلمين في وائمتهم الى الصحراء ، ثم جادلهم جدالا عقيما، وناظرهم في شؤون الاديان ولما كان جاهلاً بهذه المواضيع كان يتبع كل الوسائل الدنيئه لتحقيق اغراضه الدنيئه ايظا، وقد انبرى له في احد المناظرات الامام علاء الدين محمد الختني في مناظرة منقطة النظير ويبين له سفه آرائه وزيف معتقده، فلما وقعت عليه الحجه لجأ الى وسيلة العاجز وهي اطلاق السباب والشتائم على الامام ثم امر باعدامه على باب احد المدارس في مدينة ختن . ولم يكن جنكيزخان بالشخص الغافل عن عدوه اللدود كوجلك خان ، فيتركه يقوى ويشتد ساعده ليعود ويهاجمه ويأخذ بثأر ابيه، واذا كان قد غفل عنه فذلك لانشغاله بحربه في بلاد الصين، فلما فرغ من حربه مع بلاد الصين واخضعها ارسل جيشاً كبيراً بقيادة (جبه نويان) الذي توجه الى مدينة كاشغر، فاحتلها بسهوله لعدم مقاومة اهلها وذلك لما اذاقهم من المر والهوان، وهذا هو ديدن الشعوب التي تتاذى وتبتلي بحكام قساة اذ سرعان مايتركها الشعب فريسة سهلة لأي هجوم تتعرض له الدولة وفي احرج اللحظات والامثلة على ذلك كثيرة في تاريخنا الاسلامي وبهذا فليتعظ الغافلون. وقد فر كوجلك خان ، هائما على وجهه ولم يحاول ان يواجه المغول مواجهة حاسمة، واول عمل قام به جبه نويان هو اطلاق الحرية الدينية لكافة السكان وهذا الشيء يشير الى علم المغول بما كان يجري في هذه البلاد من قبل وانهم على علم دقيق بكل شيء وهذا الامر هو الذي مكنهم من الانتصارات في كل المعارك التي خاضوها حتى اسقطوا مدينة بغداد واحتلوا العراق. وقد اعتقل كوجلك خان من قبل بعض الصيادين وسلموه إلى المغول فقتل سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م ، وقتل معه كل من وجد من قبيلته من النايمان. كما تعقب المغول زعيما

اخر يعرف ب توق تغان وقتلوه وبهذا خضعت كل المناطق التي كانت في يوم ما من ممتلكات الدولة القرخطائية ، وبهذا أصبح المغول مجاورين لاملاك الدولة الخوارزمية .

ج – علاقة الخلافة العباسية مع الدولة الخوارزمية:-

تنتسب الدولة الخوارزمية الى منطقة خوارزم، التي تقع في الغرب من مجرى نهر جيجون(آمودريا) وكانت هذه المنطقة تخضع لحكم السلاجقة، فعينوا احد الاشخاص ويعرف انوشتكين نائبا عن السلطان السلجوقي في منطقة خوارزم وكان انوشتكين يشغل منصب (الطست دار) واصله من بلاد غرجستان ضعفت الدولة السلجوقية نصب نفسه سلطانا على اقليم خوارزم سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م ومنذ ذلك الوقت سعى سلاطين خوارزم إلى توسيع نفوذهم على حساب أسيادهم القدامى (السلاجقة) ، كلما وجد الفرصة مواتية لذلك ، وقد تم لهم ما ارادوا عندما

توفي السلطان السلجوقي سنجر في عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م، فدخلت كل ممتلكات السلاجقة في حوزة الدولة الخوارزمية في منطقة فارس وخرسان. وعندما اعتلى السطان الخوارزمي تكش (٥٦٨_ ٥٩٦هـ/١١٧٢_١١٩٩م) العرش ، حدث قيام احد بقايا السلاجقة وهو السلطان طغرل الثالث باستعادة مكانة السلاجقة في العراق ، فأصطدم مع الخليفة الناصر لدين الله ، الذي حث السلطان تكش على القضاء على البقية الباقية من السلاجقة وبهذا زال النفوذ السلجوقي نهائيا وحل محله النفوذ الخوارزمي ، ثم تقلد حكم البلاد التي خضعت للدولة الخوارزمية، بامر من الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، لكن اطماع تكش لم يحدها حدود، فتطلع تكش الى استعادة مكانة السلاجقة في بغداد، وطلب من الخليفة العباسي ان يجدد له دار السلطنة السلجوقية في بغداد ، ليستقر فيه اذا دخل بغداد، فما كان من الخليفة الناصر لدين الله الا ان نقض دار السلطنة السلجوقية من اساسه ، انهاء لاي امل للخوارزميين في دخول مدينة بغداد. وحرض الغوريين عليهم. اما عن علاقة الدولة الخوارزمية مع القراخطاي فقد اتسمت بالعداء مرة وبالصلح ودفع الجزية مرة اخرى ، فقد حرص تكش على الحفاظ على علاقة طيبة مع القرخطاي لانهم بمثابة السد الذي يحجز بلاده عن القبائل الهمجية من المغول وغيرهم وهكذا أخذت الدولة الخوارزمية تتوسع في عهد السلطات علاء الدين محمد خوارز مشاه (٥٩٦_٦١٧هـ/١١٩٩_ ١٢١٩م) وكان هذا السلطان الخوارزمي هو الذي عاصر ظهور المغول في عهد جانكيز خان واتسم هذا السلطان بل طموح والتوسع وكلما وجد فرصة استغلها ماما أوقعه بمشاكل كان في غنى عنها كما اتسمت علاقته معه الدول الإسلامية بزرع الشقاق بينها بدلا من ان يوحدها لصد خطر كبير قادم من الشرق لايرحم صغيراً ولا كبيراً الا وهو الغرو المغولي وقد شكلت الدولة الخوارزمية خطراً كبيراً على الخلافة العباسية كما ذكرنا ذلك قبل قليل ، وقد شكل اعتلاء علاء الدين محمد خوارزمشاه لرئاسة الدولة الخوارزمية ، مشكلة كبيرة في العلاقات العباسية الخوارزمية ، وكان في بغداد الخليفة العباسي الناصر لدين الله قد استعد لاستعادة هيبة الخلافة العباسية وتخليصها من الطامعين والمستغلين ومن الذين اوصلوا مكانتها الى الحضيض . وقد ادت الانتصارات التي حصل عليها هذا السلطان الخوارزمي الى ايقاعه بالغرور والطيش فاراد ان يجبر الخلافة العباسية على فعل جملة امور قد تخلصت منها منذ فترة من الزمن . وقد وقع الخليفة العباسي في وهم عندما اعتمد على الخوارزميين للتخلص من السلاجقة ، اذ سرعان ماطالب الخوارزميين بنفس امتيازات السلاجقة التي تخلص منها الخليفة العباسي الناصر لدين الله بفضل اجراءاته وبفضل مساعدة الخوارزميين.حاول السلطان الخوارزمي استعادة أمجاد السلاجقة في بغداد بالطرق السلمية والدبلوماسية ، وعندما فشل في ذلك لجا الى الاسلوب العسكري ، فصمم على غزو بغداد وكانت تدفعه في ذلك جملة اسباب

١- كان يرغب في يأتمر الخليفة العباسي بامره، وان تذكر الخطبة باسمه على منابر بغداد ، كما كان الوضع في عهد البويهيين والسلاجقة.

٢- شعر السلطان محمد خوارزمشاه بان الخليفة يحتقره ، ويعامله معاملة سيئة اذ انه اهان رسله عندما قدموا له العلم والهدايا التي اهداها للحجاج، في حين انه قبل العلم والهدايا التي وصلت اليه من جلال الدين حسن الاسماعيلي المشهور ب نومسلمان ، وهو من خلفاء الحسن الصباح مقدم الاسماعيلية ، ورحب برسله وقدم وهذه الهدايا على هدايا خوارزمشاه.

٣- عندما استولى الخوارزميون على غزنين عاصمة الغورين سنة ٦١١هـ/١٢١٤م، ووضع يده على خزائن شهاب الدين الغوري عثرة على رسائل رسمية من الخليفة يحثة فيها على مهاجمة السلطان محمد والقضاء عليه.

٤- تبين للسلطان الخوارزمي ان الخليفة العباسي مستمر بتحريك الممالك المجاورة ضده ، وتدبير المكائد له فقد حرض القرخطائيين على الاستيلاء على املاك خوارزمشاه ووعدهم بتأييد سلطانهم على البلاد التي يستولون عليها من الخوارزميين كما حرض اتابكة فارس واذربيجان وزين لهم الاستيلاء على العراق العجمي وطرد الخوارزميين منه ، كما تحالف مع الاسماعيلية ضد الخوارزمية بل انه راح يحتضن عدة اشخاص من فدائييهم ويحركهم ضد الخوارزميين، فقتلوا (اغلمش) نائب الخوارزميين في العراق العجمي.

٥- في رأي السلطان الخوارزمي ان الخلفاء العباسيين قد تقاسمو اعمال الجهاد والقيام بالغزوات وتركوا الجهاد في سبيل الله ، وتقاسموا عن حماية ثغور المسلمين ، وقمع ارباب الفتن والبدع والضلالات، وهذا من اوجب واجبات اولي الامر

وعلى هذا الاساس شرع علاء الدين محمد خوارزمشاه بتطبيق خطتة ضد الناصر لدين الله ورأى انه عقبة في طريق تحقيق اهدافة التوسعية في المنطقة ، ولهذا سعى لتطبيق خطته العملية ، ولما كان الخليفة ولهذا سعى لتطبيق خطته العملية ، ولما كان الخليفة الناصر لدين الله يدين بالمذهب السني ، فقد عارضة خوارزمشاه ، باتخاذ المذهب العلوي مذهبا رسميا للدولة الخوارزمية ، وجمع الفقها ، واجبرهم على اصدار فتوى ضد العباسيين وانهم اغتصبوا الخلافة من العلويين ، وتم عزل الخليفة الناصر لدين الله واسقط اسمه من السگ والخطبة ومن الطراز، واتخذ خليفة علويا يعرف ب((علاء الملك)) وخطب له في ارجاء الدولة وضرب اسمه على النقود ، ونادى به خليفه على المسلمين . كما شرع في اتخاذ الخطوات العسكرية لاكمال خطته فقاد جيش واتجه به نحو بغداد في سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م ، وقد وجه الخليفة العباسي امراء اطراف لمقاتلته ، ومنهم الاتابك سعد بن زنكي الذي توجه الى عراق العجم بتأييد من الخليفه لكنه اندحر امام خوارزمشاه، وذلك للفارق بين الجيشين ، ثم اسماله خوارزمشاه الى صفه، وكذالك فعل اوزبك بن البهلوان اتابك اذربيجان الذي اندحر امام الخوارزميين ضمه خوارزمشاه الى صفه ، ويبدو لي ان خوارزمشاه لم يكن يريد يضيع قواته وجهوده في امور ثانوية لان هدفه الاساس واضح وهو السيطرة على بغداد وازاحة الخليفة العباسي منها ومن ثم حكم البلاد التابعة للدولة

العباسية وفق سند شرعي وبوجود خليفة علوي ، وخوارزمشاة ينفذ اوامر الخليفة الجديد وهو ليس الا تابع لهذا الخليفة وينفذ اوامره فقط وعندما ازاح خوارزمشاه كل العوائق توجه الى بغداد وقد ارسل له الخليفة العباسي الشيخ شهاب الدين السهروردي لطلب الصلح الا ان خوارزمشاه رفض عرض الخليفة وصمم على دخول بغداد ، وتقدم بقوائه منطلقا من همدان في الخريف ، فلما وصل اسد اباد هبت عواصف ثلجية اهلكت جيشه ، ورجع خائبا الى كركانج، وهنا تذكر المصادر ان العامة من الناس كانو يقلولون: ان العناية الالهية قد حمت إلاسرة العباسية وهنا تدور رواية مفادها ان الخليفة العباسي عندما عجز عن مواجهة خوارزمشاه استعان بالمغول لمحاربة الدولة الخوارزمية وقد ذكر هذه الرواية المؤرخ ابن الاثير وايده المقريزي في ذلك وخلاصة القول ان الصراع بين الخليفة العباسي الناصر لدين الله السلطان الخوارزمي قد بدد قوى الطرفين واطمع المغول في البلاد الاسلامية، وهذه هي ((الطامة الكبرى التي يصغر عندما كل ذنب عظيم)) فعاد خوارزمشاه ليجد نفسه امام الخطر المغولي الذي لايرحم احدا وقد اخطأ محمد خوارزمشاه في القضاء على الدولة الغورية والدولة القرخطائية وخسر الخليفة العباسي والقوى المويدة له من الايوبيين في مصر والشام وغيرهم ، ووقف وحيدا ليجابه الخطر المغولي ، فبدلا من ان تقف الدول التي ازالها خوارزمشاه سدا منيعا يعرقل تقدم المغول ولا نقول ازيل ذلك الخطر ، فدمر خوارزمشاه بحمقه وغبائه كل الدول الحاجزة التي تقع بينه وبين المغول ، فأصبح الطريق ممهدا امام المغول لدخول بلاد الاسلامية ، وهذا ما تم فعلا .

د علاقة الخلافة العباسية مع الدولة الغورية

نشأت الدولة الغورية على انقاض الدولة الغزنوية في عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م، وسيطرت على كل بلاد الافغان وبعض ممتلكات السلاجقة في خراسان فضلا عن بلاد الهند التي توجهت جهود امراء هذه الدولة لفتحها، واقتضى الحال ان تتعايش الدولة الغورية والدولة الخوارزمية سويا، وقد شابت العلاقات الحربية معظم تلك العلاقة بسبب طموح السلاطين الخوارزميين كما مر بنا قبل قليل، ولما كانت الدولة الخوارزمية في صدام مع الخلافة العباسية، وبالنظر لموقف الدولة الغورية الى صف الخلافة العباسية انتقلت تلك العلاقة العدائية بين

الخوارزميين من جهة وبين الغوريين من جهة اخرى. وقد عاصر اعتلاء السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد وجود الاخوين غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد الغوريين، وكانا يسيطران على هراة وبلخ وغزنين وكابل وسجستان وكرمان، وعندما اعتلى السلطان محمد رئاسة الدولة الخوارزمية استغل الغوريون صغر هذا الامير فوسعا من أملاكهما على حساب املاك الدولة الخوارزمية، وجرت حروب بينهما يطول شرحها في هذه العجالة .

كانت العلاقة متميزة بين الخلافة العباسية وبين الدولة الغورية فقد اصدر كل الخلفاء الذين عاصروا هذه الدولة اوامر التعيين لهؤلاء السلاطين الغوريين، وكانت الهدايا تصل تباعا منهم الى الخليفة العباسي في بغداد ، وكانت السفارات تترى بين الاثنين ، وفي عهد الخليفة الناصر لدين الله اعلن السلاطين الغوريون دخولهم في الفتوة التي كان يقف على رأسها الخليفة العباسي نفسه، فارسل الخليفة الى السلطان شهاب الدين محمد بن سام الغوري لباس الفتوة لكي يرتديها السلطان الغوري، ليمتد نظام الفتوة الى اطراف بلاد الافغان وبلاد الهند من خلال قادة هذه

الدولة، وعندما كانت الخلافة العباسية تتعرض لأي ضغط من الدولة الخوارزمية كانت الأوامر تصدر من بغداد لقادة الدولة الغورية بالتعرض للدولة الخوارزمية واجبارها على وقف تطلعاتها بالسيطرة على بغداد واستعادة مكانة السلاجقة، وفي احد هذه المرات، سأل السلطان الخوارزمي السلطان الغوري لإقامة علاقة متميزة بين الدولتين تتوج بمصاهرة بين قادة الدولتين، فوافق السلطان الغوري على ذلك، وطلب من السلطان الخوارزمي ان يصلح ما فسد في العلاقة بينه وبين الخليفة العباسي. وهذا يدل دلالة قاطعة على التزام سلاطين الدولة الغورية بطاعة الخليفة العباسي ودفاعهم عن مصالح الخلافة، وقد التزم سلاطين الغور بهذا الامر حتى سقوط دولتهم على يد الخوارزميين، وهنا استطيع أن أوكد أن الدولة الغورية قد دفعت ثمن اخلاصها للخلافة العباسية باحتلال الخوارزميين لها في عام ٦١٢هـ / ١٢١٥م ، وقد جرى نقاش بين السلطان الخوارزمي وابنه جلال الدين منكبرتي حول الهدف من اسقاط الدولة الغورية، فقال السلطان الخوارزمي لابنه : انه وجد وثائق ورسائل من الخليفة العباسي الناصر لدين الله يحرض فيها الغوريين على مهاجمة املاك الخوارزميين في خراسان ، ولاسيما اذا علمنا ان احدى هذه الحملات الغورية قد وصلت الى اطراف مدينة كركانج عاصمة الدولة الخوارزمية.

اما عن علاقة الغوريين بالقرخطاي فقد ذكرنا قبل قليل ان الغوريين قد وصلوا الى اطراف مدينة كركانج (الجرجانية)، فاستنجد السلطان الخوارزمي محمد خوارزمشاه بالخطا وبسلطان سمرقند المدعو عثمان، فتقهقر الغوريون، باتجاه الجنوب، وفي معركة ((هزاراسب))

اندحر الغوريون وتبعهم القرخطاي، ولم ينقذ الغوريين من هذه الهزيمة غير سلطان سمرقند عثمان الذي صعب عليه رؤية السلطان الغوري المسلم يندحر امام الخطا الكفار، فارسل سرا الى السلطان الغوري شهاب الدين يعلمه ان لاطاقة له بمحاربة الخطا، وانه قد توسط لدى الخطا واعلمهم ان جيوشا غورية جرارة قد جاءت من الهند والافضل للخطا ان يعقدوا صلحا مع الغوريين، كما طلب سلطان سمرقند عثمان من السلطان الغوري ان يرفض عرض الخطا لطلب الصلح اول الامر حتى يشعروا أن هناك قواتا غورية قادمة لنجدة السلطان الغوري، وفي المرة الثانية يقبل السلطان الغوري عرض الخطا بطلب الصلح، وهذا ما تم فعلا، فما احرانا نحن المسلمين ان نقتدي بهؤلاء القادة الكرام الذين لم يهن عليهم أن يندحر سلطان مسلم امام الكفار، ويعينوا المسلمين لا أن يكونوا يدا مع الاجنبي ضد المسلمين وهذا ما نجده اليوم في كل العالم الاسلامي اما السلطان الغوري شهاب الدين فقد عاد الى الهند ليعيد تنظيم قواته ، واعد حملة عسكرية كبيرة جدا ولكن يد الغدر امتدت الى البطل في خضم ساعات التحرير والمقاومة ومجابهة الاعداء اينما كانوا، فخطفت قائد مسلم جاهد لرفع كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله في بلاد الهند وبعد مقتل السلطان الغوري شهاب الدين انفرط عقد الدولة الغورية وتقاسم النفوذ فيها مجموعة من المماليك والأمراء الغوريين، فآل القسم الذي يشمل على هراة وفيروزكوه الى الأمير محمود بن السلطان غياث الدين، ولما كان هذا السلطان صغيرا انشغل في الملذات تاركا شؤون الدولة الى القادة العسكريين وانشغل هو بملذاته الشخصية، فقتل سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م، فحل محله اخو السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه وهو تاج الدين علي شاه ولكن السلطان الخوارزمي لم يرض بهذا الأمر

فجهز حملة وقتل اخاه علي شاه، وفي سنة ٦١١هـ/١٢١٤م استولى على غزنين ومد حدود بلاده الى الهند لتسقط بعدها الدولة الغورية في سنة ٦١٢هـ ١٢١٥م. وبذلك طويت صفحة دولة جاهدت لتمد النفوذ الإسلامي والحضارة الإسلامية في بلاد الهند ليستكمل دورها مماليكها في بلاد الهند، من امثال قطب الدين أيبك وغيره من المماليك التابعين للدولة الغورية، وأسسوا امارات مستقلة حملت اسمهم على مر التاريخ.

هـ – احتلال المغول لبلاد المشرق الاسلامي: بعد رجوع محمد خوارزمشاه الى بلاده وجد نفسه وجها لوجه مع القوات المغولية، فقد كان المغول يطاردون احد زعماء قبائل المركيت المعارضة لهم في منغوليا وهو(توق طغان)، وكان المركيت قد نزلوا بلاد القفجاق وسكنوا في وادي ،القرغيز، وقد تولى المطاردة ابن جنكيزخان المدعو بـ جوجي علم خوارزمشاه بنزول هذه القبيلة في ارضه فخرج لمحاربتهم ولما علم بمقدم المغول انسحب الى سمرقند، لتجميع أكبر ما يمكن من القوات الخوارزمية، وكان يأمل من هذه الخطوة، ضرب الاثنين بسهم واحد، ولكن قوات المغول كانت اسرع منه فهزمت المركيت اما خوارزمشاه فقد قرر الاصطدام مع المغول، وجرت معركة غير حاسمة بين الطرفين، ولولا بسالة ابن السلطان جلال الدين منكبرتي لحلت الهزيمة بالجيش الخوارزمي. في بلاد ماوراء النهر. لم يكن المغول مهيئين للمعركة مع الدولة الخوارزمية في هذا الوقت بالذات، وذلك لإنشغالهم في اعادة تنظيم انفسهم، بعد سلسلة طويلة من المعارك في منغوليا والصين، وكان عليهم ان ينتظروا مدة اطول

للتقدم صوب بلاد الدولة الخوارزمية، لأن المغول لا يتقدمون قبل ان يدرسوا الوضع السياسي والعسكري لهم قبل غيرهم، ثم يجمعوا المعلومات الدقيقة حول عدوهم ويبثوا الرعب في نفوس أعدائهم قبل الهجوم عليهم حتى اذا حلت ساعة القتال، واشتد وطيس الحرب هجم به المغول على جيش مندحر داخليا قبل هزيمته عسكريا، ولكي

أوكد هذا القول، اقول ان السلطان محمد خوارزمشاه قد اصابه الرعب والخوف من المغول في المعركة التي جرت وتحدثنا عنها قبل قليل، ولم يكتف . شاهده بل ارسل مبعوثا من قبله الى الصين ليتأكد من حجم الدمار الذي اصاب الصين جراء الغزو المغولي، فجاءته من الاخبار ما لايسره، ولهذ لم يدخل في مواجهة حاسمة مع المغول، بل كان يتقهقر أمامهم كلما تقدموا وهكذا. لم يشأ المغول كما ذكرت قبل قليل ان يدخلوا في مواجهة غير محسوبة مع الدولة الخوارزمية، فقد كانت انباء انتصارات محمد خوارزمشاه على طول الدولة الخوارزمية وعرضها يصلهم تباعا واو باول، ولهذا لابد من دراسة أوضاع هذه الدولة بدقة وعناية، ولهذا ارسل جنكيزخان رسالة إلى محمد خوارزمشاه جاء فيها: ((ليس يخفى على عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، وقد علمت بسطة ملكك وانفاذ حكمه في أكثر أقاليم الأرض، وانا ارى مسالمتك من جملة الواجبات وان عندي مثل أعز أولادي، وغير خاف عليك ايضا انني ملكت الصين و يليها من بلاد الترك، وقد اذعنت لي قبائلهم. وانت أخبر الناس بان بلاد مثارات العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها، فـ رأيت ان تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشمت الفوائد)).

تسلم محمد خوارزمشاه هذه الرسالة فدفعه غروره إلى الثورة والغضب الذي يأتي في غير محله واستشاط غضبا لأن جنكيز خان وصفه بالولد وليس بالاخ أو الصديق واخيرا ترددت الرسل بين الطرفين بالصلح والمهادنة بين الخوارزميين والمغول. استمرت العلاقة التجارية بين الدولة الخوارزمية وبين الدولة المغولية على حالها، وقد وصلت قافلة مؤلفة من ثلاثة تجار خوارزميين الى البلاط المغولي، تعرض احدهم في بداية الامر الى المضايقة، ثم أكرم بعد ذلك، وقد ارسل جنكيز خان قافلة تجارية من عنده مؤلفة من عدد كبير من التجار المسلمين قيل ان عددهم بلغ ٤٥٠ تاجرا من رعايا المغول وقد كلف جنكيز خان احد هؤلاء التجار بحمل رسالة الى السلطان الخوارزمي جاء فيها: (ان التجار وصلوا الينا، وقد اعدناهم الى مأمنهم سالمين غانمين. وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الاطراف، فينبغي ان يعودوا الينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين، وتتحسم مواد النفاق من ذات البين)). وصلت القافلة الى مدينة اترار التي تعد أول ممتلكات الدولة

الخوارزمية، ونظرا لأهمية هذه المدينة الحدودية فقد عين عليها السلطان الخوارزمي احد اقاربه حاكما عليها ويعرف بـ ينال خان، حتى يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ولكن وصف هذا النائب بجشعه وطمعه، ولو أن مصدرنا الوحيد هنا هو المصادر المغولية التي تعد الأساس في موضوعنا هذا. الا ان هذا الحاكم وصف بالطمع والجشع واستغلال النفوذ، فطمع في ما تحمله القافلة من تحف وهدايا واموال، وقام بالاستيلاء على كل ما تحمله القافلة وقتل التجار واتهمهم بالتجسس لصالح جنكيز خان، ولم ينج من هذه المذبحة المريعة الا تاجر واحد استطاع ان

يفلت من القتل ويكون الشاهد الوحيد على المذبحة، ونقل هذا التاجر لجنكيز خان كل ماشاهده ووقعت عينه عليه . أن مثل هذا العمل لا يمكن ان يتم دون موافقة مبدئية من السلطان الخوارزمي، واذا لم يعلم فبامكانه التحقيق في الأمر وتقديم الاعتذار ولو ان ابن الأثير يحمل السلطان الخوارزمي مسؤولية ما حدث، وان التجار قتلوا بامر من خوارزمشا مباشرة علم جنكيز خان بما حلّ بالتجار من سلب ونهب وقتل فاستشاط غضبا، لكنه أثر التمهل على الاستعجال، فبعث رسالة الى السلطان الخوارزمي جاء فيها : ((إنك قد أعطيت خطك ويدك بالامان للتجار، ألا تتعرض الى احد منهم، فغدرت ونكثت والغدر قبيح، ومر سلطان الاسلام اقبح، فان كنت تزعم ان الذي ارتكبه ينال خان كان ،من غير امر صدر منك، فسلم ينال خان إليّ لأجازيه على ما فعل حقنا للدما وتسكينا للدهماء،والا فاذن بحرب ترخص فيها غوالي الارواح)).بعث جنكيزخان رسالته مع اثنين من الرسل فقتل احدهم خوارزمشاه وارسل الآخر مهانا الى جنكيز خان، وبهذا قطع أي امل لأ حل دبلوماسي بين الطرفين وقد علق المؤرخ علاء الدين عطاء ما الجويني مؤلف كتاب جهانكشاي على تصرف خوارزمشاه قائلا: ((ان كـ قطرة من دماء هؤلاء التجار، قد اجرت نهرا من دماء المسلمين، وكـ القصاص لكل شعرة مئات الألوف من الرؤوس)) .

تجهز جنكيزخان لحرب الدولة الخوارزمية، بعد أن جاءته الحجم وكان في موقف أفضل بكثير من علاء الدين محمد خوارزمشاه من النواحي السياسية والاقتصادية والنفسية والعسكرية، وهو مستعـ ايما

استعداد لتلك الحرب، وشعبه معباً لها نظرا لما اقترفه الخوارزميون بحق تجار المغول المسلمين انظر لمن يعطي الحجة على نفسه، ماذا لو اصطنع هؤلاء التجار الى صفه و هم مسلمون ان كان ظنه السوء بهم أو يعفو عنهم وهو غير مهيا لأي شيء . اما علاء الدين فقد ازال كل الدول والامارات الاسلامية التي تجاوره، وعادى الخليفة العباسي، بل وخلعه وهو له مكانة خاصة ومتميزة لدى المسلمين، فضلاً عن عدم معاملته لشعبه بطريقة حسنة، وفضلا عن كل هذا فقد غير مذهب الدولة الرسمي، وهذا شيء غير هين في ذلك الوقت.توجهت الجيوش المغولية بقيادة جنكيز خان مصطحبا معه كل ما يمكن أن يعد لمعركة مصيرية، وقاد اربعة جيوش عين على رأسها اولاده، فضلا عن قيادة الجيش الرابع بنفسه، وتوجهت هذه الجيوش الاربعة الى اراضي الدولة الخوارزمية، وتقسيم هذه الجيوش وتوزيعها يؤكد معرفة جنكيز خان لطبيعة الاقليم والهدف من تقسيم هذه الجيوش هو لمنع أي اتصال بين القوات الخوارزمية، ومنع أي اتصال بين القوات الخوارزمية المحاصرة والجيش الخوارزمي الرئيس ومنع أي اتصال وتعاون بين المدن المحاصرة .كان الهدف الأول للجيش المغولي هو مدينة اترار التي بسببها وقعت الحرب، وقد قاومت هذه المدينة المغول طيلة خمسة اشهر، ستماتت حاميتها في الدفاع عنها ، لكنها لم تصمد حتى النهاية، فدخلت لقوات المغولية المدينة وهي مشبعة بالحقد والكراهية على سكان اترار جرت مذبحة رهيبة لم ينج منها احد ، اما ينال خان سبب المشكلة فقد جيء به اسيرا الى جنكيز خان حيث امر بان تصهر الفضة وتصب في عينيه واذنيه وفمه. كما تعرضت المدينة للحرق والتدمير بشكل كامل بيع سكانها عبيدا في الاسواق .

وبعد سقوط مدينة اترار كانت القوات المغولية تحاصر مدينة جند بقيادة جوجي بن جنكيزخان، وكانت هذه المدينة من اهم مدن الثغور في بلاد ماوراء النهر على نهر سيحون سيرادريا ،وعندما اقتربت جيوش المغول من هذه المدينة غادرتها القوات الخوارزمية، وتركوا اهلها يواجهون مصيرهم، فمهما كانت قوة الاهالي لاتصمد امام جيش منظم لديه العتاد والسلاح والتدريب وآلات الحصار فانقسم اهلها بين مؤيد لدخول المغول صلحا الى المدينة وبين المقاومة عند ذلك شدد المغول الحصار على المدينة ففتحوها عنوة، وقتلوا كل من وجدوه فيها، فحتى لو وافق السكان على الاستسلام لجرى لهم الشيءنفسه من القتل والتدمير ثم انطلقت القوات المغولية (الجيش الثالث) لحصار بناكث وخجند ففتحت بناكث ابوابها للمغول بعد ثلاثة ايام من القتال، اما خجند فقد كانت مدينة جميلة ذات حدائق غناء وبساتين وزروع، وقد قدر حاكمها تيمور ملك مغادرة المدينة لكونها مكشوفة للمغول، رحل بقواته صوب جزيرة في نهر سيحون وظل يقاوم المغول وينزل بهم الخسائر الفادحة حتى اضطر لمغادرة موقعة وظل يقاوم المغول حتى الجأوه الى خراسان، وقد دخل المغول المدينة وفعلوا بها ما فعلوه بكل مدينة دخلوها.بعد ذلك توجه المغول بالجيش الرابع الى مدينة بخارى الذي كان يقوده جنكيزخان نفسه وحاصرمدينة بخارى،تلك المدينة التي حملت مشعل الحضارة في بلاد ماوراء النهر لقرون عديدة، وخرج اعيان المدينه يطلبون الصلح من المغول، فوافق المغول على الصلح وفتحت المدينه ابوابها، واستمرت المقاومة في قلعة المدينة الذين استبسلوا في الدفاع عنها، ودخل جنكيزخان مدينة بخارى وترجل امام المقصورة، وسأل عن اذا كان هذا قصر السلطان، فقيل له هذابيت الله هذا المسجد الجامع فصاح قائلا: (كانت الصحراء خالية من العلف، اما الآن فملاؤا بطون

خيولهم وأشبعوها واستولوا على الغلات، ثم حملوا الى فناء المسجد عدة صناديق تحتوي مصاحف القرآن الكريم، والقوا بها تحت حوافر الخيل ... وصاروا يشربون ويرقصون ويغنون وفق اصول غنائهم والحانهم)). ولما وقفت القلعة تقاوم الغزاة امر باخراج الناس من بخارى واحرقها، ولما كانت مبنية من الخشب احترقت بكل سهولة اما بقية الناس فقد امر اتباعه باقتسامهم خلافا لما تم الاتفاق عليه من شروط الصلح وتسليم المدينة، فلم يعرف الولد اباه ولم تعرف الاخت اخاها ولا الزوجة زوجها او ابنائها، وقد وصف هذا الموقف المؤرخ ابن الاثير فقال: ((وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء الولدان، وتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا لنساء ايضاً، واصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وارتكبوا من لنساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن نفسهم شيئا مما نزل بهم فمنهم من لم يرض بذلك، فقاتل حتى

قتل... من استسلم اخذ اسيرا، والقوا النار في البلد والمدارس والمساجد عذبوا الناس بانواع العذاب من طلب المال)). وقد هرب أحد سكان مدينة بخارى من المغول فوصل خراسان فسأله اهل خراسان عما فعله

المغول فقال: ((لقد اتوا فخربوا واحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم ذهبوا)).

اما مدينة سمرقند فقد توجه اليها جنكيزخان بنفسه بعد ان فرغ من دينة بخاري، مصطحبا معه عددا كبيرا من الأسرى لإستخدامهم في عبيد الطرق ورصفها بالحجارة واستخدامهم كفعلة تخدم المغول، وفي تحطيم الاسوار، فضلا عن اتخاذهم كدروع بشرية يتلقون الضربات ألاولى من سكان المدن التي سيحاصرها المغول مستقبلا، ولارعاب سكان مدن بان هذا هو عدد جند المغول لكي يدخلوا الرعب في نفوسهم. وقد

انطلقت القوات الخوارزمية تدافع عن المدينة، وقد قام المغول بوضع خطة لاستدراج الحامية الى كمين نصب لها، فتظاهر المغول بالهزيمة فجرت الحامية وراءهم الى الكمين فوقعت فيه، ويقال ان عدد هؤلاء الجند كان يقرب من ٥٠٠٠٠-٧٠٠٠٠ جندي) ، وكانت هذه خسارة كبيرة بالنسبة لسكان سمرقند المتحصنين في المدينة، وقد طلب اهالي سمرقند الأمان فوافق جنكيز خان على ذلك ودخل المدينة سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، وجمع السلاح الاموال والحيوانات واشعلوا فيها النيران حالها حال بقية المدن الأخرى، كما اخذوا عددا من صناع المدينة الى منغوليا للاستفادة منهم هناك، وبسقوط مدينتي بخارى والسمرقند، اصبح الطريق ممهدا للقوات المغولية لعبور نهر جيحون والتوجه الى خراسان .

توجهت القوات المغولية وعبرت نهر جيحون، ومن جملة وصايا الجيش المغولي ضرورة القبض على خوارزمشاه حيا، فعبرت الجيوش نهر جيحون عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، فوصلت بلخ واستولت عليها وفعلت فيها مثل ما فعلت بغيرها من المدن اما السلطان خوارزمشاه فقد آثر عنده الاصطدام بالجيش المغولي ، وكانت لديه القدرة على الانتصار عليهم لبلوغ تعداد جيشه أكثر من ٣٠٠٠٠ مقاتل، ولكن روح الهزيمة حلت به فأخذ يهرب ،امامهم، كما قام خوارزمشاه بنقل عياله الى احدى قلاع جبال البرز (قارون)، وفد اراد خوارزمشاه التوجه الى العراق لكنه عدل عن هذه الفكرة في نهاية الأمر، وتوجه الى اقليم مازندران تطارده قوات فاخذ المغول من مكان

إلى آخر، وهرب الى احدى جزر قزوين حيث لاقي حتفه ولم يجد اتباعه كفنا له فسبحان الله رب العرش العظيم، لقد ملك بلا

الشرق، وعندما توفي كفنه احد اتباعه بقميصه ودفن بجزيرة سربنجاته

ولما سيطر المغول على كل مدن خراسان حيث سقطت الواحدة تلو الأخرى لم ينسى جنكيزخان مدينة الجرجانية عاصمة الدولة الخوارزمية، فتوجه اليها واحتلها وخربها، بعد أن وضع خطة عسكرية محكمة تحاصرالمنطقة من جميع الجهات تقريبا، ووضعوا خطة لجر المدافعين عن الجرجانية كما فعلوا في خطه سمرقند . وهي التقهقر امام المدافعين وجرهم الى منطقة كمين وقتل، وهذا ماجرى فعلا .

بعد احتلال اقليم خوارزم توجهت القوات المغولية صوب مدينة مرو ونيسابور، ، وعلى الرغم من عقد اتفاق للصلح ابرم مع المغول الا ان المغول سرعان ماكانو ينقضون المواثيق والعهود، وحل بهاتين المدينتين ما حل بغيرها من مدن المشرق الاسلامي . ثم توجهت القوات المغولية الى مدينة هراة فاحتلتها، ثم توجهت الى مدينة غزنة التي لجأ اليها جلال الدين منكبرتي لكن لم تفلح محاولاته في الدفاع عن المنطقة، فأصبح المغول على أبواب الهند الشمالية.

اما جنكيزخان فقد عاد الى منغوليا، وتوفي سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م . وقد قسم املاكه على عادة العرف البدوي المغولي بين ابنائه، وظل منصب الخانية شاغرا لمدة سنتين تقريبا، حتى تمكن المغول من اختيار خان جديد لهم، فاجتمع مجلس القوريلتاي في سنة

٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م، وانتخبوا مكوخان وأعلنوه خانا جديداً لهم. وكان هدف الخان الجديد هو القضاء على جلال الدين منكبرتي الذي حاول ان يعيد تنظيم نفسه من جديد، مستغلا انشغال المغول بتنصيب خان جديد و انسحاب قسم كبير من القادة والجند المغولي الى منغوليا، وقد دخل جلال الدين منكبرتي في صراعات عديدة مع معظم الحكام في خوارزم والسند وخراسان و اذربيجان وآسيا الصغرى ومع الأيوبيين ومع الخليفه العباسي ومع اخوته حيث خانه أحد اخوته أثناء المعركة مع المغول، وكان هذا يقتضي جهوداً جبارة منه، فحارب الجميع والمفروض أن يساعده الجميع ويقفوا معه ضد العدو المشترك والخطير و القوي الا وهم المغول. توجهت قوات مغولية قوية جداً ولاحقت جلال الدين منكبرتي وسيطرت في طريقها واستعادت كل المناطق التي خسرتها أثناء انسحابها إلى منغوليا، وظلت القوات المغولية تحارب جلال الدين منكبرتي حتى قضت على آخر أمل له بالعودة إلى عرش الدولة الخوارزمية . حيث قتل في خلاط على يد احد الأكراد سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م.

و – احتلال المغول للعراق :

بعد القضاء على جلال الدين منكبرتي توجهت القوات المغولية إلى مختلف المدن والقصبات القريبة من العراق ولم تجازف كما ذكرنا ذلك بدخول العراق مباشرة والاشتباك مع الجيش العباسي، وانما سيطرت على كل المناطق المحاددة للعراق من جهاته الشرقية والشمالية، ودخلوا في معارك جانبية هدفها في نظري الاستطلاع بالقوة وجس النبض والتعرف على خطط الجيش العباسي، فقد كتب النصر في هذه المعارك مرة للمغول ومرة للجيش العباسي، وهذا ما حدث سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م عندما وصلت القوات المغولية الى اطراف سامراء، حيث هزمهم الجند العباسي بالقرب من جبال حمرين ، لكن المغول عاودوا الكرة في سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م فهزموا الجيش العباسي قرب ،خانقين وبهذا اصبح الخطر المغولي يدق ابواب الخلافة العباسية في بغداد. كان المفروض بالخليفة العباسي وهو المسؤول الأول عن المسلمين في ذلك الوقت أن يعد العدة الكافية بما يمتلكه من سيادة روحية على جميع المسلمين، فهو المسؤول الأول عن ارواحهم أمام الله سبحانه وتعالى وامام الناس جميعا،وكان بمقدور الخلفاء العباسيين المتأخرين ان ينتبهوا الحقيقة الأمر، عندما رأوا ما فعله المغول بمختلف بلدان العالم الاسلامي فلم يدخل المغول مدينة من المدن الاسلامية الا واحرقوها وقتلوا اهلها ونهبوا خيراتها، فماذا يحدث لو اجتمعت قيادة حكيمة مؤمنة بالله سبحانه لمجابهة هذا العدو المجرم الغادر. كان بمقدور الخلفاء العباسيين لم الشمل وتوحيد الكلمة ورص الصفوف، صحيح ان السلطان الخوارزمي قد عادى الخلافة العباسية ولكن هل كل المسلمين في الشرق الاسلامي عادوا الخليفة العباسي لكي يتركوا ويواجهوا ذلك المصير الاسود الذي لا يستحقونه كل ما فعله الخليفة العباسي والخطر يدق ناقوسه على العراق ان جمع العلماء وافتوا بان الجهاد أفضل من الحج، وتجمعوا تحت قيادة الدواتدار (الدويدار). كما لم يخف على احد الخطر المغولي القادم من الشرق

فبعد مقتل جلال الدين منكبرتي جاء احد الاشخاص الى الملك الاشرف الأيوبي يهنئه بقتل عدوه، فرد عليهم قائلا: ((تهنئوني به وتفرحون .....

سوف ترون غبه ، والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار الى بلاد الاسلام ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين ماجوج.بعد ان اكملت القوات المغولية استعداداتها توجهت الى العراق يقودها هولاكو وقد اعد الخان الأكبر منكوخان كل مستلزمات النصر لأخيه هولاكو الذي توجه الى بغداد مقر الخلافة العباسية، وقد أوصاه قائلا: (واذا فرغت من هذه المهمة، فعليك ان تتوجه الى العراق، وأزل من طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها، وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة، فلا تتعرض له مطلقا، اما اذا تكبر وعصى، فالحقه بالآخرين من الهالكين)) توجه هولاكو نحو المناطق التي من الممكن أن تشكل عائقا أو خطرا في المستقبل على تحركات المغول في المنطقة، فقضى على حلفائهم السابقين وهم الاسماعيلية ودمر قراهم وحصونهم وقلاعهم التي ظلت عاصية على من سبقوهم من الدول، وكذلك فعل مع اللور والاكراد في مناطق شمال العراق، وبهذا تهيأ له الجو لدخول ارض العراق . قبل الحديث عن دخول المغول الى العراق واسقاط الخلافة العباسية ، لابد من التطرق الى أوضاع الخلافة العباسية في العراق وامكاناتها الاقتصادية والعسكرية فنقول ومن الله التوفيق .

توجه هولاكو صوب بغداد وهو يحمل فى نفسه حقدا على الخلافة العباسية التي رفضت ان تمد يد العون له، لمهاجمة قلاع الاسماعيلية في وسط ،خراسان وارسل رسالة فيها من الوعيد والتهديد للخليفة العباسي جاء فيها: ((لابد انه قد وصل الى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على ايدي الجيوش المغولية منذ جنكيز خان و علمت أية مذلة لحقت بامر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والاتابكة وغيرهم ممنكانوا ارباب العظمة ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه اية طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة، فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟... وقد نصحناك قبل هذا... فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق، وتسلم ابنك المملكة، ثم تتوجه لمقابلتنا وان كنت لاتريد ذلك، فارسل الينا الوزير وسليمان شاه والدواتدار، ليوصلوا رسالتنا اليك بغير زيادة أو نقصان... فاذا اردت ان تحفظ رأسك واسرتك، فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء، والا فسارى كيف تكون ارادة الله)). كان رد الخليفة الرفض وارسل رسالة الى هولاكو جاءت بنفس : المضمون من الوعيد والتهديد، نذكر منها أيها الشاب الحدث الذي لم يخبر الأيام بعد، والذي يتنمى قصر العمر، والذي أغرته اقبال الايام ومساعدة الظروف، فتخيل نفسه مسيطرا على العالم... ألا يعلم الامير ان من الشرق الى الغرب ... كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي.... فان كنت مثلي تزرع بذور المحبة، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم.... طريق الود وعد الى خراسان وان كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان لحظة ولاتعتذر ، فان لي الوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة هم على اهبة الاستعداد للقتال)) .. وصلت الأمور الى طريق مسدود بين الخليفة العباسي المستعصم بالله وقائد الجيش المغولي هولاكو ، واستعد كلا الطرفين للحرب، وكان الخليفة يعتقد بمعاونة كل القوى الاسلامية في الشام ومصر من الايوبيين والمماليك، كما كان يعتقد انه

اثناء الهجوم على بغداد ستتمرد كل القوى الإسلامية في المشرق الإسلامي، وقد أخطأ الخليفة بذلك التقدير، فكان كل من المماليك والايوبيين مشغولين بمشاكلهم الخاصة، أما الحكام المسلمين في المشرق، فقد أذهلهم الغزو المغولي وما ارتكبه المغول بحقهم من مجازر ، فانشغلوا عن مساندة الخلافة بل قدم البعض منهم الدعم المالي والعسكري والبشري للمغول تقدمت القوات المغولية من عدة جهات لمحاصرة بغداد، فقسم سلك طريق اربيل الموصل تكريت وقسم توجه إلى العراق عبر طريق السليمانية كركوك بغداد، وقسم انطلق من منطقة الاحواز، اما هولاكو فقد انطلق من همدان باتجاه خانقين بعقوبة بغداد وحوصرت بغداد من كل الجهات، وبدأ التقدم المغولي صوب بغداد التي ما لبث أن اندحر جيشها امام ضربات المغول، واستسلم الخليفة العباسي المستعصم بالله للمغول، وقد امنه المغول، ولكن أي امان للمغول امانات بخارى ام امانات سمرقند فامره هولاكو باخراج خزائنه وكانت مالا عظيما، ادهشت كل من رآها، واستبيحت بغداد اربعين يوما فلم يبق فيها مسجد ولا دار ولا شجرة واضرمت فيها النيران كعادة المغول في كل مدينة احتلوها، والقيت امانات الكتب في دجلة حتى ليقال ان ماء النهر أصبح بلون الحبر من كثرة .. القي فيها من كتب ومخطوطات. وبذلك زال مشعل العلم الذي تحمله المدينه وانتقلت مراكز العلم الى بلاد الشام ومصر، كما خسرت بغداد باحتلال المغول ما يقرب ٠٠٠ ٨٠٠ نسمة من خيرة اهلها من الرجال والنساء والعلماء والادباء، ونهبت القصور والمآذن وتأذت مراقد الائما الكرام ونهب مرقد الامام موسى الكاظم رضي الله عنه اما الخليفة العباسي فقد القي في خرارة (كيس) ورفس حتى مات. وبعد سقوط بغداد توافد على هولاكو عدد من حكام المناطق لإعلان الولاء لهولاكو، وقد تملق قسم منهم تملقا يعبر عن وضاعة بعض هؤلاء الحكام، فقد قام احد سلاجقة الروم برسم نعل طبع عليه صورته، وجاء به إلى هولاكو وقال له: ((عبدك يأمل ان يتشرف الملك فيشرف رأس عبده . بوضع قدمه المباركة عليها فرق له قلب الطاغية هولاكو، ورفعت دوقوز خاتون – زوجة هولاكو من ،قدره وتشفعت فيه فعفا عنه الايلخان)) ولاشك ان ذلك الموقف المخزي يصور لنا الحد الذي بلغه بعض الحكام المسلمين من الاستذلال والمهانة.

ز – اسباب فشل الخلافة العباسية في مواجهة المغول :

ان الباحث في تاريخ اسباب فشل الخلافة العباسية في مواجهة المغول، لا يمكن ان يدرك كل اسباب ذلك الفشل، ولكن يجتهد عله يصل إلى بعض الحقائق ومنها:

١ كانت الخلافة العباسية قبل حملة هولاكو، قد تعرضت الى الكثير من عوامل الضعف والانهيار بسبب سيطرة العناصر المتغلبة عليها من فرس وترك وبويهيين وسلاجقة، وما تفرع عن هذه الاتجاهات من دول وممالك وامارات، بحيث انه لم يعد يملك الخليفة العباسي غير السيادة الروحية فقط ، وقطعت عن الخلافة كل الأموال التي كانت ترسل الى بغداد لتمشية أمور الدولة العباسية، وما يتوجب عليها من التزامات اهمها اعداد جيش قوي، يدافع عن الدولة العباسية، فحتى الخليفة العباسي اصبح عاجزا عن حماية نفسه، فكيف يطلب ممن لا يستطيع الدفاع عن نفسه ان يدافع عن الدولة وسكانها . وسيطر المتغلبون على ممتلكات الدولة العباسية، وطالب قسم منهم الخليفة ببيع انقاض داره، وطالب آخرون الخليفة ببيع ملابسه وخزائنه، لابل طالبه البعض ببيع حلي نسائه

٢- ولنا أن نتصور ارض الخلافة قبيل الغزو المغولى تمتد من تكريت شمالا إلى البصرة جنوبا ومن ثم تمتد الى منطقة الاحواز، ومن خانقين شرقا الى نهاية حدود الانبار غربا، فتصور اخي امكانية هذه الدولة الاقتصادية، فكلما قويت الدولة اقتصاديا ووجد لها رئيس جيد بعيد النظر، اعد جيشا قويا مدربا على الأقل يستطيع الدفاع عن حدود الدولة صحيح، أن الدولة صغيرة ولكن يمكن لهذا الجيش ان يوقف تقدم الاعداء على الاقل او يعرقل تقدمهم فترة من الزمن

٣- وكان الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء ٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢- ١٢٥٨م ((لين الجانب سهل العريكة، سهل الاخلاق، ضعيف الوطأة مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بشؤون المملكة، مطموعا فيه غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه ينقضي بسماع الاغاني، والتفرج على المساخرة، وفي بعض الاوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة، وكان اصحابه مسئولين عليه، وكلهم جهال من أرذال العوام)). وفي احرج الاوقات والمغول على ابواب العراق كتب الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، يطلب منه جماعة من ذوي الطرب، وفي نفس الوقت دخل مبعوث هولاكو الى بدر الدين لؤلؤ، يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار الحصار ،بغداد، فقال بدر الدين: ((انظروا الى المطلوبين وابكوا على الإسلام وأهله)) . وقد وصف الخليفة المستعصم بالله أن كان شديد البخل، يكنز الأموال، ويقيم وزناً كبيراً للدينار والدرهم، ولا يصرف الأموال في شؤون الدفاع واعداد الجيش لكي يشجع الجنود ويحثهم على مواجهة الاعداء، وقد استمر هذا العيب لاصقا به حتى في احرج الأوقات .

٤- عند اقتراب المغول الى حدود العراق، لم يتخذ الخليفة المستعصم بالله أي اجراء، لمواجهتهم قبل ان يستفحل خطرهم، أو على الاقل يداهنهم او يصانعهم، كما صنع غيره من امراء الولايات، وعندما كان يقال له: ان المغول على أبواب العراق، كان يرد عليهم انا بغداد تكفيني، ولا يستكثرونها لي، اذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا ايضا يهجمون علي وانا بها، وهي بيتي ودار مقامي)) . وقد وصفه احد المؤرخين فقال: كان متدينا متمسكا بمذهب اهل السنة والجماعة، على ما كان عليه والده وجده، ولم يكن على ما كانوا عليه من التيقظ والهمة، بل كان قليل المعرفة والتدبير و التيقظ نازل الهمة محبا للمال، مهملا للامور يتكل فيها على غيره)) .

٥- رغم ان الخليفة المستعصم بالله كان ضعيف الرأي، قليل العزم، كثير الغفلة عما يجب لتدبير الدول، كان يظن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام الخطر المغولي، فخالف بذلك السياسة التي سار عليها اسلافه من قبل مثل تعاملهم مع البويهيين والسلاجقة وغيرهم، اذ كانت القاعدة عند هؤلاء الخلفاء ان يقبلوا الى جانبهم امير الأمراء البويهي ، او السلطان السلجوقي، وكان الخليفة حين يستسلم يتمسك بوظائفه الروحية، ويترقب الأوضاع العامة، فكلما سنحت له الفرصة لتحسين وضعه استغلها احسن استغلال لصالح الخلافة، وعمل على انهاء ذلك التدخل، بينما الخليفة المستعصم تمسك باشياء جوفاء في هذا الوقت بالذات فكتب جوابا لهولاكو جاء فيه: (ان) كل ملك قصد اسرة العباسيين ودار السلام، صارت عاقبته وخيمة، ومهما قصدها الملوك ذوو الصلابة واصحاب الشوكة، فأن بناء هذه الأسرة محكم للغاية، وسوف يدوم الى يوم القيامة))

٦- لم يكن زمام الأمور في بغداد بيد واحدة مخلصة قوية تدير البلد وقت الشدة، بل كان في ايدي غير متعاونة ومتجانسة ولاتهمهم الا مصالحهم الخاصة اما مصلحة الدولة والناس، فليس لهم غرض فيها، وقد انتقلت هذه الخصومات الى التحاسد والتباغض وتدبير المؤامرات وتسفيه آراء الغير عند الخليفة وانتقاص قدره ورأيه، والخليفة ليس له القدرة على التمييز، أو وضع حد لهذا التصرف أو ذلك. وانتقلت هذا الحالة الى الوزير وقائد الجيش حيث اخذ كل منهما يدبر المؤامرات للآخر، واطلع الخليفة على محاولة لخلعه، لكنه غفا عن فاعلها وأمر بان يذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة وهكذا اصبحت الخلافة في وضع لاتحسد عليه، وانتقل هذا الصراع الى عامة الناس فقبيل هجو المغول على بغداد حدثت فتن راح ضحيتها الابرياء من الناس في لحياء بغداد المختلفة ورؤوس الفتنة تدير الامور من وراء جدر ٧ كانت للعوامل الاقتصادية وسوء معاملة الفلاحين وهم عماد اقتص الدولة العباسية، اثر مهم في اضعاف تلك الدولة، كما لعبت سو الجباية وتقدير الضرائب وطريقة جمعها أثر في احداث اضراً اقتصادية اثرت على الناتج بشكل عام، كما اثرت الفتن المختلفة على الطبقة العاملة الزراعية اذ اهلكتها الحروب، فتركت الاراضي بدو رعاية وقل الانتاج الزراعي، ومن ثم نقصت واردات الدوله العباسية .

آثار سقوط بغداد :

أما آثار سقوط بغداد فكانت عظيمة على المسلمين في المشرق والمغرب اذ ظلت بغداد مركزا للحضارة و للإشعاع العلمي طيلة خمسة قرون فضلا عن كونها مركزا الخلافة العباسي ومستقر آل بين العباس من أتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ويمكن أن نجملها بنقاط التالي :

١.كان المسلمون يتطلعون إلى الخلاف على أنها رمز الممالك الإسلامية جميعها، يجب أن يظل قائما وكانوا ينظرون إلى الخليفة نظرة إجلال وإكبار لما له من نفوذ ديني على جميع المسلمين على الرغم من فقدان الخلاف العباسي منذ فترة طويلة إمكاناتها المادية لكن ظلت تتمتع بمكانتها الدينية والروحية وكذلك بغداد مقر خلاف العباسي.

٢. كانت بغداد قبل الغزو المغولي مركز للنشاط السياسي في جميع أنحاء الشرق الإسلامي يؤمها وفود المسلمون من مختلف أقطار العالم الإسلامي وهي الرابطة بين مختلف أرجاء العالم الإسلامي وهي موطن حل المشاكل التي تعترض قادة العالم الإسلامي في ذلك الوقت ففقدت بغداد بالاحتلال المغولي هذه المكانة السياسية وحلت محلها مراكز أخرى في مصر وشمال أفريقيا وأذربيجان كما انخفض عدد سكانها بعد الاحتلال المغولي إلى العشرة مع ما يترتب على هذه الأوضاع من حصار الأعمال تجارية ونشاطات المتعلقة بها.

٣.كانت بغداد مركز للنشاط العلمي لمدة تجاوزت الخمسة قرون وأصبحت في حكم هذه المدة مركزا وموئلا للعلماء والمدونات العلمية وكان أساتذتها قادة لرجال العلم في عموم العالم الإسلامي وقد صاحب الغزو المغولي

قطر عدد كبير للعلماء والأدباء والشعراء وأحرقه معظم المكتبات وأصبحت المخطوطات وقود لجنود المغول يطبخون عليها طعامهم كما انحسرت مكانت اللغة العربية فبعد أن كانت هي اللغة الأساسية في العلم والإدارة انحسر نفوذها إلى العلوم الشرعية فقط وحلت محلها في المشرق اللغة الفارسية التي أصبحت لغة الإدارة والحكم.

٤.اثار سقوط بغداد على يد المغول فرحا شديد لدى المسيحيين في عموم آسيا وهللوا لهولاكوا وزوجته المسيحية دوقوز خاتون واعتبروهما قسطنطين وهيلينا وإن هما ليس إلا ادوات الله للانتقام من عداء المسيح .

٥.خلو العالم الإسلامي من قائد روحي بمقتل الخليفة المستعصم بالله فما حصل من استئصال الأسرة العباسية والتدمير العاصمة بغداد جعلت زعامة العالم الإسلامي شاغرة يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين فلما تولى الظاهر بيبرس عرش مصر بحث عن أحد بقاية الأسرة العباسية ونصبه خليفة المسلمين ونقل مركز الخلافة إلى مصر .

٦.أثار سقوط بغداد الحزن العميق والأشجان في طول العالم الإسلامي وعرضة و بدأ هذا واضحا في أقوال الشعراء والأدباء نقتطف منا

عندي لأجل فراقكمآلام فالأم وأعذل فيكم والأم

يادارأين الساكنين وأين ذ ياكالبهاءوذلك الاعظام

ح . معركة عين جالوت (اسبابها ونتائجها وآثارها)

بعد استكمال احتلال العراق من قبل هولاكو وبعد أن تم القضاء على العناصر التي تمردت على المغول في بعض مناطق العراق (تمرد أربيل) و (تمرد الموصل) وبعد أن تم القضاء على هذين التمرد ين بقسوة متناهية ورغم دفاع الأكراد وأهل الموصل المستميت إلا إن كلا المدينتين قد تعرضت للتدمير على يد المغول.

توجه المغول إلى بلاد الجزيرة الفراتية واحتلوا مدنها الواحد تلو الاخرى وقد عاونهم في ذلك ملك أرمينيا هيثوموملك أنطاكيا صهر هيثوموبارك بطريرك الأرمن هذا الاتفاق وشارك الأرمن و الأفرنج المغول بكل ما يملكون من قوة وقدرة وطاقة بعد اوعدهم المغول أن يعيدوا إليهم بيت المقدس وما يمكن أن يرجعه إليهم والمغول جزاء ذلك التعاون ولم يكن في الشام قدرة على مواجهة المغول لتفتت الجبهة الداخلية والانهيار النفسي الذي أحدثته انتصار المغول على كل من وقف بوجههم فسقطت ميافارقين وديار بكر وحلب وحمص وغيرها من القلاع والحصون في بلاد الشام وقد لاقت كل المدن التي وقعت بيد المغول نفس المصير من قتل وأسر وتدمير وحرق سواء المدن التي استسلمت صلحا أو واحتلت عنوة وما جرى في حلب أو دمشق أو ديار بكر لا يختلف

عما لقدته مدينة بخارة أو بغداد أو سمرقند أو الراي أون نيسابور. وبعد السيطرة على بلاد الشام قرر هولاكو مهاجمة فلسطين وبلاد مصر وقد كتب رسالة شديدة اللهجة إلى الملك المظفر قطز جاء: ((فيها يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته إننا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه وصلتنا على من حل به غضبه فلكم جميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر و أسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود إليكم الخطأ فنحنو ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى وقد سمعتم إن أنا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب فأي أرض تقوي كم وأي طريق تنجيكم وأي بلاد....)) .

بعد وصول هذه الرسالة إلى الملك المظفر قطز جمع قادة الجيش وسائر الأمراء،واستجلى آرائهم فقسم أراد الاستلام وقسم فضل الهرب أما القسم الأقل فقد أصر على المواجهة وضرورة حرب المغول ،وأن أهل مصر قد قدموا للممالك كل شيء فعلي المماليك أن يريد الجميل المصريين والمسلمين الذين هم جزء منهم ويقفوا بوجه المغول وقفة مشرفة يذكرها التاريخ على مر العصور وقام قطز يطلب آراء الفقهاء والعلماء ودعا المماليك إلى تبرعوا بدأ بنفسه وطلب معونة الناس في أتبرع بما يمكن أن يقدموه لدعم الجيش المصري فلما تكاملت لديه جيوش سارة عن مصر مفضلة للقاء العدو خارج أرض مصر منطلقة منقول الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه :((ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا)) كما قام بقتل أرسله هولاكوا قطعا لأي أمل في الصلح وعلقوا على أبواب القاهرة .

اما في منغوليا فقد مات منكوخان واضطرا هولاكو إلى الرجوع إلى منغوليا الانتخاب خان جديد وعهد بقيادة الجيش المغولي إلى كتبغا الذي تقدم لملاقاة الجيش المصري وكان قطز هيأ كل مستلزمات النصر من محاولة استطلاع خطط المغول وتعبئتهم العسكري وهذا ما لم يتم من قبل إذ اكتفى الحكام بالتحصن وراء الأسوار تحصينها وهذا هو الخطأ الذي أوقعوا أنفسهم فيه حيث حاصروا أنفسهم والمغول لديهم القدرة على المطاولة في الحصار فلم تصعب عليهم قلاع الإسماعيلية التي عجزت أقوى دول في ذلك الوقت من دك أسوارها .

معركة عينجالوت:

معركة عين جالوت من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي، وظلت تذكرها الاجيال على مر العصور الى ان يرث الله الارض ومن عليها، ولغرض تسهيل الموضوع على الطلبة سوف نتناول هذه المعركة من حيث اسبابها ونتائجها وآثارها .

اسباب المعركة :

١. كان للتحدي المغولي ومحاولة احتلال بلاد الشام ومصر سببا مباشرا لحدوث هذه المعركة.

٢. رسالة التهديد التي ارسلها هولاكو الى السلطان المظفر قطز

٣. حدوث تعاون بعض الامارات الارمنية والصليبية مع المغول مما كان له اثر مباشر ومهم لقيام تحد من نوع آخر خوفا من استفحال امره او حدوث تحالفات اخرى قد تنهي الوجود السياسي الإسلامي في المنطقة.

٤. قطع الطريق امام المتخاذلين من قادة الجيش المصري، ووضعهم في المكان الصحيح لهم وهو القتال الذي وجدوا من اجله، وهو الدفاع عن ٥- ديار الاسلام

٥ وضع حد بعمل عسكري كبير ضد المغول لكي يوقفهم عند حدهم، بعد ان اعتقدوا ان قوتهم لاتقهر ، وانهم غضب من الله مسلط على الناس، وخاصة المسلمين الذين عليهم بقبول هذا الواقع المر.

٦. اظهار دعوة الجهاد لدى المسلمين بعد ان خفت بهاؤها منذ زمن طويل، ووضع المسلمين امام واجبهم ، وجعل الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة فكيف يرضىالمسلمون بالمهانة والمذلة واساب النصر موجودة والقيادة موجودة والمال للجهاد مبذول

٧. صعب على بعض قادة الجيش المملوكي رؤية مصر خاضعة للمغول الكفرة

ادرك قطز انه الوقت المناسب لضرب المغول، بعد رحيل هولاكو الى منغوليا، وانفضاض عرى التحالف الصليبي المغولي في الشام، بعد قيام المغول بتدمير ونهب وحرق مدينة صيدا وقتل كل من وجدوه من الصليبيين فيها وساقوا من نجا من القتل اسرى، ليجعلوهم دروع بشرياً امام الجيش المصري لتقع عليهم الصدمة الأولى في القتال.

توجه الجيش المصري الى بلاد الشام وفي الطريق نكص عدد من قادة المماليك، فجمعهم السلطان قطز وخطب فيهم خطبة مؤثرة، وضعته امام واجبهم وامام مسؤولياتهم امام الناس وامام الله: ((يا أمرا المسلمين!... لكم زمان تأكلون من بيت المال وانتم للغزاة كارهون، وان متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك، يرجع الى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطب حريم المسلمين في رقاد المتأخرين))

وقد سار الجيش المصري مع الساحل بعد ان تم الاتفاق م الامارات الصليبية بعدم التعرض للجيش المصري، وتزويده بالمؤر والمواد الأخرى، وبهذا ضمن السلطان قطز مسيرة جيشه في منطقة امين من مباغتة المغول، مع تمتعهم بالامن في هذه المنطقة وعدم سلوكهم طريق الصحراء.

نظم السلطان قطز جيشه وقسمه تقسيم يدل على خبرة عسكر متميزة وجعل على مقدمته بيبرس البندقداري وامره بعدم القيام باي عسكري دون اخذ رأيه ودون مشورته، لأن النتيجة قد تكون عكسية على معنويات الجيش المصري، وربما تؤدي به الى الانهيار النفسي الذي يحدث قبل وقوع المعركة الرئيسية مع المغول، مثلما حدث مع كل الجيوش التي حارت المغول من قبل .

تقدم بيبرس البندقداري باتجاه مدينة غزة التي كان قد احتلها القائد المغولي (بايدر)، واشتبك مع الجيش المغولي وهزمه شر هزيمة، حتى اضطره الى الالتجاء الى نهر العاصي شمال الشام، وقد افاد بيبرس البندقداري من موقف القوات الصليبية التي لم تثق بالمغول، لما فعلوه في صيدا من نهب وقتل وتدمير .

لقد جن جنون القائد المغولي كتبغاً، وصار قطعة من اللهب بسبب الغيرة والغضب، وتقدم يقود قواته بعد سماعه بهزيمة بايدر، وعقد مجلسا استشاريا لكبار القادة المغول، فأشار البعض منهم إلى عدم لقاء الجيش المصري، وأن عليهم الانتظار حتى يأتيهم المدد من هولاكو، لكن كتبغا رفض هذا الرأي واندفع تسوقه كبرياؤه، وقوة المغول التي لم تقهر من قبل ، فاتخذ طريق بعلبك سالكا طريق الجليل وادي الاردن، الا انه فوجيء بثورة اهل دمشق عليه، فعاد لإخمادها مما أخر تقدمه الى عين جالوت .

اما السلطان قطز ، فلم يدع فرصة إلا واستخدمها لصالح النصر على المغول، فكتب إلى كل الأمراء المتعاطفين مع المغول مكرهين أو ،مختارين، ودعاهم للانضمام إلى الجبهة الإسلامية، أو على الأقل الانسحاب من ساحة المعركة في احرج الظروف، أو تقديم العون العسكري والاستخباري للجيش المصري عن تحركات المغول واستعداداتهم العسكرية وخططهم ان كان ذلك ممكنا، وقد قدم له البعض من أمراء الشام ماطلبه منهم، انطلاقا من مبدأ الأخوة الإسلامية والنصح للمسلمين .

اتوجه السلطان قطز الى غور ،الاردن، جاعلا على مقدمته الأمير بيبرس البندقداري، حيث اشتبك مع مقدمة الجيش المغولي، وكان السلطان قطز قد اعد الخطة لإجبار المغول على القتال فيها، كما كان دائما بحث جنوده على نصرة دين الله وعليهم بالقتال حتى لا يحل بهم ما حل بالبلاد الإسلامية التي لم تقاتل المغول، وما أصابها من مصائب وويلات جراء التقاعس عن حرب المغول.

اشتبك بيبرس البندقداري مع مقدمة المغول، وكتب الى الملك المظفر قطز يعلمه بانه اشتبك مع المغول، وعليه أن يسرع للحاق به وتطبيق الخطة الموضوعة، وهي الانهزام أمام المغول في بداية المعركة، حتى يلحق بهم المغول، ليقعوا بعد ذلك في الكمائن التي اعدت لهم، وهذا ما تم فعلا، ففي بداية المعركة انهزمت المقدمة المصرية، فلحقها المغول وكانت تحيط بالمنطقة من بعض الجهات، واندفع كتبغا بكل قواته لإحداث الصدمة بالجيش المصري، والحاق المنهزمين، فخرجت عليه الكمائن وأحاطت به من جميع الجهات، وكان السلطان قطز مع جنده يحثهم ويشجعهم ويمنيهم، حتى تم النصر بعون الله تعالى، وقد ابيد الجيش المغولي والقوات الارمنية المتحالفة معه، وكان هذا اليوم وهو الخامس عشر من رمضان من سنة ٦٥٨هـ / ١٣ ايلول ١٢٦٠م. ولحقت القوات المصرية بالمنهزمين من المغول، ومن اعانهم على المسلمين وقد وقع قائد الجيش المغولي اسيرا في ساحة المعركة ثم اعدم بعد ذلك.

ج –نتائج معركة عينجالوت وآثرها على الوضع العام :

كانت لهذه المعركة العظيمة، واسمحوا لي ان اسميها عظيمة، فهي عظيمة في مدلولها ووقائعها وآثارها على عموم المنطقة ويمكن ان نجمل نتائجها وآثارها بما يعيننا الله عليه، فنقول ومن الله التوفيق:

١– اعادت هذه المعركة الثقة إلى نفوس المسلمين، فرغم أن المغول قد جمعوا قواتهم مرة ثانية قرب بيسان الا ان الهزيمة حلت بهم مرة ثانية، وشجعت الخائفين الذين كانوا مترددين أو خائفين من المغول على التمرد عليهم. كما حطمت الاسطورة القديمة بان جيش المغول لا يقهر

٢– قام السلطان قطز بإرسال البشارة إلى اهالي دمشق بالنصر على المغول، فهرب من كان بها من المغول وتعقبهم الناس وقتلوهم شر قتلة، وقام السلطان قطز وسكان دمشق بقتل كل من وقف الى جانب المغول اعداء الانسانية ولقنوا من تعاون معهم من اهل الشام عامة ودمشق خاصة ما يستحقونه من عقاب الخيانة، ومعاونة الاعداء المغول

٣– أكدت هذه المعركة قوة وقدرة المسلمين اذا ما توحدوا ورفعوا شعار لا اله الا الله محمد رسول الله وكلما ازداد ايمان المسلم بالله . واخذ بالأسباب نصره الله نصرا مؤزرا.

٤. شكلت هذه المعركة سدا منيعا امام المغول للتقدم غربا صوب مصر وبذلك نجت الديار المصرية والاراضي الواقعة خلفها من الدمار والتخريب وهي تعد صدمة عنيفة للمغول ،وذلك لقتل خيرة قوادهم في هذه المعركة بحيث اصبح المغول يحسبون الف حساب قبل القدوم على خطوة اخرى لغزو مصر او بلاد الشام

٥– جاءت هذه المعركة بنتيجة عكسية، فلو انتصر المغول لقضي على البقية الباقية من دول الاسلام في الشام ومصر ، ولتحالفت القوى المعادية للإسلام مع المغول ، يقول :رنسيمان: ((ما احرزه المماليك من انتصار، أنقذ

الإسلام من اخطر تهديد تعرض له، فلو ان المغول . ٩ توغلوا الى داخل مصر، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب))

٦ـأعادت هذه المعركة الوحدة إلى بلاد الشام ومصر، وعادت هذه البلاد إلى عصر نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، وازالت نتائج هذه المعركة كل المتعاونين من بقايا البيت الايوبي من الذين كانت تهمهم مصالحهم الخاصة أكثر من مصالح المسلمين.

٧. علمت هذه المعركة المسلمين أهمية التآزر ولم الشمل، ولم تقف نتائج هذه المعركة على المسلمين بل تعدتها الي أوربا ،واعتراف المؤرخون الاوربيون بأهميتها قبل ، غيرهم حيث وقفت هذه المعركة بوجه المغول، ومنعتهم من غزو أوربا وتدميرها وبذلك نجت أوربا من الدمار الذي أصاب العالم الإسلامي بفضل المسلمين

٨. بعثت هذه المعركة الهمة في نفوس المسلمين في خراسان التي كانت خاضعة للحكم المغولي المباشر ، فقوي مركزهم، واخذوا ينافسون من وقف مع المغول ويريحوهم عن أماكنهم ، وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الإسلام حتى تحولوا إليه

٩. و توطدت العلاقات بين مسلمي القبجاق مغول القبيلة الذهبية) وبين مماليك مصر، وتحالفوا ضد مغول العراق وإيران بزعامة هولاكو وخلفاؤه

١٠. أسفرت هذه المعركة عن فشل ذريع لسياسة الصليبيين في بلاد الشام، ومنحت قوة أمصر في زعامة العالم الإسلامي، وتحرير بلاد الشام من بقايا الصايبيين فيه .

١١– تجنبت مصر بهذه المعركة التدمير والخراب والنهب والسلب والتأخر الذي أصاب بقية البلاد التي سيطر عليها المغول ، مما جعلها تحمل مشعل الحضارة فترة أخرى من الزمن، وتكون ملجأ للمسلمين في الشرق والغرب. وختاما عدت هذه المعركة من أهم المعارك، وهي لاتقل في أهميتها عن المعارك المصيرية الكبرى، فحري بنا أن نتلمس منها الدروس.

١٢. أعطت هذه المعركة لكيان المماليك السياسي الشرعية في حكم البلاد الواقعة تحت سيطرتهم، بحيث أصبح المماليك هم المدافعين عن الإسلام وأهله، كما نقل المماليك الخلافة العباسية إلى مصر، وأصبحوا في نظر الناس هم حماة الدين الإسلامي والذين ينفذون سياسة الخليفة العباسي في العالم الإسلامي

١٣. وضعت المعركة المغول امام قوة فتية لم يألفها المغول من قبل في البلاد التي سيطروا عليها في مشرق العالم الإسلامي، وأصبح على المغول أن يعيدوا حساباتهم من جديد تجاه خصم عنيد هم المماليك

الفصل السادس

العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد على يد المغولتعرض العالم الاسلامي بعد سقوط بغداد الى صدمة كبيرة، نتيجة الغزو المغولي الذي أودى بالخلافة العباسية، وأودى بحياة ملايين البشر كر أن لم اكن مخطنا في الحساب في ذلك الوقت، وقد تزامن هذا برد الهجمي مع غزو منظم من نوع آخر ألا وهو الغزو الصليبي الذي من الغزو المغولي بفترة من الزمن، ولغرض تسهيل الموضوع فوف توله من ثلاث محاور هي :

١_ أوضاع العراق

٢ – أوضاع بلاد الشام ومصر

اوضاع بلاد المشرق الاسلامي

١– اوضاع العراق بعد الغزو المغولي : تعرض العراق اثناء الغزو المغولي لي تدمير شامل شمل كل المؤسسات العلمية والادارية والعمرانية، فدمرت الأسوار والخنادق رسويت بالارض بأمر مباشر من المغول، كما قدمت المساجد والجوامع اصبحت مرابط الخيول المغول والقيت الكتب والمصاحف في الشوارع والمزابل والقيت بعضها في نهر دجلة، لكون ان اهم المؤسسات العلمية الربط والتكايا والجوامع كانت بقرب نهر دجلة، كما أن الكثير من ساجد كانت تقع على جداول فرعية لنهر دجلة وفروع نهر الفرات كانت هذه الانهار والجداول تصب في نهر دجلة جميعها لما قصور الخلافة ومقر الدواوين فقد أحرقها المغول بالكامل، وجرى لسكان بغداد مذبحة عظيمة لم ينج منها الا من اختفى في المقابر أو الخرائب في اطراف بغداد هذه هي حقيقة ما جرى ولا نغالي أن تكون غير منصفين في وصف التمار الذي حل بالعراق فما ذكرناه هو بعض ما وصل البناء نقله الينا من بقي على قيد الحياة، وما نقله لنا لم يشاهده بأم عينيه، بل ما راء بعد الدمار آثار القتل والحرق والتدمير . من جاء المغول إلى العراق وهم لا يفقهون شيئا من أمر الحضارة، فليست لهم قصور او دور وليست لهم نظم معينة في الحياة سواء بالملبس أو المشرب أو الحديث، فهم همج كالبهائم، لا يعرفون لغة أهل البلاد ولا نظمها أو تشريعاتها، أو الإدارة أو الدواوين فانظر بالخي الطالب كيف يمكن التعامل مع هؤلاء البشر، الذين لا يعرفون أي نظام او انضباط، أو طريقة حياة نظامية، أو زراعة أو صناعة أو تجارة ولا يعرفون أي شيء سوى القتل والتدمير، ولنتذكر ماقاله احد الناجين من مذبحة مدينة بخارى حينما سئل عن المغول فقال: أتوا فقتلوا ونهبوا وحرقوا ثم ذهبوا واجهت المغول بعد احتلال العراق مشكلة كبيرة وهي كيفية الحصول على موارد من هذا البلد الذي دمروه ولم يبقوا فيه شيئا يمك الافادة منه، فلا ادارة بقيت ولا سجلات ولا دواوين ولا موظفين لهم خبرة بامور الزراعة أو الصناعة أو النقد أو غير ذلك، جاؤوا الى بلد عريق بالحضارة له نظمه ومؤسساته الادارية والعلمية وله اسلوب في التعاملوالحياة والزراعة والري فكيف يتعاملون معه ؟!. كان المغول قد اصطحبوا معهم

عدد من العناصر العلمية والادارية التي فروها في بلاد المشرق الاسلامي، وكان قسم منهم من المسلمين الذين يعرفون شرائع البلاد ونظمها وعادات سكانها بحكم العلاقة الديني بين الاثنين، فاستطاع هؤلاء مع عدد ممن بقي على قيد الحياة أو ممن استقدم من أرجاء العراق التي لم تتعرض لما اصاب بغداد مقر الخلافة المنيا، قاموا بلم شمل المؤسسات الادارية والعلمية في بغداد على وجه الخصوص. ترك هولاكو حامية عسكرية في العراق يديرها شحنة مغولي لتكون على امة الاستعداد لأي طارىء يحدث في العراق، وعين عند من الاداريين من بينهم ابن العلقمي وزير الخليفة المستعصم بالله الذي لم يقتله المغول من بين كل المناصر البارزة في الدولة العباسية، وهو ما يثير أحمد بن الشكوك في ولائه للخليفة العباسي المستعصم بالله لا كيف ابقاء المغول وهو وزير، في حين قتلوا كل بالغ او جندي او اداري او طفل أو امرأة التقوا بها أو هجموا على دارها وكذلك فخر الدين الدامغاني صاحب ديوان اليفة وهو كسابقه ايضا كما استعان المغول ببعض العناصر الادارية ممن لهم خبرة بأمور العراق ومنهم نجم الدين عمران وهو من أهل بأجرا فعيله هولاكو بمنصب صدر الاعمال الشرقية وناج الدين علي بن الدوامي حاجب الباب في عهد الخليفة، بمنصب صدر الأعمال الفراتية وعين عبد المنعم البند نيجي على القضاء. كما قلم المغول الكثير من الادارات، وقسموا العراق على خمسة اقسام ادارية عن على كل منها صدر وعدد من الموظفين ادى الاحتلال المغولي للعراق الى الغاء الكثير من المناصب الادارية والسبب واضح وهو أن الاحتلال المغولي قد الفى منصب العلاقة، وقتل الخليفة العباسي، والغى النظم الادارية والقانونية للدولة الشريعة الإسلامية النسي مصدر التشريع الاساس منظم بائدة متخلفة العباسية في العراق ككل ولم يصبح الاسلام دين الدولة الرسمي، والذات تحكمها قوانين الباسا المضحكة، فالغيت دواوين عديدة مثل ديوان الزمام والانشاء والجوالي وعرض الجيش والتركات والابنية والحسبة والعقار والاوقاف والمقاطعات، وكل من هذه الدواوين له رئيس يديره يتبعه عدد من الموظفين في حين لم نسمع عن مثل هذه الدواوين في العيد الايلخاني)، وظلت بعض الدواوين باقية تحت ادارة الوزير ابن العلقمي وابنه حتى عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م، حيثما غير المغول طريقة ادارة العراق، فعهد بادارته الى علاء الدين عطاء ملك الجويني، الذي أصبح رئيس الديوان في العراق، بينما شغل أخوه شمس الدين الجويني رئاسة ديوان الدولة الايلخانية، وقد ظل علاء الدين يلي ديوان العراق لمدة اثنين وعشرين سنة وبضعة أشهر، ويتولى امر متحصلات البلاد دخله وخرجها واليه يرجع امر كل ذي قلم ومنصب شرعي، وله التصرف المطلق في الولاية والعزل والعطاء والمنع لا يشاور السلطان الا في جل الامور . واصبح صاحب الديوان يتولى تعيين الصدور والقضاة وكبار الكتاب والنظر في أمور الحج ومفاوضة الاعراب الذين يقع منازلهم في طريق الحج وامتازت فترة تولي عطاء ملك الجويني باستقزار وهدو نسبي لما كان يتمتع به هذا الرجل من قوة شخصية وتأثير على العراق بينما نجد كثرة تغير اصحاب الديوان بعد وفاته (٣) ففي من ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م عين سعد الدولة اليهودي صاحب ديوان الممالك اخ فخر الدولة اليهودي على ديوان

العراق. وكثر تغير اصحاب الديوان به هذا التاريخ وتغيرت صلاحيات البعض منهم " ولم يستطع الايلخانيون تجاوز نظام الادارة في أواخر العص العباسي، وذلك بحكم ما اعتاد عليه الناس وتعارفوا بموجبه وجرت على احكامهم، فلا يمكن المسلم أن يذبح الحيوان وفق طريقة المغول الهمجية والمتخلفة ولا يمكن للمسلم إذا عطش أن يشرب دم دابته كما كان يفعل المغول، أو يتزوج وفق تقاليد وثنية، أو يقسم أرته وفق طريقة المغول، الأئمة بعد والسلم لديه القرآن الكريم وسنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وفقه . ذلك، ولا يمكن للمسلم أن يتعامل بالربا أو ما يمس جوهر العقيدة الاسلامية، ولهذا كان لابد من الرجوع الى وظيفة قاضي القضاة والمحتسب وصاحب الشرطة وكاتب السلة وغيرها من الوظائف التي كانت قائمة في أواخر العصر العباسي).وقد قسم العراق الى ثلاثة ولايات هي :

١- ولاية بلاد الجبل وفيه مدينة شهرزور .

٢- الجزيرة الفراتية وفيها الموصل وسنجار و العمادية واربيل

٣ - العراق الجنوبي، ويمتد من حديثة الموصل إلى عبادان طولا ومن حديثة عنه إلى حلوان شرقا . وقد عهد بإدارة هذه المناطق الى حكام يدينون بالطاعة إلى الخان المغولي، وقد اختير قسم منهم من أهل البلاد، وتم تقسيم هذه الولايات الى مناطق ادارية اصغر أشبه بالمحافظات في الوقت الحاضر. وكانت سلطة الخان أو الوالي المغولي مطلقة وكان القتل جزاء كل من يشك بولائه للخان ،الايلخاني وكانت الادارة كذلك لا مركزية، لا يتدخل الخان استدعاء من المغولي الا في الحالات الحساسة والكبيرة التي تمس أمن الدولة الايلخانية، وعليه واجبات تجاه الخان اهمها تقديم المال المتفق عليه او المقدر للخان، وتقديم الدعم العسكري في حالة الحرب مع الدول المجاورة أو في حالة حدوث اضطراب سياسي وكان الخان المغولي يتابع سير ادارة الولايات عبر شبكة سرية من المراقبين، ولهذا فقد تم يشك بولائه للمغول، ويكون القتل جزاء الذي يخون الخان او يشي بشخص ولم تثبت عليه التهمة". وكثيرا ما كان يتعرض الولاة إلى العزل او القتل والمصادرة، فقد عزل مجد الدين صالح بن الهذيل أكثر من أربعة مرات وصودرت امواله والملاكه، ثم يعيدة المغول وهكذا كان الحال، أي عدم استقرار اداري وعدم وضوح الرؤية، أو و خطة واضحة بسير عليها الولاة المغول أو نوابهم وعندما يعزل شخص ما من الادارة ويأتي شخص آخر، يقوم بملاحقة التباع الوالي السابق ويصادرهم ويظلهم، كما حدث مع علاء الدين عطاء ملك الجريني، ومع مجد الملك اليهودي). كانت واردات العراق بالدرجة الاساس تعتمد على النشاط الزراعي، وهذا هو المعروف عنه ، وبالتالي فإن الضرائب تعتمد على ما نظله الزراعة، وان الزراعة قد أصابها الاهمال والتمير جراء الغزو المغولي، اذ كسرت السداد والمسنيات والنثرت الجداول، وبالتالي فان وارد العراق قد يتلاشى جراء الابقاء على هذه الحالة من الاهمال. وقد تنبيه المغول إلى ذلك وعرفوا بعد احتلال العراق ان

عليهم اصلاح الوضع الزراعي في العراق، أن بدون زراعة لا توجد ضرائب ولا اموال ولا رواتب للجند المغولي وإذا انعدمت الزراعة تبعتها مهن أخرى في ذلك كالصناعة والتجارة، فزراعة القطن مرتبط بها صناعة المنسوجات وصناعة الزيت وزراعة اشجار النوت (التكي) مرتبط بها صناعة الحرير وما يتعلق بها من منسوجات تخلط مع الحرير، وهذه كلها يترتب عليها ضرائب والزراعة تحتاج لي عند وآلات للحراثة والحصاد وتعبئة المحصول الزراعي ونقله من الكياس وسلام ، وحبال وحيوانات نقل وهكذا. فالأمور كلها مرتبطة أحدها بالآخر، فاذا امنت الطرق انتقلت المنتوجات الزراعية عبر التجارة من مناطق الفيض إلى مناطق الحاجة والتجارة يرس عليها الرسوم والضور، وتحتاج التجارة إلى خانات لراحة القوافل على طول الطريق التجاري والى من يقوم بخدمة هذه القوافل وتأمين احتياجاتها من الماء والطعام والعلف وغير ذلك مما تحتاجه القوافل التجارية. لذا فقد انتبه المغول لهذا الامر وشجعوا الزراعة وحفروا بعض الانهار وكروا انهارا أخرى أصابها الاهمال في فترة الحرب واحتلال العراق. لقد اضر الوجود المغولي في العراق بالحياة العامة للناس، في يام الدولة العباسية كانت تحدث المجاعات والأوبئة فكيف الحال بحكومة لاتمت للناس بصلة، لابل ان هذه الحكومة المغولية قد ساهمت في قتلهم وتتميز هم وحرق محاصيلهم واجبرت الكثير منهم على الجلاء من أوطانهم، ومن يتتبع الأوضاع بعد الغزو المغولي للعراق يجد مصداق هذا القول، وقد سأل ابن فضل الله العمري احد المطلعين على أحوال البلاد عن سبب نقصان العمارة وضعف الانتاج وقلة الناس والمشاريع فقال : (عن السبب في قلة الغلال مع في بلاد العراق مع امتداد سوادها فقال: قلة ازروع ما استهلكه القتل زمن هولاكو للعراق وما جاوره من (البلاد ، كما شهدت فترات الحكم المغولي حدوث مجاعات فمثلا في ملة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م وفي سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م و ٦٨٠هـ/١٢٨١م،١٢٨٩/١٢٨٦،١٣١٨/٦٨٥،٧١٨/٦٨٨ ٤٦٨٤/١٢٨٥ حيث حدثت مجاعات وأوبئة وارتفاع الاسعارو في الموصل واربيل لكل الناس الجيف وباعوا اطفالهم، وصارت الجزرة التي تباع بفلس واحد تباع برهم وخلت أربيل ودثرت قرى وبيع الولد بخمسين درهما او اقل وكانت المرأة تصرخ بابنها نصرانية ليشترى منها ولدها، فتأمن عليه وتجد من يطعمه، وتأكل هي وبقية أولادها بثمنه، وقد رافق هذه المجاعة جفاف وانتشار الجراد بشكل كثيف. لما في مناطق جنوب العراق فكانت الحالة لخف نوعا ما، مقارنة بالموصل واربيل والجزيرة . كما فرض المغول ضرائب على كافة الماس في العراق ومن بينها ضريبة التركات حيث نسمع عن وجود هذه الضريبة في أواخر المدة العباسية، وقد أشار الجويني الى انه وجد هذه الضريبة فقلغاها ، لكننا نسمع عن وجودها في سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م مما يؤيد وجودها ، وفرضت ضرائب الرؤوس (الجزية) وعلى الدور والممتلكات فقد ورد امر سلطاني الى الجويني بأمره فيه باثبات الدور ووضع الضرائب عليها وهذه الضريبة لم نسمع عنها من قبل في المدة العباسية كما فرضت ضرائب على المواد التي تباع في الاسواق ومن ضمنها المحاصيل الزراعية فقد باع احد الاشخاص كارة من الدخن بدرهم وطواب بضريبة عليها مقدارها در همين

ولذلك تركها وانهزم وهذا ظلم كبير اذ از الفلاح يدفع الضريبة مرتين مرة عند جمع الحاصل، ومرة عند بيعة في السوق، بعد دفع ضريبة الدولة. كما فرضت الضرائب على المراعي ايضا وقد امر بعض الخلفاء العباسين المتأخرين بالغائها مما يؤكد وجوده في أواخر المدة العباسية، ومقدارها ١ وكانت تسمى بالـ (القبجور أو القيجور) . كما فرض المغول ضريبة أخرى طبي التجارة الداخلية ولسموها بالتمعات وهذا كان يجري في المدة العباسية على التجارة الخارجية او على انتقال كما التجارة بين الدول المختلفة. وقد خالف بعض الحكام المغول هذه الضريبة، لكن ليس بصورة دائمة حيث أن الولاة كانت لديهم كما يعرف اليوم بقوانين الطواريء، يستخدمونها وقت ما يشاؤون) كما تسمع في الفترة المغولية عن ضرائب كانت تعبي بالقوة من الناس، كما فرضت ضرائب على الاوقاف وهي نعلم معفاة من الضرائب وضرائب على دور بيع الخمور، وعلى بيونات الدعارة، وفي بعض الاحيان كان المغول يفرضون عددا من الجنود على البيوت للاتفاق عليهم، وهذه مشكلة كبيرة جدا، قد نمس شرف العائلة أو القبيلة أو المنطقة، هذا فضلا عن المصادرات التي كانت تمس كل أموال الموظف وربما يدفع حياته كلها ثمنا لهذه المصادرة كما حدث مع صاحب ديوان العراق علاء الدين عطاء ملك الجويني . وفرضت ضريبة الرأس عن كل فرد في بداية الحكم المغولي، وقد الغاها الجويني عندما تولى ديوان العراق . لما الأراضي الزراعية فقد اعطيت بالضمان، وهذا يعني حدوث ظلم كبير جزاء استخدام هذه الطريقة في تحصيل الخراج والضامن يظلم الناس لأنه يجمع أكثر مما هو مقرر عليه ويحتفظ بالباقي لنفسه. ومن المضحك ان النساء اجبرت على دفع ما على أزواجهن . من مبالغ نقدية، اذ قد يهرب الرجال من الدفع، فكانت النساء تسجن ويجبر قاربين على دفع ما عليهم تخليصا لهن من السجن، وهذا ما لم تسمع به من قبل وقد حدث هذا في بداية الحكم المغولي. الأموال وربم القتل، بسبب وخلاصة القول ان اهم ميزة تميزت بها حكومة العراق في العهد الايلخاني هو عدم الاستقرار والفساد الاداري، فقد كان حكام العراق وحكام الولايات معرضين الى السجن والتعذيب ومصادرة أو بدون سبب اذ لعبت الوشايات دورها في هذه الاعمال التي لم تعط العراق أي استقرار، ولو استثنينا فترة حكم الجويني التم استمرت قرابة الواحد وعشرين عاما أو أكثر، لم يستمر بعض الولاة أو اصحاب الدواويين بضعة أشهر، فاخذ الحكام يدس بعضهم على بعضر الوشايات المهلكة للسلطان المغولي او لوزراته والنتيجة هي الخراب والدمار وعدم استطاعة الشخص الاداري من تنفيذ خطته في تسيير أمور الدولة في العراق، فضلا عن تحمل الناس لولاية بعض الفاسدين الذي لاتهمهم سوى مصالحهم الخاصة، والذين يرهقوهم بالضرائد الاعتباطية (٧). ويلحون في جبايتها. ولم ينج الناس في العراق من هـ التخبط، فالمحتل المغولي كان يسعى بكل الطرق الى الحفاظ على العرا وادارته لاحبا باهله بل نجني لكبر ما يمكن من خيرات العراق وا اسرع فترة ممكنة، وبأقل جهد ممكن.

- الاوضاع في بلاد الشام ومصر

- في هذه المدة التي أعقبت احتلال المغول لبغداد كانت بلاد الشام تتنازعها بقايا الأسرة الأيوبية وتعال فاتو مع بعضها البعض لا بل البعض من دويلات المدن الأيوبية أن صحت تسميتها بهذه التسمية تحالفت مع بقايا القوات الصليبية في بلاد الشام أما في مصر فقد كانت الأسرة الأيوبية تلفض أنفاسها الأخيرة وسط سلسلة من المؤامرة.الدسائس التي اطبقت على اسيادهم من الايوبين في مصر وقد أدرك الايوبين عدم صلاحية الجنة الخوارزمي للقتال إلى جانبهم بسبب أن الجند الخوارزمي كان يتبع كل من يدفع له أكثر فضلا عن كثرت مطالباتهم بالامتيازات المتكررة والتي ليس من الممكن توفيرها لهم فأكثر شيء يطالب به الجند الخوارزمي هو الاقطاع والاقطاعات محدودة لأن الأرض لا تتوالد بل هي ثابتة ومطالب الخوارزمي تتجدد كل يوم وفي بعض الأحيان كان جندي الخوارزمي يغير على الاقطاعات التابعة لأسيادهم والأيوبيين هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد أدى الغزو المغولي لبلاد المشرق الإسلامي، لم تود إلى زيادة إعداد الرقيق التي تباع، بل على العكس، فقد أدت غارات المقول على القضاء على هذه التجارة، بحيث فقدت كثيرا من الأسرة أبنائها في الحروب التي شنها المغول، وبالتالي أحداث جو من عدم الثقة لدى العوائل التي تبيع أبنائها إلى عدم معرفة العائلة بمصير ولدها مستقبلا.فعندما كانت العائلة تبيع ابنها في العصر العباسي للدولة العباسية، كانت تعرف أنه سيصبح جندية في الجيش العباسي أو غيره من الجيوش، وربما يلحق به أخوانه الآخرين فيما بعد، أو يلحق به أبناء قريته. أما الآن وفي ظل الغزو المغولي، أصبح جميع السكان الخاضعين لهم عبيد وأسرى، و يستخدمونهم في أعمال السخرة والتجنيد الإجباري لاستخدامهم كدروع بشرية في الغارات التي يشنها المقول على المناطق المجاورة لهم، وكان على المماليك الالتفات إلى ما يجري حولهم من تحديات خطيرة قد تهدد وجودهم في بلاد مصر، بشكل خاص أو في بلاد الشام بشكل عام، فالذي يسيطر على بلاد الشام يهدد مصر، والذي سيطر على مصر يهدد بلاد الشام، كما أن المقول قد وقف عند الحدود الشرقية لنهر الفرات، فأصبحت حدود الفرات الغربية تابعة للمماليك كتحصيل حاصل، لكن حدوث تحالفات جديدة بين ايلخانات العراق وفارس مع بوهيمند امير انطاكية وطرابلس الذي شكل بالتحالف هذا ضرب خاص فترة بالنسبة للدولة المماليك الفتية في مصر والشام. لهذا نجد بيبرس يتأهب للأمر قبل وقوعه، ولهذا سعى بيبرس البندقداري إلى الاهتمام ببلاد الشام ومصر، فعلم أمورها المالية والإدارية،ووزع على قطاعات ونظم الجيش بشكل أفضل مما كان عليه، ولم يعد بيبرس البندقداري يخشى السيادة القدامى، الأيوبيين، بسبب قوته وانتصاره على المغول في موقعة أين جالوت، التي وضعت مصر في المسار الصحيح، وأخذت المعاقل الأيوبية في الشام تتساقط الواحدة تلو الأخرى، ولم يبق إلا مدينة حماة بأيديهم والتي دخلت في طاعة المماليك في سنة ٧٤٦هـ. ١٣٤٥ والتحالف بيبرس البندقداري كذلك مع خانات القبيلة الذهبية في منطقة القوقاس. وسميت بالذهبية لكون خيامها مصنوعة من الجلود المدبوغة بالع فص وقشور الرمان والتي تحول لون الجلد المدبوغ إلى أصفر، أو إلى أن

صناعها من الأصفر إلى أنهم يستخدمون الجمال ذات السنامين، حالهم حال سكان تركستان الإسلامي الذين دخلوا في الإسلام وناصب وأبناء عمومتهم العداء بسبب ما فعله المغول بالبلاد الإسلامية من خراب وتدمير. وبالنظر للعلاقة بين المماليك في مصر وقبيلة الأردن الذهبية، فقد ارتفعت مكانة مصر في نظر الدولة الأخرى، وأخذت الأمارة الصليبية تتحاشى الدولة المملوكية الفتية، ولهذا أخذت القوى الصليبية في الشام تذهب هذه الدولة، ولم تستطع مقاومتها على طول الوقت، فخسرت الكثير من مواقعها في بلاد الشام، توجهت الدولة المملوكية الفتية الضربات الموجعة القوى الصليبية في بلاد الشام فسيطرت على قيسارية وارسوف بين سنتي٦٦٧ هـ-١٢٦١ م-١٢٧٧ م .ثم أستولى المماليك على عرقها وصفة وسيليقيةوبلغت القوات المملوكية مدينة طرسوس وتم عقد هدنة مع ملكها هيثوم الثانيبشرط

- التنازل عن دريساك، وسيطر بيبرس كذلك على يافا وشقيف وتوج عماله بالسيطرة على مدينة فيترتب على سقوط هذه الإمارة التي استمرت إلى هذا التاريخ، أن انهارت الروح المعنوية للصليبيين، فاستسلم حسن الأكراد وسقط حسن وحرسه أثاب ملك قبرص يحصل بعقد معاهدة لمدة عشر أعوام مع بي سي بريس البندقداري لترتيب أموره الداخلية والخارجية وذلك في سنة ٦٦٦هـ-١٢٧٢ م
- كما أقام به برس البنت خداري علاقات ودية معك كيخسرو سلطان سلاجقة الروم الذي أصبح بحكم الواقع تحت تأثير زعماء القبائل الذهبية، كل هذه التحالفات كانت تصب في خدمة الدولة المملوكية الفتية، بحيث أصبحت في موقع القوة أمام المغول الذي يحتلون العراق وخراسان، فأصبح في موقع يمكن أن يكيل لم قول في العراق الضربات الموجعة،حيث قام المغول بغارات عديدة ضد حدود بلاد الشام في عصر السلطان بيبرس البندقداري، على الحدود العليا للفرات والبيرة. ومناطق أفاميا الواقع في أعالي سوريا الآن .وهكذا أخذ المقول في العراق ينشدون رضا الدولة المملوكية ويطلبون إقامة أفضل العلاقات معها. بعد أن كانوا يوجهون لها الحملات والحملات. وهكذا زال الخطر المقول عن بلاد الشام ومصر، وخيرا فعلت الدولة المملوكية الفتية بالتصدي لهذه الغارة المدمرة الشرسة ضد العالم الإسلامي، وأسس لأنفسهم دولة حملت اسمهم على مر التاريخ، وتخلصت بلاد الشام من الخطر الصليبي، الذي ظل الغرب الأوروبي يطبل ويزمر له ويزهق الأرواح البريئة الطاهرة من الطرفين الإسلامي والأوروبي، من دون سبب أو مبرر حقيقي، بهذا الحرب بين الشرق والغرب
- وهنا أود أن أطرح سؤالا، ماذا حدث لو حصل اتفاق والتعاون بين الدولة الإسلامية والغرب الأوروبي في كل المجالات الجواب سيكون تقدم العالم والمدنية قرونا عديدة إلى الإمام، ولا زالت آثار تلك الحرب تضرب باطنابها هنا وهناكبين الفينه والاخرى.

- توفي بيبرس في سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧مبعد أن أستدعى بكل من الصليبيين والمقول وملك أرمينيا الصغرى مرة أخرى، وتبين لهم أنه ليس بالقائد الغافل أو السهل اللين الجانب،الذي يمكن أن يخدع، كما حاول أن يمد نفوذه على مناطق التابعة ل سلاجقة الروم في قيسارية(قيصرية) وأثبت لهم أن هذه الدولة الفتية لم تكن زيارتها لهذه المنطقة عابرة، بل جاءت تثبت وجودها في مصر أولا وفي بلاد الشام والمناطق المحاذية لها في آسيا الصغرى من جهة الشمال.
- اوضاع المشرق الاسلامي
- لم تختلف أوضاع بلاد المشرق الإسلامي في العهد المقولة عن مغربه فهي أول البلاد التي تعرضت للغزو المغول المدمر أن صح تسميتها بهذا الاسم، إذا خرجت القوات المغولية منغوليا تسوقها قسوة متناهية ضد الخصوم قدر قساوة الطبيعة على ذلك المجتمع، وبقدر ما حمل هؤلاء الهمج من حقد على الإسلام وأهله وعلى الحضارة ومعطياتها في ذلك الوقت منمساجد ودور علم ومدارس ومؤسسات دينية أو وقفية، أو بساتين أو زروع أو حدائق عناء أو مشاريع ري أو سدود بذل أهلها مبالغ هائلة من أجل توفيرها، لبناء ذلك سد لغرض استخدامه للري اوالزراعة
- ولم يكد العالم الإسلامي يستعيد شيئا من وحدته في أواخر القرن السادس الهجري على عهد صلاح الدين الأيوبي، حتى تعرض لموجة قوية كانت أعنف من تلك الحملات الصليبية التي اجتاحت بلاد الشام،
- وكما مر بناء عند الحديث عن ظهور المغول، إن المغول لم يعرفه أية وحدة فيمنغوليا إلا بعد قيام جنكيزخان بتوحيدهم تحت زعامته واتخذ لنفسه علما أبيضا تزينه تسعة ريشات ،واتخذ من مدينة قراقورم عاصمة قبائل النايمان،عاصمة له وصنع له عرشاضخما يجلس عليه في القوريلتاي.
- بعد احتلال الأجزاء الشمالية من الصين عادجنكيزخان إلى العاصمة قراقورمسنة٦١١ هـ/١٢١٤ متوجه بعدها إلى البلاد الإسلامية،، وكان قد استولى على الدولة القرهخطائيةكلشوخان قائد قبائل ،الذي كان قد هرب من جنكيز خان، والتجأ إلى القرهفاستقبله قائد القره خطاي و زوجه من ابنته لكنكلشوخان غدربعمه وسيطر على عرش القرهخطاي. كان هذا من ألد أعداء جنكيز خان، لهذا ما أن فرغجنكيزخان من أمر الصين حتى توجه إلى بلاد ما وراء النهروسيطرة على هذه المنطقة، وأصبح بحكم الواقع مجاور لبلاد خوارزمشان حيث جرت معارك عديدة بين الطرفين كانت الغلبة فيها للمغول.كما مربنا عند التحدث عن الغزوالمغولي للبلاد الإسلامية.
- علاقات المماليك مع مغول العراق
- بعد الانتصار الحربي الذي حققه المماليك على المغول في معركة عين جالوت٦٥٨ هـ/١٢٥٨ سعى هولاكوالئ اعداد حملة جديده ضد بلاد الشام ،وذلك بالسعي إلى عقد تحالف مع حاكم بعد أن فقد المغول القاعدة الشعبية في بلاد الشام، بما قاموا به من انتهاكات صارخة، جعلت الناس في بلاد الشام

ينفرون منهم ومن وجودهم كما أن هولاكو لا يستطيع مواصلة الهجوم على مصر من دون مساندة الأيوبيين،أصحاب السيادة الشرعية، وأسياد المماليك الذين يحكمون مصر وأغلب الشام الآن. أرسل هولاكو وفد كبير إلى الملك المنصور حاكم حماة في سنة٦٦٠ هـ/١٢٦٢ يحمل وعود المقول وأمان يوم الكاذب في رفع مكان الملك المنصور في بلاد الشام ومصر، وعاد حكم المنطقة للأيوبيين. وطلب منه الطعان لضرب بيبرس البندقداري،، فرفض الملك المنصور هذا الطلب وهذا العرض المغري بالنسبة إليه، ولكي يقطع الطريق على هولاكو أرسل الوفد المغولي إلى السلطان بيبرس البندقداري مع الرسائل المكتوبة إليه من هولاكو، ليبرئ نفسه من الخيانة والتهمة بمعاونة الاعداء. وبهذا فشلت هذه الخطة بكسب الملك المنصور الى جانب المغول

- لكن هولاكو ولم ييأس من المساعدة والخيانة والغدر لدى البعض من ضعاف النفوس،فراسل الملك المغيث صاحب الكرك، وطلب منه التعاون لإسقاط السلطان بيبرس من حكم مصر، فتعاون معه الملك المغيث،، وأطلعه على كثير من أخبار الجيش المملوكي وماكن تواجده وعدته وتسليحه وقادته، بل لعب أخطر من ذلك عندما بدأ بمراسه بعض فرق الجيش المصري ،ومنها فرقة الشهرزورية(احد الفرق الكرديه التي كانت مع الأيوبيين في الاردن ومصر وبلاد الشام وهم شهرزور في شمال العراق،ولعبوا دورا متميزا في الحرب الصليبية ومقاومة الصليبيين وقدموا الغالي والرخيص من أجل الجهاد في سبيل الله).وقد انكشفت هذه المؤامرة ولقي الخائن جزاءه فيسنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م. ولم ييأس هولاكو من المحاولة مرة او حرات حتى وإن لم يجد الشخص الملائم فعلى أمل تقدير إيهام السلطان بيبرس بأنه يستطيع الابقاع به، ويستطيع إقلاقراحته حتى لا يتفرغ له،من أجل طرد المغول من العراق، حيث راودت هذه الفكرة السلطان بيبرس فعندما أرسل له الايلخان المغولي رسالة تهديد،أجابه السلطان بيبرس إجابة رجل حمل قضية أمة فقال له ((إعلم أني وراءه بالمطالبة ،ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض)) إذ تشمل أن وجود المقول على حدودها الشرقية سيسبب له الكثير من المشاكل واستمرت العلاقات الحربية بين الطرفين المغولي والمملوكي، بشكل أو بآخر حتى أدرك المغول أنه لا بد للعلاقات العسكرية من أن تنتهي، وتحل محليا العلاقات وهذا ما تم في فترة لاحقة بعد دخول المغول في الدين الإسلامي. قد عادت العلاقات التجارية بشكل طبيعي بين الإثنين.
- أما عن علاقة مغول العراق مع مغول القبجاق، فاكنت غير جيدة ،وكان ان تأسست هذه الدولة في سنة٦٤٥ هـ/١٢٥٦م واتخذ من مدينة سراي مقرا لحكمه، وشملت دولته كل مناطق القوقاز الروسي ومناطق بلاد خوارزم اي المناطق الواقعة بين بحر ارال والبحر الاسود، بدأت هاتان الخانيتان تعمل بشكل متوافق مع سياسة المغول في قراقورم في اول الامر ولكن بعد تقسيم الامبرطورية المغولية ،واعتناق هذه القبيلة للدين الاسلامي ،والاختلاف بين المصالح والاهواء وتفكك الدولةالمغولية، ادى

بالنتيجة الى حدوث انشقاقات بين مغول العراق وايران وبيم مغول القبيلة الذهبية. اذن تعددت أسباب النزاع فمنهم من عزاها إلى ألاسباب الدينية واستنكار مغول القبيلة الذهبية لما قام به هولاكو من مذابح في البلاد الإسلامية .أو أن هناك سبب سياسي فقد ساند هولاكو أخاه الأكبر قوبلاي خان بتولي العرش المغولي، في حين ساند الاوردو اخاه الاصغر اريقبوقا لتولي العرش فتعقدت الخلافات بين الإثنين كما لعبت المصالح التجارية بين الطرفين دورا في تعقيد الأزمة بين الإثنين في أثناء الفتنه والحرب بين المغول المماليك في منطقة بلاد الشام انقطعت طرق المواصلات التي كانت تشكل عصب الحياة في ذلك الوقت بين العراق والشام لتردى الأوضاع الأمنية بين الطرفين المملوكي فكل طرف يتهم الطرف الآخر بالتجسس عليه من خلال هذه التجارة فضلا عن سيطرة الأوردو عليها من خلال علاقتهم السياسية والتجارية مع المماليك فجن جنونه هولاكو فلا هو يستطيع الانتصار على المماليك أو يقيم حلفا من أبناء عمومته ضدهم أو يحرض رعاياهم عليهم وأظنه ترك العراق ومات كمدا جرى فشله في السيطرة على بلاد الشام ومصر

- أما عن علاقة مغول العراق وإيران مع مغول بلاد ما وراء أنها فيمكن إجازة بما يلي عرف الكيان السياسي الذي أقامه المغول في بلاد ما وراء النائب اسم مملكة جغتايابن جنكيز خان ولا بدل من يحكم بلاد خراسان من أن يقيم علاقة حسنا مع بلاد خراسان وإن من يحكم خرسان عليه أن يقيم علاقة حسنة مع العراق هذا من ناحية مهمة جدا أثبتها التاريخ والواقع في كل من وصل إلى حدود جيحون لا بد له أن يعبر إلى بلاد ما وراء النهر لأن أمن بلاده متعلق بهذه المنطقة وهكذا في بقية المناطق وعلى الرغم كون الدولتين في خرسان والعراق ومغول ما وراء النهار وثنيتين إلا أن الصراعات السياسية لا بد وأن تأخذ مجراها الطبيعي حتى ولو كان يحكم ما وراء النهر وبلاد العراق وخراسان إخوة من أب وأم فبدأت العلاقات العدائية في أول الأمر حتى شغلتهولاكو ومن جاء بعده من الايلخانات في العراق وخراسان وجعلته يغير من خططه لغزو الشام ومصر ثم بتوالي أزمات تحولت العلاقات إلى علاقات سلمية بعد أن دخل المغول في العراق وخراسان في الدين الإسلامي أما عن علاقة المغول بشكل عام والايلخانيين بشكل خاص مع دول أوروبا فقد تم تناوله من قبل الباحثين بارتولد في كتابه تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي بشكل مفصل ولا أريد أن أعيد هنا لأنه ربما قد تكون لإعادة المختصرة مخلة ف الرجوع إلى المصدر الأساسي أفضل لمن يريد المزيد أما الكتاب الثاني فهو ال أستاذنا الدكتور محمد صالح الغزاز الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخيرة وهو بحث كبير فيه جهد واضح المعالم لمن يريد المزيد

الفصل السابع المعطيات الحضارية

هي عند الحديث عن الجوانب السياسية نتكلم عن حقيقة الأوضاع في تلك الفترة، من دون تعصب او تحيز كما قلنا ذلك في المقدمة، ولكن لم تدخل الفترة البويهية والسلجوقية، وفترة انتعاش الخلافة العباسية في عصرها الاخير من إصلاحات وإجراءات تبين لنا حرص الجميع بما فيهم لبويهيين والسلاجقة على العمل على استقرار الأوضاع الإدارية في مؤسسات الدولة العباسية، فضلا عن الجوانب الزراعية، التي تشكل في غلب الاحيان المورد الرئيس للدولة العباسية، بغض النظر عن ما لجهة المسؤولة عن الادارة في البلاد سواء اكانت بويهية او سلجوقية و وجود خليفة عباسي قوي كالناصر لدين الله أو وجود محتل أجنبي يمت للاسلام او المسلمين بصلة، كما هو الحال مغولي. كما جاء هذا الفصل ليفند القول القائل من ان الاحتلال الاجنبي شتى اشكاله بويهيا كان ام سلجوقيا، أو مغوليا في آخر الأمر، قد أثر على المستوى العلمي للناس في العراق بشكل خاص، ولبقية البلاد التي لالها هذه الغزوات بشكل عام، لهذا جاء هذا الفصل مجيبا عن تساؤلين لا الث لهما، الأول هو تناول أهم الإجراءات لتنمية الزراعة وتطويرها، هي مشاريع الري في العصر العباسي، التي كان لها الدور الأساس في مية الزراعة، المورد الأول للبلاد في العراق وفي العالم في ذلك الوقت، مع التأكيد أننا لن نتناولها بشكل مفصل . الأمر الثاني الذي يجيب عليه هذا الفصل هو الحركة العلمية التي شهدتها البلاد في هذه الفترة من التاريخ الإسلامي، فنجد آلاف الكتب التي الفت عن هذه المدة وعن الفترات اللاحقة، ومن خلال نظرة سريعة للكتب التي ألفت في هذه المدة، نجد أن عددا هائلا من الكتب والمؤلفات قد ت تأليفها، كما ان اسواق الوراقين كانت تعج بالنشاط العلمي والأدبي، ول تنقطع المناظرات الشعرية والمطارحات بين الشعراء من مختلف ارجا العالم الإسلامي. كما ان اعداد المدارس ازدادت بازدياد الحاجة العملي والعلمية لوجودها، فالدواوين تطورت والإدارة قبل غيرها أصبحت بحاج الى كادر اداري واني من اجل تمشية أمورها الإدارية والمالية، فلا يمكن ان تجري عملية جباية الضرائب من دون شخص له الالمام بسعر الماد المراد اخذ الضريبة عنها وسعر السوق، وسعر صرف العملة وحساب الناتج وغيرها من أمور الجباية. واذا انتقلنا الى هندسة مشاريع الري نجد الحاجة أكبر من ذي قبل، فالمهندس يجب أن تكون له الخبرة بنو الأرض التي يجري عليها المشروع، ومدى صلاحيتها لإنجاز ه المشروع دون ذلك، والعامل الفني الذي يشرف على عملية الحفر والتنف يعرف بالملاحظة والخبرة التي اكتسبها من ابيه وجده، كيف يوجه الحا والى أي مستوي ليعطي الماء انسيابية في السقي والتصريف، وهكذا ف بقية مجالات الحياة الأخرى. ونطلب العذر لنا من زملائنا وأساتذتنا الكرام، أن اخطأنا في هذا التأكيد وهو وجهة نظر لاغير، فالذي يعمل يخطيء أو يصيب، فنطلب السماح من الله اولا ومن اعزائنا الكرام طلاب واساتذة، فضلاً. عن الإشارة إلى بعض المنشآت العمرانية ذات الطا العام اما القصور التي انشأت في هذه المدة، فيعجز العاد عن حصره لكثرتها، فكل أمير او وزير او خليفة قد اتخذ عدد من القصور،

ودورالاستراحة في مختلف مدن العالم الإسلامي آنذاك. ففي الفترة البويهية، تولى البويهيون حكم العراق وخراسان ومنطقه الجزيرة الفراتية، وأصبح عضد الدولة هو الشخص الأول المسؤول عن دارة هذه المناطق، وتمشية أمورها من اجل ان تستمر كذلك الحياة السياسية في هذه المناطق تحت الحكم البويهي. وفيما يروى عن عضد لدولة انه كان عاقلا فاضلا حسن السياسة كثير الاصابة شديد الهيبة بعيد نهمة ثاقب الرأي محبا للفضائل واهلها باذلا في مواضع البذل مانعا في اماكن الحزم ناظرا في عواقب الأمور .سعى عضد الدولة البويهي في خلافة الطائع الله الى اجراء صلاحات اقتصادية فتم في عهده اصلاح البثوق (الكسور في السداد مطلة على مدينة بغداد) التي حدثت في دجلة، وفي عهده عمرت نداد، لأنها كانت قد خربت بانفجار البثوق، فأمره الطائع الله فتولى بنفسه سد بثق النهروان فسده سنة سبع وستين وثلاثمائة، وأثر عضد دولة في زمن الطائع لله آثاراً جميلة وعمارات كثيرة، وغرس الأشجار، أخر الخراج، ورفعت الجباية عن قوافل الحاج، وكثر ادرار الأقوات الرسوم والصلات للفقهاء والقراء وأهل الأدب، ورغب الأحداث في تأدب لكثرة العطاء، وكانت الارتفاعات جمة، والأموال وافرة. وبنى وراً للمدينة المنورة وعمل قنطرتي الصراة، لعبور الناس والصراة هو ند انهار بغداد الصغيرة، التي تستخدم للزراعة وللشرب، وللنقل في خل بغداد . وامر معز الدولة البويهي ببناء الجسور و القناطر لمسنيات (السداد على ضفاف النهر)، فقد بنى عضد الدولة جسرا في مدينة بغداد وقنطرتين على نهر الصراة، وقد انتهى بناء الجسر سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٣م في مشرعة القطانين وكان عضد الدولة محبا للعلوم وأهلها مكرما لهم محسنا اليهم، كان يجلس معهم يعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، القراءات سنفوا له الكتب ومنها الإيضاح في النحو، والحجة في القراءات والمكي في الطب والتاجي في التاريخ وغير ذلك، وعمل المصانع في سائر البلاد كالبيمارستان والقناطر وغير ذلك من المصالح العامة . وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٩م ان عضد الدولة ((شرع في عمارة بغداد، وكانت قد خربت بتوالي الفتن فيها، وعمر مساجده وأسواقها، وادر الأموال على الأئمة والمؤذنين والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد والزم أصحاب الاملاك بعمارتها وجدد ما دثر من الانهار ، وأعاد حفرها وتسويتها، وأطلق مكوس الحجاج، واصلح الطريق من العراق الى مكة شرفها الله تعالى، واطلق الصلات لأهل البيوتات والشرف والضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة وفعل مثل ذلك بمشهدي علي والحسين عليهما السلام، وسكن الناس مـر الفتن وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرير والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحساب والمهندسين، واذن لوزير نصر بن هارون، وكان نصرانيا في عمارة البيع والديرة، وإطلاق الأموال لفقرائهم)) . وهذه التفاتة كريمة من لدن عز الدولة البويهي تجد أهل الذمة في العراق. كما بنى عضد الدولة البويهي سورا على المدينه المنورة مدينة النبي محمد (ص).وأمر عضد الدولة طاهرك بن موسى ان يبني في موضع الحبس

الجديد ببغداد مارستانا وخصص له نفقات كثيرة بلغت خمسة آلاف دينار، وبنى طاهرك المسناة واتمها، لكنه لم يتم بناء المارستان، اذ ان المنية عاجلته. وقد تجلى الاهتمام بالخدمات العامة في عهد عضد الدولة البويهي، ومنها الخدمات الصحية، ففي سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م، امر ببناء المارستان الرئيس في بغداد ، وخصص له اوقافا كثيرة، وزوده بما يحتاج اليه من الآلات والأدوية، ورتب فيه الأطباء والوكلاء والخزان ونقل اليه كل ما يحتاج اليه المارستان . وكان في هذا المارستان كحالون (اطباء عيون) وجائحيون أي المختصون بالجراحة ومجبرون وقد ذكر أن الراتب الشهري لأحد اطباءه وهو جبرائيل بن عبد الله الذي كانت نوبته في العمل يومين وليلة في الاسبوع مقداره ٣٠٠ درهم وكانت المحاضرات الطبية تقرأ فيه، لكنه تعرض في بعض الفترات الى الإهمال، أثناء الاضطرابات السياسية مثلما حدث في سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧م في ايام طغرل بيك حتى خلا من الدواء والشراب، وسبب ذلك ان احد اليهود استولى على أوقافه الا ان الاوامر صدرت بتجهيز المارستان بالفرش والادوية والاطباء والطباخين . وقد زاره ابن جبير اثناء زيارته لمدينة بغداد سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م فقال عنه: يقع في الجانب الغربي من المدينة على ضفة نهر دجلة، يتفقده الأطباء كل اثنين وخميس للنظر في احوال المرضى وتخصيص ما يحتاجون اليه من الأدوية، وفيه طباخون يطبخون الاغنية والأدوية، وهو قصر كبير يدخل إليه الماء من دجلة، وفيه جميع مرافق البيوت الملكية. ثم اصاب المارستان العضدي الخراب والدمار بسبب الإهمال وعدم الأنفاق والسيطرة على أوقافه، فتسلمه الشيخ ابو منصور ابن عبد الملك بن يوسف (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧م) وكان قد دثر واستولى عليه الخراب فجد في عمارته، وجعل فيه ثمانية وعشرين طبيبا، وثلاثة من الخزان واشترى له الاملاك النفيسة، بعد أن كان ليس به طبيب ولا دواء ، ولقد بقي إلى حدود سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، وكان له خازن وطبيب وقوام وحجرة للمجانين وكانت تجري فيه عمليات ختان الاطفال مثل اولاد الخليفة المستعصم بالله، وكان يمارس نشاطه الطبي حتى عام ٦٧٢هـ / ١٣٨٢م أي بعد الغزو المغولي للعراق، حينما عزل مسؤوله اليهودي، ولكن يبدو ان هذا المارستان قد تعرض للخراب، فعندما مر ابن بطوطة بمدينة بغداد قال عنه: قصر كبير خربت بقيت منه الآثار.ولم يكن المارستان العضدي وحده في بغداد بل كانت هناك مارستانات اخرى نذكر منها المارستان الذي أسسه المملوك خمارتكين في الجانب الشرقي من بغداد في سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م، ويقع هذا المارستان في باب الازج، بأمر من سيده تاج الدولة تنتش بن الب ارسلان، وقد رأه ياقوت الحموي في سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م، وحدد موقعه وانه موجود وأتم الأمير شرف الدولة سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م بناء مارستان بمدينة واسط، وحملت إليه الأدوية والاشربة والأطباء والخزان والوكلاء ووقفت عليه أملاك كثيرة لسد نفقاته . وقد أشار ابن جبير إلى موقع المارستان في بغداد الغربية فقال: ((وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة،

وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم اخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة، يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مرافق المساكن الملوكيةوالماء يدخل إليه من دجلة)). وأود أن أشير هنا الى ان المارستانات كانت منتشرة في كل مدن العالم الإسلامي، وكانت توقف لها الأوقاف التي تسد حاجاتها ويزيد، ففي مدينة الموصل كان يوجد مارستانان احدهما في ربض المدينة وآخر في داخل البلد . أما في مدينة البصرة فقد أمر الخليفة في سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م بإنشاء مارستان في المدينة وخصص له الأوقاف من مال الخليفة الخاص . وتم تكليف الأمير الأمير شرف الدولة سنة ٤١١هـ / ١٠٢٢م ببناء مارستان بمدينة واسط ، وحملت اليه الادوية والاشربة والأطباء والخزان والوكلاء ووقفت عليه املاك كثيرة لسد نفقاته وعندما اكتمل بناؤه افتتحه في سنة ٤١٣هـ/١٠٢٢م، مؤيد الملك ابو علي الحسن الرخجي وزير شرف الدولة، وقد استمر هذا المارستان الى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م و٦١١هـ / ١٢١٤م ولكن لا تعلم هل استمر هذا المارستان في العهد الايلخاني . وانشأ الخليفة مارستان بالبصرة في سنة تسع وعشرين وستمائة ، وفي سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م تم انشاء مارستان على شاطىء الفرات في مدينة الحلة، وقد انشأه مجد الدين اسماعيل بن الياس الكتبي المتوفي سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م . وقد وجه أبو عبد الله محمد بن يحى بن فضلان المتوفي في سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٢م رسالة إلى الخليفة الناصر لدين الله يشير فيها إلى تدني مستوى الأطباء من أهل الذمة جاء فيها : ((ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل حنين وخمس وائم من تذكرة الكحالين، وقد تقمص ولبس العمامة الكبيرة وجلس في مقاعد الأسواق والشوارع على دكة حتى يعرف وبين يديه المكحلة والملحدان يؤذي هذا في بدنه ويجرب على ذا في عينيه فيفتك من أول النهار الى آخره ويمضي آخر الليل الى منزله ومكحلته مملوءة ،قراضه، فإذ عرف بتعوده على الدكة، وصار له الزبون قام يدور ويدخل الدور)) . وفي عهد المغول الايلخانيين، جرى الاهتمام بالطب وذلك لحاجة هؤلاء له فظهر عدد من الأطباء نذكر منهم سعد الدولة اليهودي صاحب ديوان ممالك العراق وشمس الدين الصباغ وأبو منصور ومجد الدين سنجر البغدادي الذي تولى المستنصرية وفحص الأطباء، وقد وصف ابن الفوطي احد الاطباء في عهده فقال: ((كان طبيبا حاذقا له معرفة بالمزاج والعلاج)) .كما وردت إشارة إلى وفاة قاضي المارستان أبو بكر بن محمد بن عبد الباقي الأنصاري، قاضي المارستان في سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م، وكان عالما بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها . ويشير هذا النص إلى أن هنالك محلة قرب المارستان وقد قعد هذا الرجل للقضاء فيها، أو أنه كان هنالك قاض خاص للمارستان، للاشراف على اوقافه ومتابعة الانفاق على أحوال المرضى فيه، والحكم بما يحدث لهم، مثلما كان هنالك قاض للعسكر منذ زمن بعيد في المدة العباسية. وفي الناحية العمرانية فقد تم اقامة أو تطوير بعض الابنية لأهداف شتى منها: قيام الأمير عماد الدولة ببناء مدينة العمادية وشيد حولها سورا

وحصنا كبيرا ، ولكن لانعرف هل هي مدينة العمادية في العراق ام غيرها، لأنه قد أشار إلى بنائها في منطقة الجزيرة وعمادية العراق تقع شرق دجلة قرب الحدود مع تركيا، فإذا كانت هي عمادية العراق، فربما بنيت لصد هجمات البيزنطيين التي كانت هذه المنطقةتتعرض دائما لهجماتهم. اما في عهد الخليفة المقتدي بامر الله ٤٦٧-٤٨٧هـ / ١٠٧٤ -١٠٩٤م، فقد تم بناء جامع المدينة المنورة والمساجد التي تجاوره، وبنى كثير من المصانع (المنشآت العامة) والقناطر، وأعاد كري الأنهار التي كانت معطلة مثل نهر شيلي والخالص ونهر بين والاسحاقي، وبنى المصانع في طريق الحجاز – أي بناء محطات الاستراحة وتنظيف الآبار في طريق الحج التي كانت تسلكه قوافل الحج .وقد اهتم الخلفاء العباسيون في هذه الفترة بحفر الأنهار وكريها مثلما فعل الخليفة العباسي المستنجد بالله في سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م عندما امر بحفر نهر دجيل . كما قام الخليفة العباسي المستنصر بالله بتحسين شؤون الزراعة والري في منطقة شمال بغداد، از امر بحفر نهر آخر يأخذ مائه من نهر الدجيل ، يأخذ مائه من نهر الدجيل، وسماه بالدجيل المستنصري وبنى عليه قنطرة عرفت باسم جسر حربي عند مدينة حربي في الجانب الغربي من ٦٢٩هـ/١٢٣١م (٤). وقد ذكر أبو دجلة بين سامراء وبغداد، وذلك في سنة الفداء أنه يوجد في جنوب العراق وفي منطقة البصرة وحدها، مايزيد على مئة ألف نهر ، ويقصد بها القنوات الأروائية التي كانت تتكفل بها الدولة والناس من أجل إدامة الزراعة في جنوب العراق، لما لهذه المنطقة من أهمية في واردات العراق، فضلا عن الاكتفاء الذاتي الذي تحققه هذه المنطقة للعراق على وجه الخصوص. ونتيجة لما كان يعانيه سكان العراق على وجه العموم، وبغداد على وجه الخصوص فقد تم الاهتمام ببناء السدود على ضفاف الأنهار وتحصينها بين فترة وأخرى، وقد اشار احمد سوسة في معرض حديثه عن السدود شرقي بغداد، فوجد أن هنالك سدين قائمين على نهر ديالي في مضيق جبل حمرين (قرب مدينة الصدور حاليا في محافظة ديالى)، مما يؤكد أن هذين السدين كانا قيد الاستخدام او ان احدهما قد بني بعد تهدم السد الآخر، أو أن الاثنان معا كان كل منهما يحمي الآخر (كسد بادوش الحالي الذي يحمي مدينة الموصل من خطر تهدم سد الموصل في الوقت الحاضر) . كما ان الخليفة المستظهر بالله انشأ سورا وخندقين يتصلان بنهر دجلة عند مدينة بغداد من شمالها حتى جنوبها، وقد اكتمل هذا السد والسور في عهد الخليفة المسترشد بالله، فنظمه واحكم بناؤه في سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م وجعل عرض السور ٢٢ ذراعا كما أمر الخليفة المسترشد بالله سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م ببناء سور لمدينة بغداد، بحيث يكمل عمل الخليفة الذي قبله، وان يجبى ما يخرج عليه من البلد، فشق ذلك على الناس، وجمع من ذلك مال كثير ، فلما علم الخليفة كرامة الناس لذلك، أمر بإعادة ما اخذ منهم، فسروا بذلك وكثر الدعاء له. وقد تناوب اهل بغداد على المشاركة في بناء السور، يعمل كل اهل محلة منفردين بالطبول والزمور، وزينوا البلد وعملوا فيه القباب (السرادقات). وقد ظل هذا السور حتى الغزو

المغولي للعراق، حيث هدمه المغول، والهدف من بناء هذا السور هو لحماية مدينة بغداد من الغرق ومن أي هجوم محتمل فهو سور دفاعي وأمني، فضلا عن كونه يمثل قوة الدولة التي سعت لإقامته فأصبح مظهرا من مظاهر مدينة بغداد.

كما شيدت الخلافة العباسية في عهد الخليفة المستظهر بالله(٥١٢-٤٨٧هـ/ ١٠٩٤-١١١٨م) سداً يقع الى جنوب من مدينة سامراء عرف بسد نمرود، يأخذ مياهه من نهر دجلة جنوب سامراء ثم يسير باتجاه الجنوب الشرقي يصب في نهر دجلة جنوب مدينة بغداد ، هذه خطة ذكية من الخلفاء العباسيين لحماية مدينة بغداد والتي كانت غالبا ما تتعرض الى مثل هذه الفيضانات ، وفي خلافة المستنصر بالله تم اصلاح سد ديالى والعظيم ، وفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م امر الخليفة المستنصر بالله تم ببناء سد على فم نهر عيسى مما يلي دجلة، ليزاد فيه الماء من دجلة. وفي سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م أمر الخليفة المستعصم بالله ببناء سد على شاطيء نهر دجلة عند بستان الصراة، ومما هو جدير بالذكر، ان ديوان الخراج كان يتولى الانفاق على هذا المشاريع الاروائية وصيانة السدود وادامتها. أما السكور وهو كل شق صدر، هو سد الشق ومنفجر الماء، فقد عنيت الخلافة العباسية فيها بشكل كبير، لما لها من اهمية في الحفاظ على مجرى النهر من التحول، وعلى الإنتاج الزراعي من الدمار، وكانت تستعين بهذا الصدد بعدد كبير من المهندسين والعمال من ذوي الخبرة في مجال الري، اذ لايجوز ان يستخدم من ليست له خبرة في هذا المجال ابدا، حتى وان كانت يدا عاملة. فمثلا شكل اصلاح القورج الذي كان غالبا ما يهدد مدينة بغداد، حيث جرت محاولات عديدة من اجل اصلاحه خلال السنوات ٦٢٢،٦٤٦،٦٥٤هـ / ١٢٢٥، ١٢٤٨،١٢٥٦م على التوالي ويبد انه في بداية المدة السلجوقية، قد حدث اهمال في العناية بالسدود و المسنيات المحيطة بنهر دجلة في مدينة بغداد، فقد زادت دجلة زيادة عظيمة وانكسر القورج، وجاء في الليل سيل عظيم، وطفح الماء مع البرية مع ريح شديدة، وجاء الماء الى المنازل من فوق، ونبع من البلاليع والابار بالجانب الشرقي، وهلك خلق كثير تحت الهدم، شدت الزواريق تحت التاج خوف الغرق، وقام الخليفة القائم بأمر الله يتضرع ويصلي، وعليه البردة وبيده القضيب، وغرقت محال عديدة، ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدي. وتكرر انكسار السداد في سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م،اذ انكسرت سدود الفلوجة، وانقطع الماء من نهر النيل، فجلا اهل البلاد،ووقع الوباء فيهم، وظل هذا الكسر حتى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م، حيث اصلحه عميد الدولة بن جهير. في سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م، هدد الفيضان مدينة بغداد، وقد اتبع الخليفة المستظهر بالله الاهتمامبالأمر، وجمع المجمين لمعرفة الكواكب، فوجدوها كلها قد اجتمعت معدا زحل فلا خوف على اهل بغداد من هذا الفيضان، اذ لو اجتمع زحل معبقيت الكواكب لكان فيضاناً كبيراً فأمر الخليفة بأحكام المسنيات والمواضع التي يخشى منها الغرق ولانفجار. كما شرع مجاهد الدين بهروز سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م في عمل النهروانات سكرا عظيما

يرد الماء الى مجراه الاول وحفر مجرا النهر العظيم وخرق اليه مجراهتأخذ من ديالى ثم استحال يعد ذلك وجرا الماء ناحية السكر وبقى السكر لاينتفع به احد ولم يتعرض احد لرده الى مجراه عند السكر الى وقتنا هذا (اي ايام ابن الاثير) ويشر هذا الاجراء الى وضع السدود الغاطسة في مجرا الانهار شرقي بغداد للانتفاع بها في الزراعة نضرا لأهمية المنطقة الواقع على طفاف نهري ديالى والعظيم.

وفي سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م تعرضت مدينة بغداد الى فيضان تأذت منه كثيراً بحيث كسا هذا الفضان السدود وغرقت محال من بغداد وانكسر السور ايضا الذي يحيط في بغداد ، وفي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م زادت مناسيب المياه في نهر دجلة وهدد بغرق مدينة بغداد ، اذ دخل الماء من خندق المدينة من باب كلواذى، فخاف الخليفة من الغرق مدينة بغداد وامر بتحصين سد الخندق، وتولى الاشراف على اكمال هذا العمل فخر الدين نائب الوزارة، وعزالدين الشرابي، ووقفا خارج المدينة، فلم يبرحا حتى سد الخندق. وجت حالة ربما تكون فريدة في هذا العهد المتأخر الا وهي محالة كري نهر دجلة، وهي ان تدل على شيء، فإنما تدل على خبرة جيدة مع ضعف امكانات ذلك الوقت،فقد نقصت دجلة في سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، نقصا كبيرا ادى الى ضحلة الماء فيها، فأمر الخليفة الناصر لدين الله بكري نهر دجلة، فهيأ الناس لذلك، لكن جهودهم لم تفلح بسبب رجوع الطين الرمل الى الموضع الذي يقومون بكريه، فتوقف العمل لذلك .

كما تعرضت مدينة بغداد لحادثة فيضان اخرى حدثت سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م بسبب زيادة الماء في نهر دجلة، وكان هذا الفيضان خطراً، وخاف منه الناس، فخرج الخيفة والوزير وقادة الجيش، وجمع الناسوالفعلة و المتطوعة لمعالجة الخلل، سد القورج، لكن عملهم لم يكن بالمستوى المطلوب، حتى قال لهم الخليفة الناصر لدين الله: لو كان يفتدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت، ولو دفع بحرب لفعلت، لكن أمر الله لايرد.وقد دمر هذا الفيضان معظم مناطق الجانب الغربي من بغداد وبعض مناطق الجانب الشرقي من بغداد، وانقطعت الصلاة بجامع السلطان. تكرر الفيضان في سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وعمل سكان بغداد على سد الكسر الذي حدث بالقروج. اما عن بناء المدارس فلم ينحصر العملفي البويهيين انفسهم بل تعداهم الي الوزراء فقد امر في سنه ٣٨٣هـ /٩٩٣م الامير بهاء الدولة الوزير ابا نصر سابور، ان يبني داراً للعلم، وزودها بكتب كثيرة بلغت اكثر من عشرة الاف كتاب، ووقف عليها غلة كبيرة، وظلت هذه الدار قائمة حتى احرقت عند دخول طغرل بيك بغداد في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م. وكانت هذه الدار في مدينة بغداد، ووقف فيها كتب كثيرة على المسلمين المنتفعين بها.

كذلك امر ابو كاليجار وزيره منصور بن شاه مردان بأنشاء دار للكتب في البصرة، وجلب اليها نفس الكتب. وفي هذه السنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م ابتدئ بعمارة المدرسة النظامية ببغداد ، وقد اكتمل بناؤها في ذي القعدة من

سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، وعين لها المدرسين ، وقد وصف باني المدرسة النظامية نظام الملك بانه قد أمر ببناء المدارس في سائر الامصار، حيث لم تبق مدينة مهمة خاضعة لسيادة السلاجقة الا وبنى فيها مدرسة نظامية، اجرى لها الجرايات والأوقاف التي تسد حاجتها وتزيد.

وفي المدرسة المستنصرية اربعة اواوين،لكل مذهب ايوان فيه المسجد، وموضع التدريس، وجلوس المدرس في قبة خشب على كرسي عليه البسط، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة.من اشهر مدرسي النظامية الامام ابو حامد الغزالي الذي درس فيها فترة من الزمن، ثم غادرها إلى بلاد الشام سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، وزار القدس، واستناب اخاه في النظامية، ولبس الخشن وتزهد واكل الدون من الطعام، وقد صنف الغزالي في هذه السفرة ، كتاب احياء علوم الدين، وسمعه خلق كثير بمدينة دمشق، وعاد الى العراق، ثم غادرها الى خرسان.ومن مدرسي النظامية ايضا الشيخ ابو عبد الله الطبري، وقد عينه فخر الملك بن نظام الملك، وزير بركياروق سنة ٤٨٩هـ /١٠٩٦م ، كما درس فيها سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م بغير أمر الخليفة الشيخ يوسف الدمشقي، فمنعوطلب منه الوزير ان يدرس فيها ثانية فرفض إلا ان يأمر الخليقة بذلك، ثم سمح له الخليفة بالتدريس بالنظامية .

وفي سنة توفي يعقوب الكاتب ببغداد، وكان يسكن المدرسة النظامية ولم يترك وارثا، فحضر متولي المتروكات وختم على الغرفة التي تركها المتوفى. فهاج الطلبة وكسروا القفل والختم عن بابها، فقبض حاجب الباب على اثنين من الفقهاء وحبسهما، فاغلق الفقهاء المدرسة، والقوا كراسي الوعاظ في الطريق، ثم حل الأشكال بعد ذلك الى ما جرى العرف عليه ومن مدرسي النظامية أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخي المدرس بالنظامية، وكان من اصحاب ابي الحسن الخل، وكان صالح خيرا له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة، وجاه عريض، وكان حسر الخط يضرب به المثل.ومن مدرسيها ايضا صدر الدين محمود بن محمد بن ثابت الخجندي وهو رئيس الشافعية بأصفهان قدم بغداد حاجا واستوطنها، وولي النتظر بالمدرسة النظامية ببغداد (ت٥٩٢هـ/ ١١٩٥م). وفي رمضان من سن ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م درس في النظامية مجير الدين ابو القاسم محمود بن المبارك البغدادي، الفقيه الشافعي.وفي سنة ٥٨٩هـ / ١١٣٩م امر الخليفة الناصر لدين الله، بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، ونقل اليها من الكتب النفيسة الوفا لا يوجد مثلها .ولم يكتف نظام الملك ببناء مدرسة نظامية في بغداد فقط ، وإنما بنى عدة مدارس أخرى في مختلف ارجاء العالم الإسلامي ومنها المدرسة النظامية في خوارزم وبنى إلى جوارها جامعا وجعل فيها خزانة كتب، وله مآثر حسنة بخراسان باقية.وفي سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م بنيت المدرسة الكمالية ببغداد، حيث بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن،

ولما اكتمل بناؤها قعد للتدريس فيها الشيخ ابو الحسن ابن الخل. وتم بناء المدرسة التاجية المشهورة والتي بناها تاج الملك مستوفي السلطان السلجوقي بباب ابرز في بغداد، ومن أساتذتها الامام ابو بكر الشاشي.وفي سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م بنيت دار الحديث الكاملية بالقاهرة بين القصرين، وعين لها رئيس هو ابو الخطاب بن دحية.وقد شاهد الرحالة ابن بطوطة مدرسة النجف الاشرف، واشار إلى كبرها وعظم أوقافها وان لكل وارد اليها ضيافة ثلاثة ايام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم.كما بنى الخليفة المستنصر بالله ابو جعفر منصور بن الظاهر المدرسة المستنصرية وذلك في سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م واكتمل لابناؤها.في سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، وبلغت كلفة انشائها قرابة ستمائة الف دينار واثارها باقية الى اليوم وتقع قرب نهر دجلة وجسر الشهداء الحالي في بغداد، وقد جددت وزارة الاوقاف كثيراً من معالمها، وقال ابن واصل ((بنى المستنصر على دجلة من الجانب الشرقي الرصافة)) مدرسة ما على وجه الارض أحسن منها، ولا أكثر منها وقوفاً، وهي بأربعة مدرسين على المذاهب الاربعة، وعمل فيها مارستانا، ورتب فيها مطبخا للفقراء، ومزملة للماء البارد، ورتب لبيوت الفقراء الحصر، والبسط والزيت والورق والحبر، غير ذلك، وللفقيه بعد ذلك في الشهر دينارا، وراتب لهم حماما، وهو امر لم يسبق الى مثله.وقد اراد الخليفة المستنصر بالله ان تكون مدرسته هذه نموذجيه فريدا في التدريس ونموذجا طبيا يقتدى به، اختار لها افضل المدرسين وخصوصا خصصه لهم رواتب وما يحتاجون اليه كما مر بنا قبل قليل. كما حاول ادخال العلوم العقلية ونقلت الى المدارس على عكس المدارس النظامية التي درست العلوم النقلية فقط فدخل الى جانب العلوم الدينية كالفقه والتفسير والعلوم العربية والاصول والفرائض، الحساب والجبر والهندسة والطب وعلم الحيوان، فهي خطوة بحق التأسيس جامعة تعادلجامعاتنا في الوقت الحاضر. احتفل بافتتاح المدارس احتفالا مهيباً، وكان يوما مشهودا حضره ارباب السيف والقلم والعلماء و الادباءوالشعراءوطارت شهرتها الافاق حتى اصبحت قبلة الطلاب العلم. ومن اجمل ما يتذكره الفرد من هذه المدرسة ساعتها الجميلة، وقد وصفها احسن وصف ابن القوطي في كتابه الحوادث الجامعة فقال((في سنه ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ متكامل بناء الايوان الذي أنشأ مقابل المدرسة المستنصرية، وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه، يعلمهم الطب ويقصد المرضى فيداويهم وبنى في حائط المدرسة هذه الصفةدائرة وصور فيها صوره الفلك وجعل فيها طافات لطاف لها ابواب لطيفه وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب وآرائهما بندقتان من شبه لا يدركهما الناظر فعند ماضي كل ساعه ينفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقه انفتح باب من ابواب تلك الطاقات والباب من ذهب فيصير حينئذمفضضا واذ وقعت البندقتان في الطاستين تذهب الى وضعهما ثم تطلع اقمار من ذهب في سماء لاوزدية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دوراتها وتغيب مع غيبوبتها فاذا جاء الليل هناك اقمار طالعه من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعه تكاملت ذلك الضوء ثم يبتدئ في الدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس

فيعلم بذلك اوقات الصلاة)).اما ابن جبير فقد تحدث عن المستنصرية فقال ((والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية يعني الرصافة وما منها مدرسه الا وهي يقصر البديع عنها واعظمها واشهرها النظامية التي ابتناها نظام الملك وجدت سنه ٥٠٤هـ/١١١٠م ولهذه المدارس اوقاف عظيمه وعقارات محبسه تتصور الى الفقهاء والمدرسين بها ويجرون فيها على الطلبة ما يقوم بهم)) .وقد انشا الخليفة المستنصر بالله خزانة كتب قريبا من مجلسه جمع في كتب جمع انواع العلوم على اختلافها وانتخب فيها خطوط المشايخ والعلماء والكتاب ثم سمت همته العالية الى انشاء المدرسة المستنصرية التي اوعز بعمارتها على شاطئ دجله ووقفها على المذاهب الأربعة وملائها بالفقهاء فصارت كعبه العلم ومحط اراب الرغبة اليه والاشتغال به وجعل بها خزانه كتب انتخبها واستجادها ووقفها على طلبه العلم وبنى بجانبها دارا للقران الكريم وعين عليها الشيخ ومعيد وانشا بجوار المستنصرية دارا للطب ويشرف عليه شيخ له معرفه عالية بالطب وامر بان يداوي الناس فيها مجانا فضلا عن الطعام والمنام واذ اوقف على تلك المدرسة اوقافا تسد رواتب موظفيها ومصاريفها الاخرى كما امر الخليفة العباسي بان يلحق بالمدرسة طبيب حازق مسلم وعشره من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ينفق عليهم من اوقاف المدرسة على ان يقوم الطبيب بفحص من يقع له مرض ويجهز المريض بما يوصف له من الأدويةوالأشربة وغيرها وقد خصص الخليفة العباسي المستنصر بالله للمدرسين فيها لكل واحد منهم في اليوم عشرين رطل خبز وخمسه ارطان لحم مع خضرها وللمعيد في كل يوم سبعه ارطال خبز وعرقان من الطبيخ وكان في دار القران شيخ يلقن القران ومعيد وثلاثون صبيا ويكون للشيخ في كل يوم خمسه ارطال خبز وعرقان طبيخ وللمعيد في كل يوم اربعه ارطال خبز وعروق طبيخ ولكل صبي ثلاثةارطال خبز وعروق طبيخ واثناء الغزو المغولي للعراق ضلتالمدرسةالمستنصرية تمارس دورها العلمي رغم ما اصابها من اذى على يد المغول وضياع الكثير من كتبها وفقدان الكثير من المكتبات الخاصة التي كان يستعين بها طلاب العلم اثناء دراستهم في النظامية اختلف قسم منهاوتعرض القسم الاخر منها للنقل الى مناطق اخرى خوفا من ضياع هذه الكتب كما باع قسم من الناس كتبهم في مختلف مناطق العراق والشام التي لم تتعرض للتدمير الشامل كالذي حدث في مدينه بغداد وفقدنا مؤلفات ابن الساعي وابن النجار وابن الفوطي لكن على اية حال فقط عادت المدرسةالمستنصرية الى اخذ دورها العلمي وارجح ان تكون هذه الفترة هي فتره حكم علاء الدين عطاء ملك الجويني ثم استمرت تمارس دورها حتى سنه١٠٣٠هـ/١٦٢٠م، وظلت مؤثره في الفكر العربي الاسلامي وتدرس فيها العلوم النقلية والعقلية لا نعلم هل ان المستنصرية ظلت على حالها تمارس مهامها الدينيةوالعلمية في العهد الايلخاني ام لا ولو تتبعنا ما كتبه ياقوت الحموي من ماده علميه في بلاد خرسان نجد مصداق هذا القول فما كتبه هو من هذه المكتبات وهذا يحتاج الى اكثر من رسالة ماجستير ودكتوراه لبحث هذا الموضوع بأذن الله تعالى عسى الله ان ييسر لطلاب العلم تنازل هذه المواضيع مستقبلا ان شاء الله.وتعرضت مكتبة المدرسة المستنصرية الى الحريق اكثر من مره

بسبب قربها من الاسواق والمحال التي كانت مبنيه بالطين ومسقفة بالسعف والطين فعلى سبيل المثال عندما حدث حريق في سنه٥١٠هـ/١١١٦م، في الحضائر المجاورةللمدرسةالنظامية اتصلت النار بالمدرسة واحترقت الدور واحترقت مكتبةالمدرسةالنظامية وسلمت الكتب ان الفقهاء والناس لما احسوا بقرب النار منها نقلوها الى مناطق اكثر امانا.كما بنيت في مدةخلافة مستنصر باللهمدرسة دار الحديث الأشرفيةفي دمشق، وقد بناها الملك الاشرف صاحب دمشق وذلك في سنه ٦٢٨ هـ ١٢٣٠م، واكتمل بناؤها سنه ٦٣٠هـ ١٢٣٢م اما الموصل فقد اشتهرت بمدارسها البديعةوالجميلة((وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست او ازيد على دجله فتلوح كأنها القصور المشرفة وقد خصص لهذا المدارس الاوقاف التي تسد حاجتها لتنفق على استاذتها وطلابها. اما عن رواتب العلماء والشيوخ في المدارس فكانت قليله مقارنه بما كان يأخذ بقيه موظفي الدولةالعباسية فقد بلغت رواتب العلماء في المستنصرية ١٢ دينار لكل واحد منهم في الشهر كما مر بنا قبل ذلك بينما بلغ راتب احد قاده الجيش العباسي وهو ابو شجاع ايلدكز بن عبد الله التركي الناصري الملقب بـ بطاز ١٢،٠٠٠ دينار في السنه اما رواتب المعيدين وعددهم سته فيأخذون٣ دنانير في الشهر لكل واحد منهم اما الطلاب فكان راتب الواحد منهم ٢ دينار في الشهر. اما شيوخ دار القران فقد كان راتب الشيخ ٣ دنانير والمعيد له في الشهر دينار وعشرون قيراطا وكان راتب الشيخ في دار الحديث يبلغ ٢ دينار وعشره قراريط اما المعيد فله في شهر ١٣ قيراطا وحبه. اما رواتب الاداريين في المدرسةالمستنصرية فكانت بقدر ما يتقاضاه المدرسون في فروع الفقه فراتب الوالي ١٢ دينار في الشهر وراتب المشرف سبع دنانير في الشهر اما راتب الكاتب فهو نفس راتب المشرف اما البوابون والحمامين والموزين والقيم والطباخ وغلامه وخزان الآلات،وخزانة الديون وغلمان الديون والمزملاتي والمؤذن والنفاط فلهم رواتب وجرايات وتتضاعف هذه الرواتب في شهر رمضان المبارك حيث يمكن ان نسميها هديه العيد. اما عن مشاكل الفلاحين وعامة الناس فقد كانت لهم مشاكلهم الخاصة مع الخلافة العباسية وخاصة ما يتعلق بجمع الضريبة ففي سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م ونتيجة لما كان يعانيه الفلاحين من ظلم اخذ الخراج قبل نضوج الحاصل ، فامر نظام الملك والسلطان ملكشاه بجمع جماعة من المنجمين،وجعلوا النيروز اول نقطة من الحمل أي تأخير جمع الضريبة حتى تنضج المحاصيل، وعملا بما كان جاريا من قبل في عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله . كما كان يصدر السلاجقة في بعض السنين اوامرهم بإيقاف جباية بعضالضرائبمثلما حدث في سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، اذ اسقط السلطان المكوس (وهي الضرائب غير الشرعية) والاجتيازات بالعراق (ضرائب التجارة الداخلية) . وما حدث كذلك سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م حيث اسقط السلطان السلجوقي محمد الضرائب والمكوس ودار البيع والاجتيازات وغير ذلك مما يناسبه بالعراق وكتب به الألواح (الأوامر ليقرأها الناس في الطرق والمحلات و مداخل المدن ليعرفوا حقيقة الامر ولا يدفعوا لجامعي الضرائب غير ما هو مقرر عليهم) وجعلت في الأسواق ومنع ظلم الناس . كما أمر الخليفة المسترشد بالله في سنة

٥١٢هـ / ١١١٨م بتخفيف الضرائب عن الناس، فأمر بأسقاط كل جور عن الاقطاع المختص، وامر ان لا يؤخذ إلاما جرت به العادة القديمة (أي رفع الزيادات التي فرضت من غير وجه حق) كما اطلق ضمان غزل الذهب، وكان صناع السقلاطون والممزج وغيرهم ممن يعمل منه، يلقون شدة من العمال عليها، واذى عظيما . كانت الخيوط المذهبة (ذهب طبيعي وخيوط ذهبية) التي تمزج بأنواع القماش، فتباع الأقمشة بأسعار عالية، لما في عملها من جهد إضافي. وفي سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م امر الخليفة الناصر لدين الله بأطلاق جميع حق البيع وما يؤخذ من ارباب الامتعة من المكوس من سائر المبيعات، وكان مبلغاً كبيراً .وعندما تولى الخلافة الظاهر بأمر الله في سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م امر هذا الخليفة بتخفيف الضرائب عن الناس في العراق وعمل على تحسين احوالهم المعاشية، فأمر بالتعامل بمكيال واحد يستلم الناس به ويسلمون الدولة به، ولا يجوز التعامل بمكيالين في اخذ الضريبة، إذ كانت الدولة تستلم حصتها سابقا بشكل كامل، وتسلم الناس ما يحتاجون إليه بمكيال ناقص عن الأول، وبلغ الفرق بين الواردين خمسة وثلاثين ألف دينار .وجرى الاهتمام بالفلك في المدة السلجوقية فقد أمر السلطان السلجوقي ملكشاه بعمل مرصد في بغداد، وقد عين له جماعة من خيار العلماء، وخصص له النفقات السنية، وبقي الرصد مستمرا حتى وفاة السلطان، فبطل بعد موته سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م . وفي سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م، تولى الرصد بالدار السلطانية الواقعة شرقي بغداد البديع الاصطلابي ولم يتم له ذلك.وتم انشاء عدد من الاربطة في مختلف ارجاء الدولة العباسية .

ويبدو ان هذه الاربطة كانت تتخذ اماكن للعلم والعبادة والزهد، فقد انشأ شيخ الشيوخ ابو سعد الصوفي (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) رباط نهر المعلى (ويعرف في عهد ابن الاثير برباط شيخ الشيوخ) وبنى اوقافه التي أوقفها الناس عليه، كما بنى هذا الرجل وقوف المدرسة النظامية.في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله وفد على بغداد جماعة مـن البلغار يريدون الحج، فأقيم لهم من الديوان الاقامات الوافرة، فسئل بعضهم :من أي الامم هم البلغار؟ فقال: هم قوم تولدوا بين الترك والصقالبة، وبلدهم في اقصى الترك، وكانوا كفارا، فاسلموا عن قريب.وقد أمر الخليفة الناصر لدين الله بإقامة دور الضيافة لفطور الفقراء أيام رمضان في محال بغداد المختلفة في جانبي بغداد، وجعل في كل دار من يوثق بأمانته في سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م وخصص لكل صائم في كل يوم رطلين من الخبز الجيد، قدح طبيخ فيه نصف رطل لحم ضأن . فكان يفطر كلّ ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة .حيث انشأت دور المضيف في جميع محال بغداد القريبة لغرض تناول الفطور فيها في شهر رمضان فتمت في سنة سبت وعشرين ستمائة، وانشأ مسجد عشائر المطل على كرسي الجسر العتيق وجدده حسن تجديد في سنة ست وثلاثين وستمائة. وتقدم ببناء مزملة مقبرة لأمام احمد بن حنبل في سنة اربع وثلاثين وستمائة، وبالجملة انه لم يترك منقبة الا وسلك طريقها ، ولا حسنة الا وحاز توفيقها.وتم الاهتمام بطرق المواصلات وحفظها، اذ كانت هذه من مسؤوليات الولاة وعمال البريد ، وبخاصة اذا كان الخليفة أو السلطان يتمتع بالقوة،

وهي اشبه بالرايا التي تنتشر على الطرق الداخلية لحفظ المسافرين والحجاج والتجار ، وكانوا يلقون القبض على كل من يشكون فيه. ومن المهام التي تلقى على الامراء هي مسؤولية حماية الطرق الخارجية مثلما حدث للأمير فخر الدين ابو منصور، والذي فوض اليه طريق خراسان والجبل الى شهرزور وقد وصف ابن جبير حماية الطرق في العصر العباسي فقال عنها: ((والطرق على أكثرها خيام، فيها رجال محترسون للطريق، اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج، دون اعتراض منهم لإستنفاع بدية أو غيرها)) ، كما كانت الخلافة تقوم بتنظيف الآبار في طريق الحج واعدادها للحجاج، فضلا عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة من بغداد وصدقة فقراء الحرمين الشريفين وكسوة حجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان الخلفاء العباسيون يكسون الكعبة من دار الطراز في بغداد منذ ايام الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) فكساها الخليفة الناصر لدين الله ديباجا اخضر، ثم كساها ديباجا اسود. كما أمر الخليفة المسترشد بالله سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م ببناء سور مدينة بغداد، وان يجبى ما يخرج عليه من البلد، فشق ذلك على الناس، وجمع من ذلك مال كثير ، فلما علم الخليفة كراهة الناس لذلك، أمر بإعادة ما اخذ منهم، فسروا بذلك وكثر الدعاء له. وقد تناوب اهل بغداد علىالمشاركة في بناء السور، يعمل كل أهل محلة منفردين بالطبول والزمور، وزينوا البلد وعملوا فيه القباب (السرادقات).

وعندما توفي مجاهد الدين قايماز (الذي بنى مقام الخضر عليه السلام في الموصل، ويقع مجاور جسر الحرية الحالي الذي يسميه اهل الموصل بالجسر الجديد) ذكره ابن الأثير قائلا: كان عاقلا دينا خيرا فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويحفظ من التاريخ والاشعار والحكايات، وبنى عدة جوامع بالموصل، وبنى الربط والمدارس والخانات في الطريق، وله من المعروف الشيء الكثير.كما بنى أحد المساجد في الجانب الغربي من مدينة بغداد في موضع يعرف بقمرية وتمت عمارته سنة ست وعشرين وستمائة، ورتب له ما يحتاج اليه من الشيوخ والمؤذنين وطلبة العلم. كما امر الخليفة المستنصر بالله ببناء رباط دار الروم، وجعل له مئذنة ورتب له ما يحتاج اليه من نفقات ومصاريف لإدامته.وأمر الخليفة ببناء دار المضيف في جميع محال بغداد القريبة لغرض تناول الفطور فيها في شهر رمضان فتمت عمارتها في سنة ست وعشرين وستمائة، وانشأ مسجد عشائر المطل على كرسي الجسر العتيق وجدده احسن تجديد في سنة ست وثلاثين وستمائة. وتقدم ببناء مزملة مقبرة الإمام احمد بن حنبل في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وبالجملة فانه لم يترك منقبة الا وسلك طريقها، ولا حسنة إلا وحاز توفيقها. اما القاهرة فقد عرف فيها مستشفى للمجانين، ويقدم في هذا المارستان كل شيء، وله من يتفقده كل يوم. كما نشاهد في هذه الفترة كثرة بناء الاربطة والمشاهد على اضرحة الصالحين والخلفاء والأولياء وشيوخ الصوفية والزهاد، وكانت هذه الربط تلحق بها غرف للنوم والعبادة والذكر، وتلحق بها المكتبات ويؤمها

الزهاد والصوفية وينقطعون اليها للعبادة، وقد قام قسم من الخلفاء وزوجاتهم ببناء هذه الأضرحة، فقد بنت ام الخليفة الناصر لدين الله، رباط علي الهيني ورباط بجواره، وأنشأت قبة عجيبة عليه، وأوقفت عليه قرية بلغ واردها آنذاك خمسمائة دينار في ذلك الوقت. وعندما توفيت زوجة الخليفة الناصر لدين الله سلجوقة خاتون بنت قلج ارسلان، سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م حزن عليها حزنا شديدا وبنى تربة لها بالجانب الغربي من بغداد، وبنى إلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة .كما اهتمت الدولة العباسية ببناء الربط للصوتية، وجعلت عليها الوقوف والمشرفين لصرف وارداتها على هذه الربط، ومن يأوي اليها فقد بنى الخليفة الناصر لدين الله رباطا بالحريم الطاهري غربي بغداد على نهر دجلة حيث اكتمل بناؤه في سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣. وكان مر احسن الربط، ونقل اليه كتبا كثيرة من احسن الكتب، وبني رباط الشيخ محمد السكران ويسمى زاوية الشيخ محمد السكران، وكانت توزع في هذه المشاهد والأضرحة والأربطة الصدقات الرمضانية والرجبية. كانت الأطعمة تقدم في رمضان ورجب عند بعض هذه الأضرحة والمراقد مثل قبر الإمام احمد بن حنبل، وعند قبر أبي حنيفة النعمان، حيث يقدم الطعام للفقراء والمرابطين .

وبنى الخليفة المستعصم بالله الرباط المستجد بالجانب الغربي من بغداد، وبنى المدرسة البشيرية، مقابل مشهد الشيخ معروف الكرخي وجعلها برسم فقهاء الائمة الأربعة .وأثناء الحكم المغولي ومن خلال المسؤولين المسلمين الذين تولوا منصب صاحب ديوان العراق، نجد أن هؤلاء يقومون ببناء بعض المنشآت العمرانية والدينية في مختلف ارجاء العراق عندما عين الخان المغولي صدر الدين الطوسي مسؤولا عن الاوقاف في جميع الامبراطورية الايلخانية ،فقام هذا الشخص بتعيين نواب عنه في اقاليم الدولة المغولية ، ففي سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م أنشأ علاء الدين الجويني رباطا قرب مشهد الإمام علي بن ابي طالب رضيالله عنه، وأوقف عليه أوقافا كثيرة. وفي نفس السنة امر بقتل احد الأشخاص الذي أساء إلى الدين الإسلامي وفضل شعره القذر على القرآن الكريم. وقام علاء الدين برجم رجل وامرأة وجدا في حمام على فاحشة في رمضان خارج سور بغداد كما انشأ ناصر الدين قتلغ شاه الصاحبي رباطا قرب مشهد الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه في سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، واوقف عليه اوقافا كبيرة واسكن به جماعة من المرابطين ، وعندما زار السلطان المغولي محمود غازان العراق ، زار مشهد الامام الحسين عليه السلام وزار كذلك مرقد الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه، وفرق بين الناس أموالاً كثيرة ، كما عادت قوافل الحجاج العراقيين الى التوجهإلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج . .بعد انقطاع دام سنوات اثر الغزو المغولي .كما امر السلطان محمود غازان ببناء مرصد فلكي في مدينة مراغة،وشجع المؤرخ رشيد الدين الطوسي على كتابة كتابه في التاريخ (جامع التواريخ) والذي أرخ فيه للمغول بشكل مفصل .

وفي عهد السلطان المغولي محمود غازان ، تم حفر نهر في منطقة الحلة سمي بالنهر الغازاني ، وأوصله الى مشهد الإمام الحسين ، حتى أخذ يسقي أراضي مدينة كربلاء اليابسة فأصبحت الأراضي الممتدة على جانبيه مليئة بالحدائق والبساتين ، وأصبحت السفن القادمة من بغداد وغيرها من نهري دجلة والفرات،تستطيع الوصول الى المدينة ، وارتفع انتاج غلات المنطقة الى ما يقارب المائة ألف طغار، وأصبحت صادراتها من الحبوب والخضراوات تصل الى بغداد وأعمالها ، كما أوصل غازان فرعاً من النهر المذكور الى مشهد سيدي أبي الوفاء في نهر سمي بالنهر الغازاني الأسفل ، وأوقف الكثير من الأوقاف على خدمة المشهد المذكور، ونتيجة لهذا العمل فقد ارتفعت أسعار الأراضي والدور أضعافاً مضاعفة في المنطقة التي شملها مشروع الري هذا كما فتح صاحب ديوان العراق علاء الدين عطاء ملك الجويني نهر من الفرات الى مدينة النجف انفق عليه أكثر من مائة الف دينار، وقد زرعت الأراضي الواقعة على هذا النهر بالأشجاروالمزارع .

ثبت المصادر والمراجع

١- ابن الأثير : الكامل في التاريخ.
٢- ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية .
٣- الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد مقاتل الطالبيين.
٤- البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية.
٥- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.
٦- ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.
٧- الجويني علاء الدين عطاء ملك تاريخ جهانكشاي
٨- الحسيني ابو علي بن ابي الفوارس اخبار الدولة السلجوقية.

٩- ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر
-١٠ ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
١١- الذهبي : دول الاسلام
١٢- الروذراوري، ابو شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين : ذيل تجارب لامم.
-١٣ السيوطي : تاريخ الخلفاء.
-١٤ ابن شداد : سيرة صلاح الدين (السيرة اليوسفية).
١٥ ابو الحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم : رسوم دار الخلافة
-١٦ الصابيء، أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الكاتب : المنتزع من كتاب التاجي.
-١٧ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول.
-١٨- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا.
١٩ القلقشندي : مآثر الإناقة في معالم الخلافة.
٢٠- ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي : مختصر تاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس
-٢١ ابن كثير : البداية والنهاية.
٢٢ ابن مسكويه : تجارب الامم.
٢٣ - ياقوت الحموي : معجم البلدان.
٢٤ الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار
٢٥- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في اخبار من ذهب
٢٦ - الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
-٢٧- القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد.

المراجع الحديثة :

١- حسين امين تاريخ العراق في العصر السلجوقي
٢- بارتولد : تركستان من الفتح الاسلامي حتى الغزو المغولي.
٣- ارنست باركر : الحروب الصليبية.
٤ - بوزوورث: التنظيم العسكري عند البويهيين المورد مجلد ٤ العدد ١ (١٩٧٥) .
٥ - رشيد عبد الله الجميلي : حملة هولاكو على بغداد المورد مجلد ٨ العدد ١ (١٩٧٩) .
٦ - عبد المنعم حسنين : دولة السلاجقة.
٧- احمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة.
٨- عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي

٩- عماد الدين خليل : الامارات الارتقية في الجزيرة والشام.
١٠- تقي عارف الدوري : عصر امرة الامراء
١١- محمد حسين الزبيدي: العراق في العصر البويهي.
١٢ - فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ.
١٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية.
١٤ - توفيق نافع العبود : الدولة الخوارزمية.
١٥ - فاروق عمر فوزي : الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة.
١٦- فيشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى.
١٧- محمد سهيل طقوش تاريخ الدولة العباسية .
١٨ محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية.
١٩- عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق.
٢٠- حمدي حافظ : الدولة الخوارزمية والمغول.
٢١ - عبد العزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة .
٢٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك.
٢٣- سعيد عبد الفتاح عاشور الحركة الصليبية .
٢٤- سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام .
٢٥- الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية .
٢٦- محمد صالح داود القزاز : الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير.